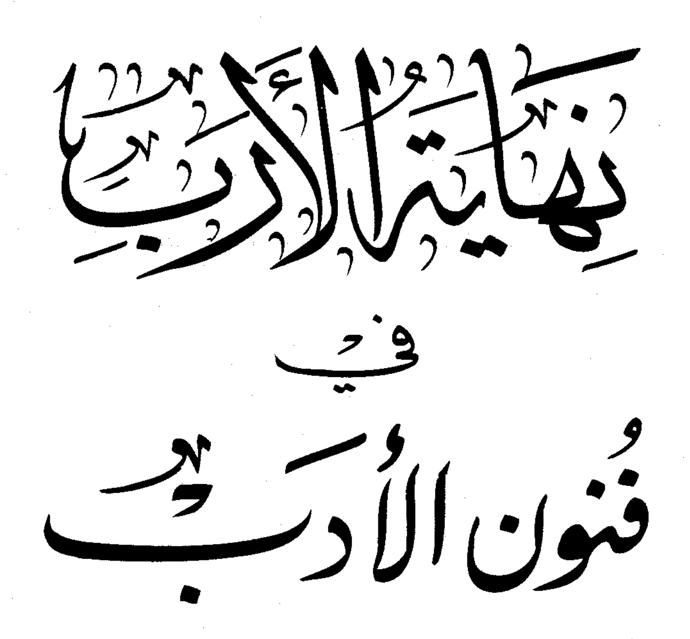


نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

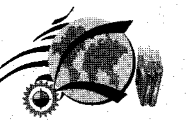
٣٠ - ٣١

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فواز و الدكتورة حكمت كشلي فواز

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



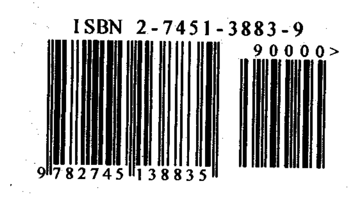
دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban



ISBN 2-7451-3883-9
9 782745 138835 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقي

سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة[1]

ذكر أخبار السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي[2]

وهو الرابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية المحروسة، وهو تركي الجنس من قبيلة البرلي، ملك الديار المصرية والبلاد الشامية في يوم السبت المبارك الخامس عشر من ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان ذلك بمنزلة القصير[3] من منازل الرمل، في اليوم الذي قتل فيه السلطان الملك المظفّر سيف الدين قطز المعزي[4].

وذلك أنه لما قتل الملك المظفّر ساق الأمراء إلى الدهليز ونزلوا به، وجلسوا كلهم دون طراحة السلطنة، وتشاوروا فيمن يملكونه[5] عليهم، فوقع اختيارهم عليه. ويقال إن الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الصالحي الأتابك قال في ذلك المجلس: «ينبغي ألاّ يلي السلطنة إلاّ من خاطر بنفسه في قتل السلطان وأقدم على هذا الأمر العظيم» فقال الملك الظاهر: «أنا قتلته» ووثب وجلس على طراحة السلطنة،

---

(١) يوافق أولها يوم الخميس ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٢٥٩ م. قارنها بكتاب عقد الجمان لبدر الدين العيني ج ١، ص ٢٢٩ ـ ٢٨٦.

(٢) انظره في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٥، ابن شاكر الكتبي، ج ١، ص ٢٣٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٧٤.

(٣) قصير الصالحية، وهي على مرحلة من مدينة الصالحية الحالية، واسمها اليوم قرية الجعافرة بمركز فاقوس، راجع النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص ١٠١.

(٤) هو قُطُز بن عبد الله الشهيد، الملك المظفّر سيف الدين المعزي، من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً حازماً. توفي سنة ٦٥٨ هـ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات ج ٣، ص ٢٠١، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٩٢، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٩.

(٥) في الأصل يملكوه.

فبايعه الأمير فارس الدين المذكور، وحلف له، ثم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، ثم الأمراء على طبقاتهم. ثم قال له الأمير فارس الدين الأتابك: «إن السلطنة لا تتمّ لك إلاّ بدخولك إلى قلعة الجبل»[١]، فركب لوقته، وركب معه الأمير فارس الدين الأتابك، والأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي، ومماليكه وخواصه.

وتوجه بيبرس إلى قلعة الجبل، ورتّب في مسيره إليها أرباب الوظائف؛ فرتّب الأمير جمال الدين أقش[٢] النجيبي الصالحي أستاددارا[٣]، والأمير عز الدين أيبك الأقرم الصالحي أمير جاندار، والأمير حسام الدين لاجين الدرفيل، والأمير سيف الدين بلبان الرومي في الدوادارية، والأمير بهاء الدين أمير آخور على عادته. ولقيه في طريقه الأمير عز الدين إيدمر الحلي، وكان ينوب عن الملك المظفر بقلعة الجبل، وقد خرج لتلقيه، فأعلمه الملك الظاهر بما اتفق، وعرض عليه أن يحلف، ثم تقدم إيدمر إلى القلعة واجتمع بمن بها، ووعدهم عن السلطان المواعيد الجميلة فأجابوه، ولم يزل على باب القلعة إلى أن وصل السلطان إليها، فدخلها ليلاً وتسلمها.

ويقال إنه لما ملك بيبرس تلقب بالملك القاهر ووصل إلى قلعة الجبل ولقبه ذلك، فأشار الصاحب زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب، وقال: إنه ما لقّب به أحد فأفلح: لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل أيامه وخلع وسمل[٤].

ولقّب به القاهر صاحب الموصل فسم. فنقل السلطان لقبه إلى الملك الظاهر والله أعلم.

قال المؤرّخ[٥]: وكانت القاهرة ومصر قد زُينتا لقدوم الملك المظفّر، والناس في سرور لمقدمه إثر هذا النصر العظيم[٦]، فلم يرعهم إلا ومنادٍ ينادي: «معشر الناس، رحمكم الله، ترحّموا على الملك المظفّر، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين»، فوجم الناس لذلك، وتألموا خوفاً من شدة البحرية وما كانوا[٧] يعتمدونه من

---

(١) ما بين مزدوجتين مأخوذ عن: كتاب السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٥.
(٢) كذا في الأصل، أما صاحب النجوم الزاهرة فقد رسمه بالواو (أقوش)، انظر: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٥.
(٣) كذا في الأصل.
(٤) سمل: فقأ. راجع لسان العرب لابن منظور، مادة: سمل.
(٥) هو محيي الدين بن عبد الظاهر، صاحب كتاب السيرة الظاهرية. السيوطي، بغية الوعاة، ص ٢٨٥، مجلة المورد، ج ٢، العدد الثاني ص ٤٣.
(٦) الإشارة هنا إلى وقعة عين جالوت. انظرها في عقد الجمان، ج ١، ص ٢٤٣ ـ ٢٥٢.
(٧) في الأصل كأنه، والتصحيح يقتضيه السياق.

الظلم والسلطنة في غيرهم، فكيف وقد صارت فيهم. فعاملهم السلطان بما سرهم به، وهو أن الملك المظفّر كان قد جدّد على الناس[١] حوادث في سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة: منها تصقيع الأملاك وتقويمها وأخذ زكاتها، وأخذ ثلث الترك الأهلية، ومضاعفة الزكاة، وجباية الدينار من كل إنسان، ومبلغ ذلك ستمائة ألف دينار. فأبطل السلطان بيبرس ذلك، وكتب به توقيعاً قرىء على المنابر، فطابت قلوب الناس.

قال: ولما أصبح السلطان بيبرس في يوم الأحد جلس بالإيوان بقلعة الجبل وحلف العساكر لنفسه، واستناب مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار[٢] وأقر الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب في الأتابكية.

وكاتب الملوك والنواب والأمراء بالممالك الشامية يخبرهم بما جدده الله تعالى له من أمر السلطنة، ويطلب منهم بذل الطاعة والموافقة.

واستهلت سنة تسع وخمسين وستمائة[٣]

في هذه [السنة][٤] كان للسلطان في ابتداء سلطنته أخبار متشعبة متباينة: منها ما هو في حضرته بمقر ملكه بالديار المصرية؛ ومنها ما هو بدمشق، ومنها ما هو بحلب، وكل ذلك في هذه السنة، وبعضه في أواخر سنة ثمانٍ وخمسين.

وقد رأينا أن نبدأ من ذلك بما كان في مقر مملكته في بعض هذه السنة خاصة، ثم نذكر ما كان بدمشق وحلب من الحوادث والوقائع إلى أن استقرت قواعد سلطنته وتأكّدت أسباب دولته، ثم نذكر ما يشمل المملكة عموماً، ثم نذكر بعد ذلك ما اتفق [له][٥] من الأحوال، وما رتّبه من الأمور، وما أمر به من العمائر والأوقاف وغير ذلك بمصر والشام، ونذكر الأخبار والوقائع على حكم السنين نقدّم ما قدّمه التاريخ ونؤخّر ما أخّره.

لا نستثني مما نورده من أخبار دولته إلا الغزوات والفتوحات: فإنا نذكرها مفردة، ونختم بها أخبار دَولته، فإنها من الفتوحات الجليلة والغزوات المشهورة فأحببنا إيرادها في موضع واحد، لئلا تنقطع بغيرها من أخباره، على ما نقف على ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) الحوادث هنا بمعنى الضرائب الطارئة. انظر: دوزي.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) يوافق أولها يوم الاثنين، ١ كانون الأول/ ديسمبر ١٢٦٠ م. قارنها بكتاب عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٨٩ ـ ٣٢٤.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

فأما ما كان من الأخبار والحوادث في مقر ملكه بالديار المصرية

فمن ذلك ركوب السلطان من قلعة الجبل في يوم الاثنين سابع صفر من السنة بشعار السلطنة، وساق خارج المدينة إلى باب النصر ودخل منه، وشق القاهرة وخرج من باب زويلة إلى قلعة الجبل، والأمراء وأعيان الدولة مشاة في خدمته.

ومنه تفويض وزارة الدولة إلى الصاحب بهاء الدين.

ذكر تفويض الوزارة إلى الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن القاضي سديد الدين أبي عبد الله محمد بن سليم المعروف بابن حِنًا(١)

في هذه السنة، فوّض السلطان إليه وزارة دولته، وخلع عليه، وركب في خدمته الأعيان والأكابر، والأمير سيف الدين بلبان الرومي الداودار(٢)، وجماعة من الأمراء، وذلك في يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول وقبيل ثانية، وتمكن [الصاحب بهاء الدين] من السلطان ودولته تمكناً عظيماً. وحكى لي بعض الأكابر الثقات [أن](٣) الصاحب بهاء الدين رأى في منامه قبل وزارته أنه ذبح السلطان الملك الظاهر، فقصّ ذلك على من يثق به ممن له معرفة بالتعبير، فقال له: «تتمكّن منه تمكّن الدابح من المدبوح». وكان منه في أقرب منزلة وأعزّ مكانة.

ذكر القبض على جماعة من الأمراء المُعزّية

وفي شهر ربيع الأول أيضاً، قبض السلطان على جماعة من الأمراء المعزية وسبب ذلك أنه حضر إلى السلطان أحد أجناد الأمير عز الدين الصيقلي(٤) وأنهى أن مخدومه فرق جملة من الذهب على جماعة، وقرر معهم الوثوب على السلطان وقتله، وكذلك الأمير علم الدين الغُتمىء، والأمير سيف الدين بهادر المعزى، والأمير شجاع الدين بكتوت وغيرهم. فقبض عليهم، ثم قبض على الأمير بهاء الدين بغدي(٥) الأشرفي، في شهر ربيع الآخر، واعتقله فلم يزل في اعتقاله حتى مات.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٠٧، «الصقلي».

(٢) الداودار: هو الذي يقرأ للسلطان كتب الأسرار الواردة عليه من الملوك وهو الذي يجيب عنها ويسفر بنيه وبين وزرائه وكتابه. انظر فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج ١، ص ٢٣٧. وصبح الأعشى ج ٤، ص ١٩.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) انظر صبح الأعشى، القلقشندي، ج ٣، ص ٣٤٣، ج ١١، ص ٢٥٣، ٢٧٠، وج ١٤، ص ١٣٩.

(٥) هكذا بالأصل، ويذكر ابن تغري بردي أنه كان يشغل وظيفة مقدم الحلقة وقتذاك. النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٤٣.

ذكر تفويض قضاء القضاء بالديار المصرية لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز[(١)]

وفي هذه السنة فوّض السلطان الملك الظاهر قضاء القضاة بالديار المصرية لقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن القاضي الأعز خلف بن بنت الأعز، وعزل قاضي القضاة بدر الدين السنجاري[(٢)]، وعُوّق عشرة أيام، ثم أُفرج عنه وعُطّل عن الحكم.

ونسخة التقليد السلطاني: «لقاضي القضاة تاج الدين» ومثال العلامة الظاهرية عليه بعد البسملة: «المستعلي بالله».

«الحمد لله الذي أنار مطالع الهدى، وصان ما ابتذل من الأمور التي ما أهملت سدى، وألبس الشريعة المطهرة ثوباً من الشرف مجدداً، وأعلى منارها بمن أضاءت مساعيه، فلو سرى بها الركب لاهتدى».

«وأحمده على نعم توالى هطل غمامها، ومنن أضحت متناسقة عقود نظامها».

«والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عزت به أمور الإسلام بعد اهتضامها، وعلى آله وأصحابه الذين أضحت بهم عرى الدين الحنيف وثيقة بعد انفصامها».

وبعد، فلما كان المجلس السامي، القاضي الأجل، الصدر الكبير، الإمام العالم، الفقيه الفاضل، المختار المرتضى، الصاحب تاج الدين، عز الإسلام، مجد الأنام، شمس الشريعة، مفتي الفرق، رئيس الأصحاب، ذخر الملوك والسلاطين، قاضي القضاة عبد الوهاب بن خلف، أدام الله سعادته ونعمته، ممن أحرز في الفضايل[(٣)] قصب سبقه، ووصل سح[(٤)] غمامه في العلوم الشرعية ببرقه واجتنى ثمارها الدانية القطوف، واجتلى أقمار معانيها التي لا تتوارى عنه بالسجوف وسلك[(٥)] سبيلاً

---

(١) ذكر ابن تغري بردي هذا الاسم كاملاً: أبو محمد عبد الوهاب ابن القاضي الأعز خلف ابن بنت الأعز بن محمود بن بدر بن أبي محمد العلامي الشافعي. النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٤١، حاشية رقم (٣).

(٢) هو يوسف بن الحسن علي السنجاري، نسبة إلى سنجار بشمال العراق. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ٣، ص ٤٣، حاشية رقم (٢).

(٣) في الأصل الفضايل وهي الفضائل.

(٤) في الأصل «السخ» بالخاء المعجمة، وهو خطأ والراجح أنه السح بالحاء المهملة بمعنى السيل والانهمار والصب. الفيروزابادي، القاموس المحيط (سخ).

(٥) هكذا في الأصل، والسجوف مفردة: السجف، بفتح السين أو كسرها وهو الستر. الفيروزابادي، القاموس المحيط (سجف)، وابن منظور، لسان العرب، (سجف).

من العفاف أضحى به وحيداً منفرداً، ومارس أمور الشريعة فثقف منها أوداً، وأعمل فكرته الصافية فحلّل منها عقداً، وأنعم نظره فيها فأوضح له من الضلال رشداً.

رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني، زاد الله في علائه، وضاعف مواد نفاذه ومضائه[١] أن يفوّض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة، لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تُجتنى، ومساع حميدة ما برح بها إلى الخلائق محسناً، ودين متين يشيد من أمور الآخرة ما بنا، وسؤدد ما زال فيه وفي بيته مستوطناً، وأوصاني جميلة خصّته بنباهة أضحى بها متقدماً وآراء مسدّدة أضاءت من سبل الرشاد ما كان مظلماً، ونزاهة ما زالت له خلقاً لا تخلقاً، وعفاف ما برح منه مثرياً لا معلقاً.

فليباشرْ هذا المنصب الذي أضحى ظل شرفه وارفاً، وكعبة حرمه التي يتوجه إليها من كان بادياً أو عاكفاً، عاملاً فيه بالتقوى التي يحافظ عليها مسراً ومعلناً، ويتمسك بأسبابها إذا صدّ عنها غيره وانثنى، فهي المعقل الذي لا يستباح له حمى، والمقام الذي يجد الخائف أمنه فيه محققاً لا غيباً مُرَجّماً[٢]، والعصمة التي تنجى من العطب، والمركب الذي تجد به الأنفس راحتها الكبرى بعد التعب.

وليُولّ من القضاة من يُحيي من الحق سنناً، ويميت من الباطل بدعاً، ويكون رجاؤه بالآخرة متصلاً، ومن الدنيا منقطعاً، ليرجعْ به سبيل الحق بعد ضيقه متسعاً، وشمل الباطل بعزيمته مفترقاً لا مجتمعاً.

وليتفقّد أمر العدول الذين أضحوا على الحقيقة عدولاً عن المنهج القويم، راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف ذميم. ولا يترك منهم إلا شاهداً كان عن المعايب غائباً أو متورعاً، لا يعتمد من الأمور إلا ما كان واجباً، لتسلم عدالته من وصمه التجريح، وتظهر مساعيه التي تذلل له من العلا كل جموح.

وأموال الأيتام والأوقاف فلا يُباشرْها إلا منْ كان لمباشرتها أهلاً، ومن تتحقق أنه يكون عليها قفلاً. فطالما ابتذلت أيدي الخونة منها مصوناً، وجعلت العين منها أثراً حين مدّت إليها عوناً. ولا تخلها من نظر يحفظ منها مضاعاً ويحسم عنها أطماعاً، ويخصّها بمزية الزيادة بعد النقصان، ويكتب لها من مخاوف الخونة كتاب أمان.

فقد قلّدناك هذه الأحكام التي نرجو بك الخلاص من تبعاتها، ورعينا بك حقّ الرعية، فلا تخل أمورهم من مراعاتها، وأمضى[٣] عزيمتك في إقامة منار الشريعة بعد

---

(١) في الأصل: «مضاية».
(٢) في الأصل: «عيبا مر كما» والتعديل يقتضيه السياق.
(٣) هكذا في الأصل، والصواب وامضِ.

القمود، واعل همتك في نظم ما تبدد له من العقود. واجتهد في أمره الاجتهاد الذي يرفل منه في ضافي البرود، ومتّع الخلائق بأيام بيضٍ من أحكامك غير سود، ففيك من السؤدد ما ينقادُ به المفاخر، ومن الأوصاف الجميلة ما تتميز به على الأوائل وأن جئت من الزمن الآخر.

وقد قررنا لك من الجامكية(١) والجراية(٢) نظير ما كان مقرراً لمن تقدمك، وهو في كل شهر أربعون ديناراً صرف أربعين وستمائة وستة وستون درهماً ناصرية وثلثان وخمسة وعشرون أردباً غلة نصفين.

فليوصل ذلك إليه على تمامه وكماله عند وجوبه واستحقاقه، بعد العلامة الشريفة أعلاه إن شاء الله تعالى.

وكتب في السابع عشر من جمادي الأولى سنة تسع وخمسين وستمائة. الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه، وآله وصحبه الطاهرين وسلامه.

وعين جهة الجامكية على الجوالي بالديار المصرية، والغلة على الأهراء المباركة بمصر المحروسة.

واستمر الصاحب تاج الدين في القضاء بجميع الديار المصرية إلى شوال من السنة، فاقتطع منه قضاء مصر والوجه القبلي، وفوض ذلك إلى القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن بن علي بن الخضر السنجاري(٣) في ثالث شوال، ثم عزل برهان الدين الخضر وأعيد قاضي القضاة تاج الدين بتقليد سلطاني تاريخه الثامن من صفر سنة ستين وستمائة. وقد شاهدت هذا التقليد ووقفت عليه.

ذكر ما اعتمده السلطان في ابتداء سلطنته ورتّبه من المصالح وقرّره من القربات والأوقاف والعماير

كان مما ابتدأ به، رحمه الله تعالى وعفا عنه وأنابه، عمارة الحرم الشريف النبوي وسنذكره.

---

(١) الجامكية: جمع جوامك، وهي الرواتب عامة. ونص القلقشندي «أن نفقة مماليك السلطان، كانت عبارة عن جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧؛ البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٨٢.

(٢) الجراية هي كالجامكية، أي الرواتب عامة. القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٨، ٢٧٥، ج ١١، ص ٤٢.

(٣) هو برهان الدين، أبو محمد الخضر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٤، حاشية رقم (٤).

ثم وصلت الكتب في سنة تسع وخمسين أن القبة التي بالصخرة الشريفة ببيت المقدس قد تداعت، فكتب إلى دمشق بتجهيز الصناع إليها وما يحتاج إليه من الآلات، ونجزت العمارة بها في سنة ستين.

وكانت عدة ضياع من أوقاف الخليل قد دخلت في الإقطاعات، فأمر السلطان بارتجاعها، وعوّض الأمراء عنها، وأعادها إلى الأوقاف، وأوقف قرية أذنا[١] على الخليل عليه السلام.

ذكر بناء قلعة الجزيرة[٢]

كان السلطان الملك المعز قد أمر بهدمها، وأباح ما بها من الرخام والأصناف التي غرم عليها السلطان الملك الصالح الأموال العظيمة، فرسم السلطان بيبرس[٣] بعمارتها، وندب لذلك الأمير جمال الدين بن يغمور، فشرع في إصلاح ما استهدم من قاعاتها، ورتب فيها الجاندارية[٤]، وأعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة. وفرّق السلطان الأبراج: فرسم أن يكون برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاون[٥] الألفي، وثانيه للأمير عز الدين[٦] الحلي، والبرج الثالث للأمير عز الدين إيغان[٧]، وبرج الزاوية الغربي للأمير بدر الدين بيسري الشمسي. وفرق بقية الأبراج على الأمراء، ورسم أن تكون بيوتاتهم واسطبلاتهم بها، وسلم إليهم المفاتيح.

ورسم بعمارة القناطر بجسر شبرمنت بالجيزية وأكثر ما كانت الجيزية تشرق عنه.

---

(١) هكذا في الأصل، وأيضاً في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٤٥. وفي معجم بلدانية فلسطين لمحمد شرّاب هي قرية إدنا، وهي شمال غرب الخليل، وقد نشأت هذه القرية على موقع مدينة أشنة الكنعانية، وبقيت بهذا الاسم حتى العهد الروماني، ثم حُرِّفت إلى إدنا، وهي كلمة سريانية بمعنى الأذن. محمد شرّاب: معجم بلدانية فلسطين، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) المقصود جزيرة الروضة، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٠، حاشية (٤)، وكذلك ج ٧، ص ١٩٢، حاشية (٧).

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) فئة من مماليك السلطان، أو الأمير، وهي مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما جان: ومعناه سلاح، والثاني دار: ومعناه ممسك، ووظيفة أمير جاندار السلطان، أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة، ويدخل أمامهم إلى الديوان، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٢.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٤٥.

(٧) هكذا في الأصل وفي السلوك (أوغان) بالواو بدل الياء. المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٥.

فبنيت القناطر في هذا الجسر تلتقي صدمة الماء الأولى وتفتح لتصريف المياه أولاً فأولاً.

ورسم بعمارة مشهد النصر بعين جالوت، وكتب بذلك إلى نواب الشام.

وحث على عمارة الأسوار بثغر الإسكندرية وحفر خنادقها، ورتب جملة من الأموال في كل شهر تصرف في نفقة العمائر[١] وبنى مرقباً لثغر رشيد لكشف مراكب الفرنج.

ورسم بردم فم بحر دمياط، وتوغيره بالقراتيص، وتضييقه ليمنع السفن الكبيرة من الدخول فيه.

ورسم بحفر بحر أشموم طناح، وندب لذلك الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي فتوجه لذلك وحفر ما يجب حفره، وغرق المراكب قبلي فم البحر من الجانب الغربي حتى ترد الماء إليه.

واهتم بعمارة الشواني وأعادها إلى ما كانت عليه من الأيام الكاملية والصالحية.

وأمر بعمارة شواني الثغرين وأحضرها إلى ساحل مصر، وكانت تزيد على أربعين قطعة، وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد والسلالير[٢].

وركب الخليفة والسلطان في يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة من القلعة إلى ساحل مصر، وركبا[٣] في الحراريق، وتفرجا، وطلعا إلى قلعة الجزيرة وجلسا بمقعد البانياسي، ولعبت الشواني، ثم عادا إلى القلعة.

ورسم بعمارة القلاع المنصورة بالبلاد الشامية وهي: قلعة دمشق، والصلت وعجلون، وصرخد، وبصرى، وبعلبك، والصبية، وشيزر، وشميس[٤]، وكان التتار قد خربوا أسوارها فرسم بإعادة ما استهدم وإصلاح ما تشعث.

ورسم بعمارة مدرسته التي بالقاهرة، وسيأتي ذكرها، إن شاء الله تعالى.

هذا ما قرره من المصالح العامة ورتّبه من المهمات في ابتداء سلطنته، فلنذكر خلاف ذلك من المتجدّدات.

---

(١) في الأصل العماير.

(٢) السلالير: جمع سلورة، وهي النوع من السفن، المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢، ابن منظور، لسان العرب (سلر).

(٣) في الأصل: وركب.

(٤) هكذا في الأصل. ولم أجد تعريفاً لهذا البلد، ولعل المقصود شميمش من كورة حمص. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٤٦ ـ ٩٨٧.

ذكر وصول من يذكر من الملوك إلى خدمة السلطان وما قرره لكل منهم وما عاملهم به من الإحسان

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة، وردت كتب النواب بدمشق يذكرون وصول الملك الصالح صاحب الموصل[١] بأهله وغلمانه وأولاده، فكتب السلطان إلى النواب بدمشق بالمبالغة في خدمته وترتيب الإقامات له ولمن معه في الطرقات من دمشق إلى القاهرة، فوصل في شعبان من السنة، فتلقاه السلطان وأنزله في أدر أخليت له.

ثم ورد بعده بأيام الخبر بوصول أخيه الملك المجاهد صاحب الجزيرة[٢] فاعتمد السلطان معه نظير ما اعتمده في حق أخيه. وكان الملك المظفّر[٣] أخوهما قد اعتقله الأمراء بحلب على ما نذكره، فأفرج السلطان عنه وأحضره إلى الديار المصرية، وذلك قبل وصولهما إليه، فلما وصل أخواه استأذن في تلقيهما، فأذن له السلطان في ذلك.

وأنعم السلطان عليهم بالأموال والخيول والخلع والحوائص لهم ولأصحابهم وعين جماعة من البحرية برسم خدمتهم والتصرف في مهماتهم، ثم رسم السلطان بكتابة تقاليدهم ببلادهم. وكان الخليفة قد فوض ذلك إلى السلطان بتقليد على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

فكتب تقليد الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بالموصل وولاياتها: بالوصا، والجزيرة [و][٤]مدينة البوازيج[٥]، والزيادة: [عقر[٦] وشوش، ودارا وأعمالها، والقلاع العمادية]، وكنكور وبلدها.

وكتب تقليد الملك المجاهد سيف الدين إسحاق ببلاد الجزيرة وأعمالها وزيادة حمرين.

---

(١) هو الملك الصالح ركن الدين إسماعيل ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٠٠، ٢٠٦.

(٢) المقصود هنا جزيرة ابن عمر.

(٣) هو الملك المظفّر علاء الدين علي، صاحب سنجار، المقريزي: المصدر السابق ج ١، ص ٤٦١، ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٧، ص ١١٥.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) موضع قرب تكريت عند مصب الزاب الأسفل لنهر دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٧.

(٦) مكانان متقاربان قرب جزيرة ابن عمر. وقلعة عقر تعرف أيضاً بعقر الحميدية، وأهلها أكراد، ويضرب بها المثل في العلو فيقال: «أعلى من العقر». ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٩٤.

وكتب تقليد الملك المظفّر: سنجار وأعمالها.

وكتب لعلاء الملك ولد الملك الصالح تقليد بقلعة الهيثم.

ولما توجه السلطان إلى الشام وخيم بظاهر القاهرة سيرت هذه التقاليد إليهم ومعها أحمال الكوسات والصناجق والأموال. وأعفوا من الحضور والخدمة عليها، وساروا في خدمة السلطان إلى الشام فسلطنهم.

وذلك أنه أحضرهم مجلسه وجهز لهم خيل النوبة والعصائب[١] والجمدارية[٢]، ولبسوا الخلع وقبّلوا الأرض وخرجوا بشعار السلطنة، والأتابك في خدمتهم، وتوجهوا صحبة الخليفة على ما نذكره.

فاتفق انفصالهم منه في أثناء الطريق لأسباب جرت، وتوجه كل منهم إلى مملكته: فأما الملك الصالح فتوجه إلى الموصل وأقام بها، فاتفق اجتماع التتار عليها وحصارها. وأما أخواه فإنهما خافا مهاجمة العدو فعادا إلى الشام، واستأذنا في الحضور، فأذن لهما السلطان فحضرا، وسألا السلطان إنجاد أخيهما فجرد الأمير شمس الدين سنقر الرومي وجماعة من البحرية والحلقة، فتوجهوا في رابع جمادي الأولى سنة ستين وستمائة، وكتب السلطان[٣] إلى دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين طيبرس[٤] ورحل العسكر المصري والشامي من دمشق في عاشر جمادي الآخرة.

ذكر وصول الخليفة المستعصم بالله إلى الديار المصرية ومبايعته وتجهيزه بالعساكر إلى بلاد الشرق وما كان من أمره إلى أن قتل

قال المؤرخ: وفي العشر الآخر من جمادى[٥] الآخر سنة تسع وخمسين وستمائة

---

(١) العصائب: جمع عصابة، وهي راية عظيمة من حرير أصفر مطرز بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه، الفيروزابادي: القاموس المحيط، مادة: عصب، المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٦٧.

(٢) الجمدارية أو الجمدار، وهم الذين يقومون على شؤون السلاطين والأمراء ويلبسونهم ثيابهم. المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٥٩؛ البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٩٠.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) هو علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٠٠.

(٥) ورد شهر جمادى مذكراً ومؤنثاً، والأصل التأنيث والتذكير جائز مع تقدير لفظ شهر. وقد جرت عادة المؤلف على أن يكتب جمادى الأول وجمادى الآخرة. (المحقق).

ورد كتاب علاء الدين طيبرس، والأمير علاء الدين البندقدار[١] مضمونه أنه وصل إلى جهة دمشق في أول الغوطة رجل ادعى أنه أحمد ابن الإمام الظاهر بن[٢] الإمام الناصر ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب من خمسين فارساً، وأن الأمير سيف الدين قليج البغدادي عرف أمراء العرب المذكورين وقال: «بهؤلاء يحصل القصد من العراق» فكتب السلطان بخدمته وتعظيم حرمته وأن يسير صحبته حجاب. فكان وصوله إلى القاهرة في يوم الخميس التاسع من شهر رجب من السنة، فخرج السلطان للقائه وساير أهل المدينتين، وكان يوماً مشهوداً، وشق القاهرة وهو لابس شعار بني العباس، وطلع إلى القلعة راكباً، ونزل في المكان الذي أخلي له.

وفي يوم الاثنين ثالث عشر أحضر السلطان الفقهاء والأئمة والعلماء والأمراء والصوفية والتجار وغيرهم بقاعة العمد، وحضر الخليفة وأثبت نسبه على ما قدمنا ذكره في أخبار الدولة العباسية. ولما ثبت النسب بايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ الأموال بحقها وصرفها في مستحقها، ثم قلد الخليفة السلطان الملك الظاهر البلاد الإسلامية وما سيفتحه الله من أيدي الكفار. وكتب بذلك تقليد شريف عن الخليفة للسلطان، وبايع الناس الخليفة على اختلاف طبقاتهم. وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأخذ البيعة له وأن يخطب باسمه على المنابر وتنقش السكة باسمه.

ولما كان في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب خطب الخليفة بالناس في جامع القلعة[٣]، واهتم السلطان بذلك ونثرت جمل من الذهب والفضة. وحصل للخليفة توقف في الخطبة.

وفي يوم الاثنين رابع شعبان ركب السلطان إلى خيمة ضربت في البستان الكبير والناس في خدمته، وحملت الخلع صحبة الأمير مظفر[٤] الدين وشاح الخافجي وخادم الخليفة. ودخل السلطان إلى خيمة أخرى ولبس الخلعة الخليفية، وهي عمامة سوداء مزركشة، ودُرّاعَة بنفسجي، وطوق، وعدة سيوف تقلد منها وحملت خلفه، ولواءان

---

(١) هو علاء الدين أيدكين البنقدار، أستاذ السلطان الظاهر بيبرس، المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩٨.

(٢) بن في الأصل، والصواب (ابن).

(٣) هو جامع قديم كان في مواضع الجامع الناصري الحالي القائم إلى جانب جامع محمد علي بالقلعة إلى اليوم. وقد ظل الجامع القديم قائماً إلى عام ٧١٨ إلى أن بنى الناصر جامعه الباقي إلى الآن.

(٤) هكذا في الأصل: انظر: المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٥٢.

وسهمان كبيران، وترس، وغير ذلك مما جرت العادة به. وقدم له فرس أشهب في رقبته مشدة سوداء، وعليه كنبوش[١] أسود. وطلب الأمراء وخلع عليهم، وعلى الصاحب بهاء الدين، وقاضي القضاة، وصاحب ديوان الإنشاء الشريف: وهو القاضي فخر الدين بن لقمان، وطلع ابن لقمان على منبر قد جلل بالأطلس الأصفر، وقرىء التقليد على كافة الناس وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم[٢]

الحمد لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشرف، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف. وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف. وقيض لنصره ملوكاً اتفق عليهم من اختلف. أحمده على نعمهِ التي تسرح الأعين منها في الروض الأنف، وألطافه التي وقف الشكر عليها فليس عنها منصرف.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توجب من المخاوف أمناً، وتسهل من الأمور ما كان حزناً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جبر من الدين وهناً، وأظهر من المكارم فنوناً لافتاً، صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى، وأصحابه الذين صحبوه في الدنيا فاستحقوا الزيادة من الحسنى، وسلم تسليماً».

«وبعد: فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً في تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى سعيه الحميد متقدماً، ودعا إلى طاعته فأجابه من كان مُنجِداً ومتهماً، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً.

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني ـ شرفه الله وأعلاه ـ ذكرها الديوان العزيز النبوي[٣] تنويهاً لشريف قدره، واعترافاً بصنعه الذي تنفد العبارة ولا تقوم بشكره، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان[٤]، وعتب دهرها المسيء فأعتب، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها

---

(١) الكنبوش هو البردعة التي تكون تحت السرج. المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥٢، ابن منظور: لسان العرب؛ الفيروزابادي: القاموس المحيط.

(٢) إن النص في الأصل، أضبط لغة وأسلم نَسْخاً. قارنه بكتاب السلوك للمقريزي: ج ١، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٣) لقد وردت ألقاب إضافية في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٤) هكذا في الأصل.

صولة مغضب، وأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حرباً، وصرف لها اهتمامه فرجع كل مضيق من أمرها واسعاً رحباً. ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنواً وعطفاً، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى، وأبدى من الاحتفال بأمر الشريعة والبيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه، ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه، لكن الله أدخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه، ويخفف بها يوم القيامة حسابه. والسعيد من خفف حسابه، فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها في صحف صنعه، ومكرمة قضت[١] لهذا البيت الشريف النبوي بجمع شمله بعد أن حصل الإياس من جمعه».

«وأمير المؤمنين يشكر الآن [لك][٢] هذه الصنائع. ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الرافع. وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار الجزرية[٣]، والبكرية، والحجازية، واليمنية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حتى أصبحت بالمكارم فرداً. وما جعل منها بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون مستثنى ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى».

فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لثقلها حاملاً، وخلص نفسك اليوم لك التبعات، ففي غد تكون مسؤولاً عنها لا سائلاً. ودع الاغترار بأمر الدنيا، فما نال أحد منها طائلاً، وما لحظها أحد بعين الحق إلا رآها خيالاً زائلاً، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمته غير التقوى مردودة لا مقبولة. وأبسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر الله بالعدل والإحسان. وكرر ذكره في مواضع من القرآن، وكفر به عن المرء ذنوباً كتبت عليه آثاماً، وجعل يوماً واحداً منه كعبادة ستين عاماً ما سلمك [أحد][٤] سبيل العدل واجتنيت ثماره من أفنان، ورجع الأمن بعد تداعي أركانه مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث الزمان فكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد، وأحسن من الغرر في أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد».

«وهذه الأقاليم المنوطة بنظرك تحتاج إلى حكام وأصحاب رأي من أرباب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم في أمرك فنقب عليه تنقيباً، واجعل عليه في تصرفاته رقيباً، وسل عن أحواله، ففي يوم القيامة تكون عنه مسؤولاً وبما اجترم

---

(١) زيادة من كتاب السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٥٤.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) الفراتية في النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١١٢.

(٤) إضافة يقتضيها السياق.

مطلوباً، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوباً. وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق. وألا يعاملوا أحداً على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية إخواناً، وأن يوسعوهم براً وإحساناً، وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل لهم الزمان حرماناً، والمسلم أخو المسلم، وإن كان أميراً عليه أو سلطاناً. فالسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله».

«ومما يؤمرون به أن يُمْحَى ما أحدث من سيىء السنن، وجدّد من المظالم التي هي على الخلائق من أعظم المحن، وأن يُشتري بإبطالها المحامد، فإن المحامد رخيصة بأغلى الثمن، ومهما جنى منها من الأموال فإنها فانية[١] وإن كانت حاصلة، وأجياد الخزائن وإن أصبحت بها خالية فإنما هي الحقيقة عاطلة. وهل أشقى ممن احتقب إثماً، واكتسب بالمساعي الذميمة ذماً، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة له خصماً، وتحمل ظلم الناس مما صدر عنه من أعماله، وقد خاب من حمل ظلماً. وحقيق بالمقام الشريف السلطاني الملكي الظاهري الركني أن تكون ظلامات الأيام مردودة بعدله، وغرائمه تخفف عن الخلائق ثقلاً لا طاقة لهم بحمله[٢]، فقد أضحى على الإحسان قادراً، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء آخراً، فأحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمامُ هدى، وأوجب لك مزية التعظيم وتنبيه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم. وهذه أمور ينبغي أن تلاحظ وترعى، وأن توالى عليها حمد الله، فإن الحمد يجب عليها عقلاً وشرعاً. وقد تبين أنك صرت في الأمور أصلاً، وصار غيرك فرعاً».

ومما يجب ذكره: الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً، هو والعمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضاً. وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصّهم بالجنة لا لغو فيها ولا تأثيم».

«وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد الحساد، وعرف منك عزمة هي أمضى[٣] مما تحت ضمائر الأغماد. واشتهرت لك مواقف في القتال هي أبهى وأشهى إلى القلوب من الأعياد. وبك صان الله حمى الإسلام من أن يبتذل،

---

(١) في الأصل: «باقية» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في الأصل: «له».

(٣) في الأصل: «ما».

ويعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول، وبسيفك الذي أثر في الكافرين قروحاً لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة المعظمة إلى ما كان عليه من الأيام الأول. فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان هاجعاً، وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً. وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً».

«ولا تخل الثغور من اهتمام تبتسم له الثغور، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها بالنور، واجعل أمرها على الأمور مقدماً، وسد منها ما غادره العدو متداعياً متهدماً. فهذه حصون يحصل منها [الانتفاع][1] وبها تحسم الأطماع، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع».

«وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً، والعدو إليه ملتفتاً ناظراً، لا سيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها رابحاً، ورجع خاسراً، واستأصلهم الله فيما مضى حتى ما أقال منهم عاثراً».

«وكذلك الأصطول الذي ترى خيله كالأهلة وركائبه بغير سائق مستقلة، وهو أخو الجيش السليماني، فإن ذلك غدت له الرياح حاملة وهذا تكفلت يحمله المياه السائلة. وإذا لحظها الطرف سائرة في البحر كانت كالأعلام، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع في أيام».

«وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب، وأتاك من أصالة الرأي الذي يريك المغيب، وبسط بعد القبض منك الأمل، ونشط من السعادة ما كان قد كسل، وهداك إلى مناهج الحق وما زلت مهتدياً إليها، وألهمك المراشد فلا تحتاج إلى تنبيه عليها، والله تعالى يؤيدك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه. فإن النعم تستتم بشكره، بمنه وكرمه»[2].

ثم ركب السلطان وشق المدينة بعد أن زينت، وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبي استاد الدار العالية، والصاحب الوزير بهاء الدين في بعض[3] الطريق وبسط أكثر الطريق للسلطان بالثياب الفاخرة، [و[4]] مشى عليها بفرسه، ووصل إلى القلعة.

وشرع السلطان في الاستخدام للخليفة: فكتب للأمير سابق الدين بوزبا أتابك

---

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) انظر النص كاملاً في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٣) ذكر ابن تغري بردي: «أن الصاحب بهاء الدين حمل التقليد على رأسه راكباً، والأمراء يمشون بين يديه، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١١١، س ١٣.

(٤) إضافة يقتضيها السياق.

العسكر بألف فارس، وللأمير ناصر الدين محمد بن ضيرم الخازندار بمائتي فارس، وللأمير الشريف نجم الدين استاد الدار بخمسمائة فارس. وأمر جماعة من العربان، وحملت إليهم الطلبخاناة والصناجق، وأنفق فيهم الأموال لعدة شهور. واشترى السلطان مائة مملوك [كباراً وصغاراً ورتبهم[١]] جمدارية[٢] وسلاح دارية[٣] للخليفة، وأعطى لكل واحد منهم ثلاثة أرؤس خيلاً وجملاً لعدته، ولم يبق أحد ممن تدعو الحاجة إليه من صاحب ديوان وكاتب إنشاء وديوان وأئمة ومؤذنين وغلمان وحكماء وجرائمية إلا استخدموا. ولما تكامل ذلك كله تقدم السلطان بتجهيز العساكر.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان من السنة ركب السلطان هو والخليفة في السادسة من النهار، ونزل كل منهما في دهليزه، واستمرت النفقة في أجناد الخليفة.

وفي يوم العيد ركب الخليفة والسلطان تحت الجتر، وصليا العيد، وفي هذه الليلة حضر الخليفة إلى خيمة السلطان وألبسه [سراويل][٤] الفتوة بحضور من يعتبر حضوره في ذلك.

وفي يوم السبت سادس شوال رحلا متوجهين إلى الشام، فلما وصلا إلى الكسوة خرج عسكر الشام للقائهما، ودخلا دمشق في يوم الاثنين سابع ذي القعدة. ونزل السلطان بالقلعة، ونزل الخليفة في تربة الملك الناصر بجبل الصالحية [في سفح قاسيون][٥]. وجرد الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير شمس الدين سنقر الرومي إلى جهة حلب، وأمرهم السلطان بالمسير إلى الفرات، وأنه متى ورد عليهم كتاب الخليفة يطلب أحداً منهم إلى العراق يتوجه إلى خدمته لوقته.

وركب السلطان وودع الخليفة، وسير إليه الملوك الذين ذكرناهم.

ثم ورد كتاب الخليفة يذكر أنه وصل إلى حديثه وعانا، وولى فيها[٦] ثم كان ما

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٥٨.

(٢) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين أحدهما جاما ومعناه الثوب، والثاني دار ومعناه ممسك أي ممسك الثوب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩.

(٣) سلاح دارية: أي السلحدار، وهو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير. ولفظ السلحدار مركب من كلمتين أولاهما عربية ومعناها آلة القتال، والثانية فارسية ومعناها ممسك، ويكون المعنى ممسك السلاح. القلقشندي: المصدر نفسه ج ٥، ص ٤٥٦، ٤٦٢.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٥٩، س ٩.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٠، س ٣.

(٦) هكذا في الأصل. ولتحديد الموضع المقصود انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص ١١٦، س ٥.

ذكرنا من خروج طائفة من التتار وقتال الخليفة لهم واستشهاده، رحمه الله تعالى، على ما قدمناه في أخباره، في أخبار خلفاء الدولة العباسية.

وحسب ما أنفق في مهم الخليفة والملوك فكان ألف ألف دينار عيناً.

وفي هذه السنة قبل مسير السلطان إلى الشام، كتب منشور الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا[1] بالإمرة على جميع العربان، وأطلق السلطان للعربان الغلال من بلد حلب، وذلك قبل خروج السلطان إلى الشام.

هذا ما كان من الأخبار بالديار المصرية، فلنذكر ما اتفق بالشام من حين ابتداء سلطنة السلطان الملك الظاهر إلى أن استقرت قواعد ملكه.

ذكر استيلاء الأمير علم الدين سنجر الحلبي على دمشق وسلطنته بها، وأخذها منه، وتقرير نواب السلطان بها

قد ذكرنا أن السلطان الملك المظفّر سيف الدين قطز كان قد فوض نيابة السلطنة بدمشق للأمير علم الدين سنجر الحلبي[2]، فلما اتصل به خبر قتل الملك المظفّر وثب على السلطنة بدمشق وحلف العساكر الشامية لنفسه، ولقب نفسه بالملك المجاهد، وركب بشعار السلطنة، فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الظاهر كتب إليه يقبح فعله ويسترجعه عنه، فعادت أجوبته بالمغالطة. فأرسل إليه السلطان الأمير جمال الدين أقن المحمدي يستميله[3] ويرده عن تعاطي ما لا يتم له، وسير إليه صحبته مائة ألف وعشرين ألف درهم وحوائص وخلعاً وملابس بألفي دينار عيناً. فلما وصل ذلك إليه جلس الأمير علم الدين الحلبي مجلساً عاماً للناس وأشهدهم على نفسه أنه قد نزل عن الأمر الذي كان قد استحلف الناس عليه، وأنه من جملة النواب الظاهرية.

ثم رجع عن ذلك وركب بشعار السلطنة على ما كان عليه أولاً، فركب الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار وخرج إلى ظاهر دمشق، ونادى باسم السلطان الملك الظاهر ومعه جماعة فساق بهم إلى جهة السواد، فندب الحلبي جماعة لقتالهم، فانهزم أصحاب الحلبي، ثم رأى انحراف الناس عنه واتفاقهم عليه، ففارق دمشق وتوجه إلى قلعة بعلبك. ودخل الأمير علاء الدين البندقدار دمشق، وحلف الناس للسلطان الملك الظاهر وجهز إلى بعلبك من أحضر الحلبي تحت الاحتياط. وكتب بذلك إلى

---

(١) هو شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع. ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ٧، ص ١١٦.

(٢) عن النجوم ج ٧، ص ١٥٤، س ١ أنه «يلقب بالكبير».

(٣) في الأصل: يستمليه وهو خطأ ظاهر.

السلطان، فجدد السلطان المناشير للأمراء والجند، وقرر الحديث في الأموال ونيابة القلعة للأمير علاء الدين طيبرس الوزيري، ورسم بإحضار الحلبي، فلما وصل إليه واعتقله بقلعة الجبل، ثم أطلقه بعد ذلك وخلع عليه، واستمر في الخدمة إلى أن جهزه إلى نيابة حلب. هذا ما اتفق بدمشق.

ذكر ما اتفق بحلب في أمر النيابة

كان السلطان الملك المظفّر قد استناب بالمملكة الحلبية الملك المظفّر علاء الدين ابن صاحب الموصل، ولقبه بالملك السعيد على ما ذكرناه، فتوجه إلى حلب، وحصلت منه أمور أنكرها عليه الأمراء، وكان الملك المظفّر قطز قد أقطع جماعة من الأمراء العزيزية والناصرية بالبلاد الجبلية، فلما اتصل بهم قتل الملك المظفّر اجتمعوا وقبضوا على الملك السعيد ونهبوا وطاقة، وكان قد برز إلى الباب المعروف بباب[١] الله للقاء التتار، واستولوا على خزائنه فلم يجدوا فيها مالاً طائلاً، فتهددوه بالعذاب إن لم يقر لهم بالمال، فأخرج لهم من تحت الأشجار مالاً كان قد دفنه، تقدير خمسين ألف دينار مصرية، ففرقت في الأمراء[٢] واعتقلوا الملك السعيد بالشغر[٢]، ثم أفرجوا عنه بعد ذلك، وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، فكتب السلطان إليه تقليد بنيابة المملكة الحلبية.

ذكر وصول طائفة من التتار إلى البلاد الإسلامية وما فعلوه بحلب وتقدمهم إلى حمص وقتالهم وانهزامهم وما كان من خبر عودهم

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة بلغ التتار أن الأمراء العزيزية والناصرية قد وقع بينهم اختلاف، فتجمعوا من كل جهة وعبروا الفرات، ولما بلغ الملك السعيد خبرهم وأنهم وصلوا إلى جهة البيرة جرد إليهم جماعة قليلة من العسكر الحلبي، وقدم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصري، فنهاه الأمراء العزيزية والناصرية عن ذلك، واستقلوا العسكر المجرد، فلم يرجع إلى قولهم، وصمم على إرساله، فسار سابق الدين ومن

---

(١) هكذا في الأصل. وقد ورد بعد عدة صفحات بابلا، وبابِلاً قرية كبيرة بظاهر حلب. وقد ذكرها البحتري فقال: (البسيط)

فيها لِعَلْوة مُصْطَافٌ ومُرْتَبعٌ ... مِن بانقوسا وبابِلاً وبِطياسِ

ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٩، البحتري، ديوانه ج ٢، ص ٤٦٨.

(٢) هكذا في الأصل مضبوطاً بضم الشين وبالغين المعجمة.

معه حتى قاربوا البيرة، فصدمهم التتار، فهرب سابق الدين منهم ودخل البيرة، بعد أن قتل أكثر من معه. فكان ذلك من أكبر الأسباب التي أوجبت القبض على الملك السعيد، ثم توجه التتار إلى جهة حلب، فاندفع الأمير حسام الدين الجوكندار[١] والعسكر الحلبي بين أيديهم إلى جهة حماة، ووصل التتار إلى حلب في أواخر سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها، وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا، واسمها قديماً مقر الأنبياء، فسماها العامة قرنبيا، فلما اجتمعوا بها بذل التتار فيهم السيف فقتلوا أكثرهم. وتقدم التتار إلى جهة حماة، ففارقها العسكر الحلبي وصاحبها الملك المنصور إلى حمص، واجتمعوا هم والملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص، واتفقوا على قتال التتار، وانضم إليهم الأمير زامل بن علي أمير العربان، ووصل التتار إلى حمص، والتقوا واقتتلوا في يوم الجمعة خامس المحرم من السنة[٢] فانهزم التتار أقبح هزيمة، وقتل أبطالهم وشجعانهم، فاستشهد فيهم بقول الشاعر:

فإن كان أعجبكم عامكم ... فعودوا إلى حمص في قابل
فإن الحسام الصقيل[٣] الذي ... قتلتم به في يد القاتل

وقد شاهد جماعة كثيرة في هذه الواقعة طيوراً كثيرة بيضاء تحوم حال القتال.

حكي عن الأمير بدر الدين محمد القيمري قال: «والله، لقد رأيت بعيني طيوراً بيضاً وهي تضرب بأجنحتها في وجوه التتار». وقد ذكر ذلك جماعة كثيرة حتى بلغ حدّ التواتر، فما كان بأسرع من انهزام التتار.

قال المؤرخ:

ثم اجتمع من سلم من التتار ونزلوا بسلمية، وعادوا إلى حماة، ورحلوا عنها إلى أفامية، وكان قد وصل إلى أفامية[٤] الأمير سيف الدين الديبلي[٥] الأشرفي ومعه جماعة فأقام بقلعتها وبقي يغير على التتار، فرحلوا عن أفامية وعادوا إلى حلب، فأخرجوا من

---

(١) الجوكندار: لقب على الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، ويجمع على جوكان دارية، وهو مركب من لفظتين فارسيتين. إحداهما جوكان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان. والثانية دار ومعناها ممسك، أي ممسك الجوكان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨، البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٤.

(٢) زاد المقريزي بذكر مكان المعركة. انظر السلوك، ج ١، ص ٤٤٢، س ١٠.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كُوَر حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧.

(٥) في الأصل بدون نقط.

بها من الرجال والنساء ولم يبق إلا من ضعف عن الحركة واختفى خوفاً على نفسه، ثم نادوا فيهم: من كان من أهل حلب فليعتزل. فلم يعلم الناس ما يراد بهم، فظن الغرباء النجاة لأهل حلب، وظن أهل حلب نجاة الغرباء، فاعتزل بعض كل من الطائفتين مع الأخرى بحسب ما أدّى كل منهم اجتهاده، فلما تميز الفريقان أخذ التتار الغرباء وتوجهوا بهم إلى بابلّى[١] فضربوا أعناقهم، وفيهم جماعة من أهل حلب وأقارب الملك الناصر، ثم أعادوا من بقي من أهل حلب إليها، وسلموا كل طائفة إلى رجل من الأكابر، ثم أحاطوا بالبلد ولم يمكنوا أحداً يدخل إليه ولا يخرج منه.

ثم فارق التتار حلب في أوائل جمادي الأول سنة تسع وخمسين وستمائة وكان سبب رحيلهم عنها أن السلطان الملك الظاهر جرد في العشر الأول من شهر ربيع الأول الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي والأمير حسام الدين لاجين الجوكان دار[٢] والأمير حسام الدين العين تابي[٣] في عسكر لدفع التتار عن حلب. فلما وصلوا إلى غزة أرسل فرنج عكا إلى التتار بخبرهم فرجعوا وفارقوا حلب.

ولما رحل التتار عن حلب تغلب عليها جماعة من أحداثها لخلوها من العسكر، منهم نجم الدين أبو عبد الله بن المنذر، وعلي بن الأنصاري، وأبو الفتح، ويوسف بن معالي، فقتلوا ونهبوا، وبلغوا أغراضهم ممن كان في قلوبهم منهم ضغائن، فلما قاربوا الأمير فخر الدين الحمصي والأمير حسام الدين العين تابي، ومن معهما هرب هؤلاء عن حلب. ولما دخلها الأمير فخر الدين الحمصي صادر أهلها وعذبهم واستخرج منهم ألف ألف درهم وستمائة ألف درهم بيروتية، وأقام بها إلى أن وصل الأمير شمس الدين أقش البرلي، ففارقها.

ذكر الغلاء الكائن بحلب

قال الشيخ شمس الدين بن الجزري في تاريخه: وفي سنة تسع وخمسين وستمائة بعد أن توجه[٤] التتار من البلاد الإسلامية غلت الأسعار بحلب، وقلت الأقوات فبلغ رطل اللحم سبعة عشر درهماً، ورطل السمك ثلاثين، ورطل اللبن خمسة عشر، ورطل الشيرج سبعين، ورطل الخل ثلاثين، ورطل الأرز عشرين، ورطل الحب رمان

---

(١) هكذا في الأصل. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ج ١، ص ٣٠٩.
(٢) هو الأمير حسام الدين الجوكندار، وقد مرت ترجمته، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٣٩، وانظر شرحاً مفصلاً لكلمة جوكندار في صبح الأعشى للمقريزي، ج ٥، ص ٤٥٨.
(٣) العنتابي في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٩٢.
(٤) توجه بمعنى رحل.

ثلاثين، ورطل السكر خمسين، والحلوى كذلك، ورطل العسل ثلاثين، ورطل الشراب ستين، والجدي الرضيع بأربعين درهماً، والدجاجة بخمسة دراهم، والبيضة بدرهم ونصف[١]، والبصلة بنصف درهم، وباقة البقل بدرهم، والبطيخة بأربعين درهماً، والتفاحة بخمسة دراهم، ولم يذكر سعر الخبز والقمح، ولعل ذلك لعدمه.

قال: وكانت المكاسب كثيرة والدرهم متيسر الحصول.

ذكر اختلاف العزيزية والناصرية، ومفارقة الأمير شمس الدين أقش البرلي البلاد، وتولية الحلبي نيابة حلب وعزله، وعود البرلي إليها وخروجه منها، ونيابة البندقدار وعود البرلي إليها ثانية وخروجه

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة، بعد وقعة التتار، اختلف الأمراء العزيزية والناصرية، وحضروا إلى الساحل، فأعطى السلطان بعضهم الإقطاعات، وحضر الباقون إلى الديار المصرية، وكان الأمير شمس الدين أقش البرلي مقطعاً مدينة نابلس[٢] من الأيام المظفّرية، فزاده السلطان بيسان[٣] وجعل لمملوكه قجقار عدة نواحي وتوجه إلى دمشق، ثم أمر السلطان بإمساك الأمير بهاء الدين بغدي الأشرفي فغضب البرلي لذلك، واجتمع معه العزيزية والناصرية، ونزلوا بالمرج وتوجهوا إلى حلب. وكان السلطان قد استناب الأمير علم الدين الحلبي بحلب قبل حدوث هذه الواقعة، وأمّر جماعة وقرر لهم الوظائف وهم: الأمير شرف الدين قيران[٤] الفخري وجعله أستاذ الدار، والأمير بدر الدين جماق وجعله أمير جاندار، والأمير علاء الدين أيدكين الشهابي وجعله شاد الدواوين. فتوجه الأمير علم الدين ووصل إلى حلب في يوم السبت ثالث شعبان من السنة ووصلت مطالعته إلى السلطان يذكر عبوره إلى حلب، وأن جماعة من العزيزية والناصرية حضروا إليه يطلبون الأمانات. ولما وصل الحلبي إلى حلب جرد جماعة من العسكر خلف البرلي ومن معه من العزيزية والناصرية، فعطف عليهم العزيزية والناصرية فهزموهم، فعزل السلطان الحلبي لذلك. وقيل إنه إنما عزله لأسباب أخر اتفقت أوجبت عزله. ولما عزل الحلبي فارق حلب

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بينها وبين القدس عشرة فراسخ، ولها كورة واسعة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٤٨.

(٣) مدينة بين حوران وفلسطين، ياقوت الحموي: معجم البلدان: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٢٧ - ٥٢٨.

(٤) هكذا في الأصل.

وعاد إلى دمشق، فخلت مدينة حلب، فحضر الأمير شمس الدين البرلي إليها وأقام بها، وسير الأمير بدر الدين أيدمر الحلي رسولاً منه إلى السلطان يبذل له الطاعة، فأبى السلطان إلا حضوره إلى الخدمة، وأقام البرلي بحلب إلى أن وصل السلطان إلى دمشق في سنة تسع وخمسين، فجرد العساكر إليها ففارقها البرلي وتوجه إلى الفرات، وعاد العسكر وأغار على بلاد أنطاكية، وكان في العسكر صاحب حمص وصاحب حماه، فأخذت المينا وأحرقت المراكب، وأخذت الحواصل، وعادت العساكر إلى القاهرة في يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ستين وستمائة وصحبتهم ما يزيد على مائتين وخمسين أسيراً[١].

ثم استناب السلطان بحلب الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار[٢]، فتوجه إليها وأقام بها. ثم خشي عاقبة عود الأمير شمس الدين أقش البرلي، ففارق حلب وعاد وأقام بحماة واعتذر أنه إنما فارق حلب لشدة الغلاء وعدم الأقوات.

وكان الأمير شمس الدين البرلي قد أرسل إلى السلطان الأمير علم الدين جكم بكتبه يسأله الصفح، فلما فارق البندقدار حلب عاد البرلي إليها وكتب إلى السلطان يعتذر من رجوعه إلى حلب، وأنه ما رجع إلا طائعاً، وأن الأمير علاء الدين انفصل عن حلب اختياراً منه، ولو أقام لما قصده أحد، وتوالت كتبه بالاعتذار واستأذن في توجهه إلى الموصل، والسلطان يغلظ له تارة ويلين أخرى.

ثم جرد السلطان عسكراً صحبه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نجدة لصاحب الموصل، وأنفق فيهم الأموال. فلما اتصل الخبر بالأمير شمس الدين البرلي توجه إلى سنجار والتقى التتار وقاتلهم قتالاً شديداً. وكان معه نحو ألف فارس وهم في جموع كثيرة فلم تساعده المقادير، وذلك أنه سقط عن فرسه فانكسرت رجله، فركبه أحد مماليكه وساق يوماً كاملاً ولم يعلم من معه أن رجله كسرت، ثم كان من أمره ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

هذا ما اتفق بالشام وحلب.

ذكر ما اتفق للسلطان بالشام في مدة مقامه بدمشق وما وقع في سفرته هذه خلاف ما قدمنا ذكره من أمر الخليفة

من ذلك أنه لما وصل إلى دمشق وصل إلى خدمته الملك المنصور صاحب

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧٢.

(٢) البندقدار: هو الذي يحمل قوس البندق خلف السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨. وانظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٣.

حماة، والملك الأشرف صاحب حمص والرحبة، فتلقاهما وأكرمهما وأنعم عليهما بخيل النوبة والعصائب وشعار السلطنة، وركب كل منهما بمفرده والأمراء مترجلون في خدمته، وكتب لهما التقاليد، وزاد الملك الأشرف تل باشر والملك المنصور بلاد الإسماعيلية، وتوجها إلى بلادهما.

ومن ذلك أن أمراء العربان حضروا إلى خدمة السلطان فأنعم عليهم ووصل أرزاقهم، وسلم إليهم خفر البلاد، وألزمهم حفظها إلى حدود العراق [وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا](١).

ومن ذلك أنه فوض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري، وكان قبل ذلك بنيابة قلعة دمشق، والأموال(٢).

ذكر ركوب السلطان إلى الميدان بدمشق ولعبه بالكرة ومن كان في خدمته من الملوك

قال المولوي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: ولعب السلطان في ميدان دمشق، فرأيت في خدمته جماعة من الملوك وهم: الملك الصالح صاحب الموصل [و](٣)الملك المجاهد صاحب الجزيرة [و](٤) الملك المظفّر صاحب سنجار، [و]الملك علاء الملك، [و]الملك الأشرف صاحب حمص، [و]الملك الزاهر أسد الدين،[و]الملك المنصور صاحب حماة، [و]الملك الأمجد تقي الدين بن الملك العادل سيف أبي بكر بن أيوب(٥) [و](٦)الملك المنصور [و]الملك السعيد، [و]الملك المسعود، وأولاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، [و]الملك الأمجد وأخوته أولاد الملك الناصر داود، والملك الأشرف ابن ولد أقسيس [و]الملك القاهر بن الملك المعظم، وجماعة كثيرة منهم.

قال: وهذا ما لا رآه ملك آخر.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٥.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦٥، س ٤.

(٣) و(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر يوسف ابن الملك المسعود أقسيس ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٥، س ١.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

ذكر الصلح مع ملوك الفرنج

لما توجه السلطان إلى الشام سير سيرجوان ديكين، كند يافا، يبذل الطاعة. ولما وصل السلطان إلى العوجا سأل الأمان للحضور إلى الدهليز، فتوجه الأتابك إليه وأحضره إلى السلطان. فأكرمه وكتب له منشوراً ببلاده ورده إلى بلده.

قال: ثم وردت رسل ملوك الفرنج يهنون السلطان بالسلامة ومعهم الإقامات الكثيرة.

فلما وصل السلطان إلى دمشق حضر رسول من عكا يسأل أماناً للرسل المتوجهين من سائر[١] البيوت. فكتب إلى متولي بانياس بتمكينهم[٢]؛ فحضر أكابر الفرنج والتمسوا الصلح، فتوقف السلطان واشترط شروطاً كثيرة فتوقفوا، فأهانهم وزجرهم. وكان العسكر قد توجه للإغارة على بلاد الفرنج من جهة بعلبك، فسألوا في رجوعه وتقرير الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر الأيام الناصرية، وإطلاق الأسرى، من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت هذه الهدنة. وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهود عليهم[٣].

وكذلك تقررت الهدنة لصاحب يافا ومتملك بيروت على حكم الأيام الناصرية، وأمنت السبل وكثرت الأجلاب.

وشرع السلطان في جمع الأسارى وسيرهم إلى مدينة نابلس حفظاً للعهود، والفرنج يكاسرون[٤] في أمر الأسارى. فلما طال ذلك رسم السلطان بنقل الأسارى إلى دمشق واستعمالهم في العمائر وبقي الحال موقوفاً[٥].

ذكر الغارة على العرب والفرنج

قال: ولما وصل السلطان إلى بلاد الشام جرد الأمير جمال الدين المحمدي، وجرد معه جماعة من العسكر المنصور، ورسم لهم بالإغارة على بلد الفرنج، فتوجهوا ونهبوا وكسبوا، وعادوا سالمين[٦].

---

(١) في الأصل: «سايز».
(٢) في الأصل بدون رأس الكاف.
(٣) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٣، س ٤.
(٤) يكاسرون: أي يماطلون. ابن منظور: لسان العرب مادة كسر؛ الفيروزابادي: القاموس المحيط.
(٥) و(٦) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦٤، س ٤ ـ ٩.

وجرد جماعة من البحرية وكتم خبرهم. وكان السلطان بلغه أن جماعة من عرب زبيد قد كثر فسادهم وأنهم مخالطون الفرنج وموافقوهم في الباطن ويدلونهم على عورات المسلمين؛ فساق البحرية إليهم وانتهبوا أموالهم وقتلوا منهم وذبحوا جماعة كثيرة، وكفى الله الإسلام شرهم[١].

وفي هذه السنة والسفرة، عزل السلطان القاضي نجم الدين ابن قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة عن القضاء بدمشق، وفوضه للقاضي شمس الدين أحمد ابن بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمكي من العريش[٢] إلى سلمية[٣]، وفوض إليه النظر في جميع الأوقاف بالشام، منها الجامع والبيمارستان والمدارس وغير ذلك؛ وفوض إليه تدريس سبع مدارس وهي: العادلية، والعذراوية، والناصرية، والفلكية، والركنية، والإقبالية، والبهنسية[٤]. وكان تدريس هذه المدارس بيد القاضي نجم الدين المعزول، ووكل بالقاضي نجم الدين وأمره أن يتوجه إلى الديار المصرية، وكان مذموم السيرة في ولايته. ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة جملة من معانيه.

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية

قال: ولما استقرت هذه الأمور عاد السلطان إلى الديار المصرية، وكان وصوله في يوم السبت سابع عشر ذي الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة.

ذكر أخذ الشويك[٥]

كان السلطان قد جهز الأمير بدر الدين الأيدمري وصحبته جماعة من العسكر، وما أعلم أحداً ممن جرد بالجهة التي يتوجهون إليها، فتوجه إلى الشويك وبذل المال والخلع فسلمت إليه. ووصل الخبر بتسليمها في سادس عشرين ذي الحجة من السنة. وولي نيابتها الأمير سيف الدين بلبان المحتصبي[٦]، واستخدم بها النقباء والجاندارية، وأفرد لخاص القلعة ما كان لها إلى آخر أيام الصالحية النجمية.

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.
(٢) مدينة من أعمال مصر، من ناحية الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٣.
(٣) بليدة في الناحية البرية من أعمال حماه. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.
(٤) عن هذه المدارس، انظر كتاب المدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، صفحات مختلفة.
(٥) هكذا في الأصل. وفي معجم البلدان للمقريزي الشوبك. وهي قلعة حصينة في أطراف الشام. المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٧٠.
(٦) هكذا في الأصل والمختصبي في السلوك، ج ١، ص ٤٤٧، س ٢١.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الصاحب صفي الدين أبي إسحاق إبراهيم ابن عبد الله بن هبة الله بن أحمد بن مرزوق العسقلاني. وكان قد وزر للملك الأشرف ابن الملك العادل بدمشق مدة، ثم عزل بجمال الدين بن جرير، وكان تاجراً مشهوراً بالثروة وكثرة الأموال. وكان ابتداء أمره كما حكى عنه أنه حكاه عن نفسه قال: أرسلني والدي إلى القاهرة من مصر لأبتاع له قمحاً، وكان له طاحون بمصر، فتوجهت إلى دار بعض الأمراء فاشتريت ألف أردب بخمسة آلاف درهم، وتسلمتها، وبت في تلك الليلة بالقاهرة، وأصبحت فتحسن سعرها فبعتها بسبعة آلاف، فأوفيت الثمن، وأخذت ما بقي، وصرفت به مائة وثلاثين ديناراً، وأتيت والدي فسألني عن القمح، فقلت: بعته، فقال: ولم لا أتيت به؟ فقلت له: إنك لم ترسل معي الثمن، حتى ولم تعطني دابة أركبها، وعندك عشرين دابة، ما هان عليك أن أركب منها دابة(١). وكنت قد مشيت من مصر إلى القاهرة فحقدت ذلك عليه. قال: ثم اتجرت في ذلك المال الذي ربحته من ثمن القمح فبارك الله لي فيه حتى جمعت منه ستمائة ألف دينار عيناً، غير ما اشتريت من العقار والأثاث والخدم والدواب والمسفر وغيره.

وكانت وفاته بمصر ودفن بسفح المقطم(٢). ومولده في شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة. رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس بن بدر الدين خماردكين(٣)، وهو صاحب صهيون، وجده عتيق الأمير مجاهد الدين صاحب صرخد(٤). وكانت وفاته في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وستمائة بقلعة صهيون ودفن بها، وولي بعده ولده سيف الدين محمد. وكان هو قد ولي صهيون بعد وفاة والده ناصر الدين منكورس في سنة ست وعشرين وستمائة. وخلف الأمير مظفر الدين من الأموال ما لا يحصى كثرة. حكى الشيخ شمس الدين ابن الجزري في تاريخه قال: حكى لي الصاحب مجد الدين إسماعيل بن كسيرات الموصلي قال: كان مظفر الدين صاحب صهيون يجلس في كل يوم في باب القلعة ويأخذ قطعاً من الشمع ويختم عليها بخاتمه، فمن كان له دعوى على خصمه أو محاكمة جاء إليه وأحضر معه شيئاً من المأكول فيضعه في الدركاه بين يدي الأمير مظفر

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٠٦، س ٢ ـ ٤.

(٤) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠١.

الدين، ويأخذ قطعة من ذلك الشمع المختوم ويتوجه إلى خصمه ويقول: هذا ختم السلطان، فيأخذ الخصم معه شيئاً أيضاً ويحضر إلى بين يديه فيحكم بينهما بنفسه. قال: فسألته عن مقدار ما يحضره الواحد منهم. قال: يأتي كل واحد بحسبه من الرأس الغنم إلى خمس بيضات. ومات وقد ناف على تسعين سنة، رحمه الله.

وفيها توفي الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عيسى بن درياس المارداني[١] الشافعي، وكانت وفاته بالقاهرة في يوم السبت سادس شوال، ودفن من يومه بسفح المقطم. ومولده في ليلة الثلاثاء ثاني عشرين شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وخمسمية، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ستين وستمائة[٢]

في هذه السنة[٣]، في ثالث عشرين المحرم، أعرس الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري، نائب السلطنة الشريفة على ابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كان، وكان عقد النكاح قد عقد في ثالث عشر شوال سنة تسع وخمسين وستمائة، وذلك أن السلطان كان قد استدعى الملوك إخوتها في اليوم المذكور وعرفهم مكانة الأمير بدر الدين منه، وأن محله محل الولد، وخطب أختهم له، فأجابوا إلى ذلك، وعقد النكاح. وملكه السلطان في ذلك اليوم بانياس وقلعتها بالبيع الشرعي. ثم كان البناء بها في هذه السنة. وعمل العرس بالميدان الأسود. واحتفل السلطان به احتفالاً عظيماً، وفوض إليه بعد أيام قلائل النظر في أمر الجيش: يقطع الإقطاعات ويزيد وينقص؛ وفوض إليه أمر الرعايا وكشف ظلاماتهم وغير ذلك.

وفيها، حصل الصلح بين السلطان والملك المغيث صاحب الكرك[٤]، وكان ولده الملك العزيز في الاعتقال من الأيام المظفّرية. فإن والده كان قد سيره إلى هولاكو كما ذكرنا فأنفق عوده إلى دمشق عند دخول الملك المظفّر إليها، فأمر بإرساله

---

(١) في الأصل المارانى، والتعديل من النسخة (س). وهو القاضي كمال الدين أبو حامد محمد ابن قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك المارداني، الشافعي الضرير. ولقبه: «الصدر العدل». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧، ص ٢٠٥، س ١٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٩٩.

(٢) قارنها بكتاب عقد الجمان لبدر الدين العيني، ج ١، ص ٣٢٧ ـ ٣٤٤.

(٣) يوافق أولها ـ السبت ٢٦ تشرين الثاني ١٢٦١ م.

(٤) هي قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٣.

إلى قلعة الجبل واعتقاله بها. فأطلقه السلطان الآن، وأقطعه دبنان[١] بمنشور، وحلف السلطان لأبيه. ثم بعد ذلك سير السلطان له صنجقاً وشعار السلطنة، فقبل عقب الصنجق وركب بشعار السلطنة.

وفيها، انتصب السلطان لعرض العساكر بنفسه وحلّف الناس لولده الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان، فحلفوا له، وسيرت نسخ الأيمان إلى القلاع [والممالك][٢] والناس بأجمعهم.

ذكر وصول الأمير شمس الدين سلار البغدادي وشيء من أخباره[٣]

وفي نصف شهر رجب سنة ستين وستمائة وصل الأمير شمس الدين سلار البغدادي من العراق إلى الديار المصرية، وكان رجلاً تركياً من قبيلة دروت[٤] وهو من مماليك الخليفة الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله، ولاه واسط والكوفة والحلة. فأقام بها في الأيام الظاهرية والمستنصرية والمستعصمية. فلما استولى هولاكو على بغداد وقتل الخليفة، اجتمع سلار هذا وصاحب شستر ومن انضم إليهما، وقاتلوا التتار فلم يكن لهم بهم طاقة لكثرة التتار، فتوجه إلى برية الحجاز، فأقام بها نحواً من ستة أشهر، ثم راسله هولاكو وكتب له فرماناً بإقراره على ما كان عليه في الأيام المستعصمية، فحضر إليه فأقره، فلما أفضت السلطنة بالديار المصرية إلى السلطان الملك الظاهر كاتبه السلطان، وطلب منه الوصول إليه مرة بعد أخرى، فتقرر حضوره إليه، وتأخر ذلك إلى أن يتحيل لنفسه ويجمع أمواله، فاتفق أن السلطان تحدث مع قليج البغدادي في بعض الأيام فقال له السلطان: خوشداشك سلار يصل إلينا؟ فقال: هذا لا يتصور وقوعه، لأن سلار من الملوك بالعراق، فكيف يفارق ما هو فيه ويحضر إلى هذه البلاد؟ فقال السلطان: متى لم يحضر برضاه أحضرته بغير رضاه. وبعث قاصداً يكتب إليه على أنها أجوبة كتبه، وبعث قاصداً آخر وقال له: إذا قربت من الأردو فاقتل هذا القاصد واتركه وما معه، ففعل ذلك. ولما قتل القاصد وجده القراؤل[٥]، فأحضره إلى هولاكو فقرىء ما معه من الكتب فوجدت أجوبة سلار. وكان بمقام هولاكو جماعة من أولاد مماليك الخليفة أخذهم لنفسه وجعلهم خواصاً عنده،

---

(١) هكذا في الأصل ولم أقف على ترجمة لهذا المكان في المصادر المتداولة.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٣) المقريزي: السلوك ج ١، ص ٤٦٨، س ١١ ـ ١٤.
(٤) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦٨، حاشية رقم (٣).
(٥) أي ما معه من رسائل.

فسيروا إلى سلار في الوقت يعلمونه الخبر، فعلم أنها مكيدة، ورسم هولاكو بطلبه إلى الأردو، فوصل إليه الخبر قبل ورود مرسوم هولاكو بطلبه. وكان حال وصول الخبر إليه يتصيد، فعلم أنه متى وصل إلى هولاكو قتله، فساق لوقته إلى أن وصل إلى الديار المصرية. وترك جميع أمواله وذخائره وأهله وأولاده. ولما وصل أكرمه السلطان وعامله بإحسان كثير، وأنزله بالكبش، وأمره طبلخاناه(١)، وأقطعه منية بني خصيب. فقال للسلطان: لقد ضيع السلطان على المسلمين أموالاً عظيمة، فإنك لو تركتني حتى أحضر بما جمعته من الأموال والذخائر انتفع بيت المال به، فإني جمعت خراج سنتين. فقال له السلطان: إنما كان قصدي حضورك، ولم أقصد الأموال. ولا تجلس بين يدي السلطان لا يرفع أحداً عليه(٢). ثم جرده السلطان في مقابلة الفرنج بساحل عكا، فكتب إلى السلطان يسأله أن يقيم بالشام فأقطعه [إمرة خمسين في الشام] ونصف [مدينة] نابلس(٣) وأقام ستة أشهر ثم أعاده [السلطان] إلى الديار المصرية.

وكان السلطان قبل وصول سلار البغدادي قد اعتقل الأمير سيف الدين قليج لأمر صدر منه، فأطلقه السلطان بغير شفاعة، وأحسن إليه وأعاده إلى الإمرة ولعب معه الكرة.

ذكر عود رسل السلطان من جهة الأنيرور(٤)

وفي شعبان سنة ستين وستمائة، وصل الأمير سيف الدين الكرزي(٥)، والقاضي أصيل الدين خواجا إمام، وكان السلطان بعثهما إلى الأنيرور، وذكرا أن الأنيرور أهتم بأمرهما اهتماماً عظيماً، وأنه أحضرهما ساعة وصولهما وعرضت عليه الهدية، وكان في جملتها زرافة فأعجبته إعجاباً عظيماً، وشاهد التتار الذين سيروا إليه [ذلك](٦)، وذكر أنه جهز رسولاً وهدية تحضر فيها بعد.

وكان في جملة رسله إلى السلطان نفران من البحرية(٧)، فلما وصلا، أمر

---

(١) كلمة فارسية معناها فرقة الموسيقى السلطانية أو بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق، وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨ ـ ٩، ١٣.
Demombynes: G, La Syrie à L'epoque de Mamlouk, P. L. IV.

(٢) تفيد العبارة أن السلطان التفت إلى جماعة الحاضرين وتحدث عن سلار بصيغة الغائب.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٩.

(٥) هكذا بالأصل.

(٦) إضافة يقتضيها السياق.

(٧) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٩.

السلطان بتأديبهما لما بلغه من سوء اعتمادهما، وسيرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها.

ذكر عود رسل السلطان من جهة صاحب الروم ووصول رسله إلى السلطان، وما قرره السلطان من بلاده

وفي هذه الشهر، وصل الأمير شرف الدين الجاكي، والشريف عماد الدين الهاشمي. وكان السلطان قد سيرهما إلى السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب الروم ووصل صحبتهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوح[١] رسلان أمير حاجب، والصدر صدر الدين الخلاطي[٢] رسولان منه، ومعهما كتابه إلى السلطان يذكر أنه نزل للسلطان عن نصف بلاده. وسيَّر درجاً فيها علائم بما يقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمّره [وسأل أن][٣] يكتب له من جهته منشوراً قرين منشور صاحب الروم. فلما وصل الرسل إلى السلطان أكرمهم وجهز جيشاً نجدة لصاحب الروم. وأمر بكتب المناشير، وعين الأمير ناصر الدين أغلمش السلاح دار الصالحي لتقدمة الجيش، وعين له ثلاثمائة فارس، وأقطعه في الروم، وكتب للأمير ناصر الدين الرسول المذكور منشوراً بثلاثمائة فارس وأقطعه آمد وأعمالها، وتقرر سفره صحبة العسكر، وأن يتوجه صدر الدين رفيقه في البحر صحبة رسل السلطان. ووقع الاهتمام في كتب المناشير وتجريد الأمراء من الشام وحلب.

وفي شهر رجب من السنة، وصل الأمير عماد الدين ولد الأمير مظفر الدين صاحب صهيون[٤] رسولاً من جهة أخيه الأمير سيف الدين، وصحبته الهدايا الحسنة. فأحسن السلطان إليه وكتب له منشوراً في بلاد حلب بثلاثين فارساً، وكتب له منشوراً آخر في بلاد الرومية بمائة طواش.

وفي هذه المدة ورد كتاب صاحب الروم يذكر أن العدو لما بلغهم اتفاقه مع السلطان ولوا هاربين، وأنه سير إلى قونية[٥] يحاصرها ليأخذ من بها من أصحاب أخيه.

وفي هذا التاريخ، وصلت كتب الأمير علاء الدين الخزندار مقدم العسكر

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٩.

(٢) هكذا بالأصل. وفي السلوك ج ١، ص ٤٦٩، الأخلاطي.

(٣) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك، للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٩.

(٤) موضع معروف بالبيت المقدس. وصهيون أيضاً، حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٥) من أعظم مدن الإسلام بالروم، ياقوت الحموي؛ المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤١٥.

المتوجه إلى الصعيد بسبب العربان عندما قتلوا الأمير عز الدين الهواش متولي الأعمال القوصية يذكر تبديد شملهم وإبادتهم وأنه أراح المسلمين من فسادهم.

وفي شعبان منها توالى وصول جماعة ممن كان صحبه الأمير شمس الدين أقش البرلي من العزيزية والناصرية، فأحسن السلطان إليهم، ولم يؤاخذهم بما كان منهم.

ذكر عود رسل السلطان من جهة الأشكري وخبر مسجد القسطنطينية

وفي هذه السنة، وصل الأمير فارس الدين أقش(١) المسعودي الذي كان توجه رسولاً إلى الأشكري، وكان الأشكري قد سير رسولاً إلى السلطان يلتمس بطركاً للنصارى الملكيين(٢) فعين لذلك الرشيد الكحال، وسيّر إليه صحبة الأمير فارس الدين المذكور، فأكرمه الأشكري وأكرم من صحبه من الأساقفة، وصادف وصولهم إلى الأشكري فتح القسطنطينية، فركب يوماً ليفرج فارس الدين المذكور فيها وفي عمارتها. فمر بمكان وقال: هذا جامع، وقد أبقيته ليكون ثوابه للسلطان. فلما سمع السلطان هذا الخبر استبشر به وفرح فرحاً عظيماً. وأمر لوقته بتجهيز الحصر العبداني(٣) والقناديل المذهبة والستور المرموقة والسجادات والمباخر والعنبر والعود والمسك وماء الورد.

وهذا المسجد كانت عمارته في سنة ست وتسعين للهجرة. وكان قد وقع الصلح مع الروم على أن يبني بها مسجد جامع(٤) فبنى. ولما طالت المدة جعلوه حبساً. وقيل: إن الصلح كان قد تقرر على أن يبني مسجد قدر جلد بعير، وتقررت العهود على ذلك فعمد المسلمون إلى جلد بعير فقدوه سيوراً ومدوها. فأنكر ذلك فقال المسلمون: هذا جلد بعير، لم نزد عليه شيئاً، وعليه وقع الاتفاق. فسكتوا وقيل: إن بانيه مسلمة بن عبد الملك(٥) في أيام أخيه الوليد(٦). والله أعلم.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧١.

(٢) هكذا في الأصل، وفي السلوك، ج ١، ص ٤٧١ (الملكية).

(٣) غير مضبوطة في الأصل، والنسبة إلى عبادان ـ فيقال عباداني، وعبداني وعبادي، وهي بلد جنوبي البصرة قرب الخليج الفارسي، وتقع في جزيرة محاطة بمياه مصبات دجلة والفرات، وكانت مشهورة بصنع الحصر. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٣، ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) هكذا في الأصل.

(٥) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. أمير قائد، من أبطال عصره. لُقِّب بالجرادة الصفراء. له فتوحات مشهورة. بنى مسجد مسلمة بالقسطنطينية سنة ٩٦ هـ/ ٧١٤ م. قال الذهبي: «كان أولى بالخلافة من أخوته». توفي سنة ١٢٠ هـ/ ٧٣٧ م. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ١٤٤؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ١، ص ٦٢، في وفيات سنة ١٢١ هـ/ ٨٣٨ م؛ القلقشندي: نهاية الأرب ص ٣٣٩.

(٦) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس. كان ولوعاً بالعمران، أصلح الطرقات وعمل =

ذكر حضور الأمير شمس الدين أقش البرلي العزيزي إلى الديار المصرية[١]

قد ذكرنا من أخباره وتردده إلى حلب وقتاله التتار في سنة تسع وخمسين وستمائة ما قدمناه.

قال المؤرخ: ولم يزل السلطان يكاتبه ويرغبه ويعطيه العهود والمواثيق على الوفاء، وسير إليه الأمير بدر الدين بكتاش الفخري في رسالة، وشافهه باليمين، فقال له الأمير شمس الدين: «قد جاءتني رسالة هولاكو يطلبني إليه، وحلف لي. وهذه رسالة السلطان ويمينه، وأنا، والله «أعلم أن هولاكو يفي، وأن السلطان لا يفي». وكان أولاده وأهله بالقاهرة فترجح عنده الحضور فحضر، ولما وصل إلى دمشق كتب السلطان إلى النواب بخدمته وترتيب الإقامات له في جميع الطرقات والمنازل إلى أن يصل إلى القاهرة، وكان متمرضاً من جراحة في رجله فجهز إليه الأدوية واهتم بأمره اهتماماً عظيماً، وكان وصوله إلى القاهرة في ثاني ذي الحجة سنة ستين وستمائة، فركب السلطان لتلقيه وحمل إليه من الأموال والأقمشة والخلع والخيول وآلات البيوتات ما لا يكون مثله إلا لملك، ولم يترك شيئاً مما يحتاجه الأمراء إلا سيره إليه. وكتب له منشوراً بستين فارساً، وأعطاه طبلخاناه، وأمر من صحبه من الأمراء، وأعطى كل واحد منهم بحسب حاله. قال: ولما استقر أرسل إلى السلطان يسأله زيادة في الشام[٢] أو في نابلس أو بلاد الصلت أو بعلبك أو حران، وينزل عن البيرة، ويقول: إن قدرته تعجز عن حفظها، فشكره السلطان ولم يقبل البيرة منه. وقال: «أنا أرجو لك الزيادة» وصار السلطان يقربه فيسايره إذا ركب، ويستشيره إذا جلس، ويساهمه في كل شيء حتى فيما يكون بين يديه من الطرف، ولازمه حتى لم يفارقه صيد ولا غيره، ثم جدد السؤال في قبول البيرة[٣]، فقبلها السلطان منه وأعطاه الرها[٤] وغيرها، وأمر

= الآبار، ومنع المجذومين من مخالطة الناس، وأجرى لهم الأرزاق، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام. وجعل لكل أعمى قائداً يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مقعد خادماً. وهو الذي هدم مسجد المدينة ثم بناه من جديد. ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٣، الطبري: تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٩٧ المقريزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ص ٢٩.

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٢) المقصود دمشق.

(٣) تقع بين بيت المقدس ونابلس. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٦.

(٤) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٦.

مماليكه. وسافر في صحبة السلطان إلى الطور[١] ثم قبض عليه لأسباب نذكرها، إن شاء الله تعالى.

ذكر القبض على علاء الدين طيبرس الوزيري نائب السلطنة بالشام[٢]

وفي سنة ستين وستمائة، بلغ السلطان عن الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري النائب بدمشق أمور أنكرها عليه، فسير الأمير عز الدين الدمياطي، والأمير علاء الدين أيدغدي الحاج الركني فتوجها من الديار المصرية في شوال، ودخلا إلى دمشق في ثالث ذي القعدة. فلما خرج إليهما ليتلقاهما ووصل إلى الأمير عز الدين الدمياطي أهوى ليكارشه على ما جرت العادة به في السلام، فقبض الدمياطي بيده على عضد طيبرس وبيده الأخرى على سيفه، وأنزل عن فرسه وركبوه بغلاً، وقيد وأرسل إلى السلطان، ووقعت الحوطة على أمواله وحواصله بدمشق، وكان قد سير جملة منها مع العرب. وكان طيبرس قد أساء السيرة في أهل دمشق، وضيق عليهم، وتسلم الأمير علاء الدين الركني دمشق ينظر فيها إلى حين حضور نائب مستقل.

ومن عجيب ما وقع في القبض عليه ما حكاه شمس الدين الجزري في تاريخه عن الرشيد فرج الله كاتب البيوتات بدمشق، قال: لما وصل الأمراء الذين قبضوا على طيبرس إلى الكسوة طلبني، وقال: جهز سماطاً جيداً لهؤلاء الأمراء، وأحضره أنت بنفسك واحترز عليه، فأنا لا أحضره. قلت: لأي سبب يتأخر مولانا عنه؟ فأسر إلي وقال: إن هؤلاء جاؤوا ليقبضوا علي قبل دخولهم إلى دمشق. فقلت: يكفيك الله، وبكيت. فقال: هذا أمر لا بد منه، فأبصر أنت كيف تكون. فخرجت من عنده، وجهزت السماط كما رسم، وكان من قبض ما تقدم قال الرشيد: فدخلت يوماً على الأمير علاء الدين الركني وهو يحكم بدمشق، فسألني عن أشياء تتعلق بالديوان والسماط إلى أن ذكر الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري وأثنى عليه خيراً، فوجدت مجالاً للكلام، فذكرت له هذه الحكاية. فقال لي: أنا أحكي لك أعجب من هذا: بينا أنا في داري بالقاهرة في وقت القايلة وإذا برسل السلطان تستدعيني إليه، فما شككت حين طلبني في غير الوقت المعتاد أنه يقبض علي. فأوصيت استادداره بما يعتمده، وودعت أهلي، وركبت إلى القلعة، فوافيت الأمير عز الدين الدمياطي وقد طلب كما طلبت، فتحققنا جميعاً، إننا نمسك، ثم دخلنا على السلطان فوجدناه في خلوة، فلما أقبلنا عليه نهض قائماً، وأكرمنا فقبلنا الأرض بين يديه وزال عنها ما كنا نجده، ثم

---

(١) جبل مطل على طبرية الأردن. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٧.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٢.

أمرنا بالقرب منه، فتقدمنا حتى التصقت ركبنا بركبتيه، ثم أخرج من جيبه ختمة واستحلفنا أننا لا نذيع له سراً، وأن نفعل ما يأمرنا به، فحلفنا، فلما تمت اليمين قال: تتوجها الساعة إلى دمشق وتستصحبا معكما العسكر المقيم بغزة[١]، وتمسكوا[٢] علاء الدين طيبرس نائب الشام، وتكون أنت مكانه، وإن سمعت هذا الحديث من أحد من خلق الله تعالى قبل أن تفعلاه شنقتكما، فخرجنا من عنده فلما صرنا تحت القلعة إذا بحرفوش يقول لآخر: هؤلاء رايحين إلى دمشق يقبضوا على طيبرس نائب السلطنة بها، فأصفر عند ذلك لوني ولون الدمياطي، وحلفنا جميعاً لا نصل إلى بيوتنا، وقال كل منا لاستادداره أن يلحقه بهجين وجنيب إلى البئر البيضاء[٣] وسقنا من وقتنا إليها. فلحقنا غلمائنا وما نحتاج إليه بعد العصر، واستمر بنا السير حتى نفذنا أمر السلطان. وهذا شيء أجراه الله تعالى على ألسنة عوام مصر، لا ينطقون بشيء في غالب الأوقات إلا ويكون كذلك.

ذكر وصول جماعة من التتار إلى خدمة السلطان[٤]

قال المؤرخ: كان السلطان قد جهز كشافة من الأمراء وهم، جمال الدين أقش الرومي السلاح دار من الخواص ومعه الخيول الجياد، ثم جهز الأمير علاء الدين أقسنقر الناصري، وكتب إلى الشام بأردافهم، وأرسل أمراء العربان فساقوا إلى حدود العراق. وكانت الأخبار من جهة القصاد قد وردت أن هولاكو جمع جمعاً كبيراً ولم يعلم قصده، فاحترز السلطان وسير هذه الكشافة. فأمسكوا من وسط التتار جماعة، واستطلعوا منهم الأخبار، وكانوا مسلمين، فأطلقهم الأمير علاء الدين. ولما توالت الأخبار بحركة هولاكو عمل السلطان بالحزم، وتقدم إلى أهل دمشق بالحضور بأهاليهم لتخف ظهورهم وترخص الأسعار فحضر منهم جماعة كثيرة.

وكتب إلى التواب بحلب بحريق الأعشاب، وسير جماعة إلى بلاد آمد ومواضع الأعشاب فأحرقوا من المروج مسيرة عشرة أيام، وكذلك أعشاب بلاد خلاط[٥] حتى صارت كلها رماداً. ثم ورد كتاب الأمير الحاج علاء الدين أقسنقر الناصري أن الكشافة

---

(١) مدينة في أقصى الشام، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٠٢.

(٢) هكذا بالأصل، وهي كلمة عامية.

(٣) بين القاهرة وبلبيس. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠٠.

(٤) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٥.

(٥) في الأصل «خلاصاً» والتصحيح من كتاب السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٣، س ٧.

وجدوا جماعة كثيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى باب السلطان، وأنهم من أصحاب الملك بركة، وكانوا نجدة عند هولاكو، فلما وقع بينهما كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه وإن عجزوا عن ذلك ينحازوا[١] إلى عسكر الديار المصرية وأنهم يذكرون أن العداوة قد استحكمت بين الملكين هولاكو وبركة، وأن ولد هولاكو قتل في المصاف، وأنهم فوق مائتي فارس، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم وترتيب الإقامات لهم في الطرقات وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة، فوصلوا يوم الخميس رابع عشرين ذي الحجة سنة ستين، وخرج السلطان للقائهم يوم السبت السادس والعشرين من الشهر. وكان السلطان قد رسم بعمارة أدر ومساكن لهم بقرب اللوق، فسكنوها، وحملت إليهم الخلع وسيقت الخيول وفرقت فيهم الأموال، ولعبوا الكرة مع السلطان، وأمر أكابرهم بمائة فارس فما دونها، ونزل بقيّتهم في جملة بحريته ومماليكه، وأفردت لهم جهات يستخرج منها مرتبهم. وأسلموا وحسن إسلامهم. وبلغ التتار ما نال هؤلاء من الإحسان وما شملهم من الأنعام فتوافدوا جماعة بعد جماعة، والسلطان يعتمد مع كل من يحضر منهم مثل ما اعتمد مع من قبلهم.

ذكر إنفاذ الرسل إلى الملك بركة[٢]

قال: ولما وصلت جماعة التتار إلى السلطان، واستطلع منهم الحال وعرف أحوال الملك بركة ومقامه والطريق إليه جهز إليه رسله وهم: الأمير سيف الدين كشريك[٣] وهو رجل تركي كان جمدار السلطان خوارزمشاه يعرف البلاد واللغات، والفقيه مجد الدين الروذراوري، وسير صحبتهم نفرين[٤] من التتار الذين وصلوا إليه من أصحاب الملك بركة. وكتب على أيدي الرسل كتاباً يستميله ويحثه على الجهاد، ويصف العساكر الإسلامية وكثرتهم وعدة أجناسهم من الترك وعشائر[٥] الأكراد وقبائل العربان ومن أطاعها من الملوك الإسلامية والفرنجية، ومن خالفها، ومن وافقها، ومن

---

(١) حذف مفعول وقع جائز في العامية، واللفظ وارد هنا بمعناه العامي.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٥.

(٣) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٥، س ٢، كسريك، حيث سمى المقريزي هذا الأمير باسم سيف الدين كشتك، وهو مترجم إلى (Keschtek) في:
Quatremère: Histoire des sultans Mamlouks de L'Egypte V 1, p 181.

(٤) عن السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٤، س ٥ في الحاشية أن اسمهما بلاغيا وططرشاه.

(٥) في الأصل: وعشاير.

هاداها وهادنها[1]، وأن جميعها في طاعته وسامعة لإشارته إلى غير ذلك من الإغراء بهولاكو وتهوين أمره وتقبيح الغفلة عنه، وأعلمه بوصول من وصل من التتار وادعائهم أنهم من أصحابه، وأن الإحسان إليهم إنما هو من أجله. وكان الخليفة الحاكم بأمر الله قد حضر وبويع بحضور الرسل وكتب نسبته وأذهبت وأشهد على ثبوت نسبه، وسير ذلك إلى الملك بركة. وزود الملك الظاهر الرسل لمدة شهور، وتوجهوا في المحرم سنة إحدى وستين. ووصلوا إلى بلاد الأشكري فأحسن إليهم وصادف وصولهم وصول رسل الملك بركة إلى الأشكري، فسيرهم صحبتهم ورجع الفقيه مجد الدين لمرض حصل له، وتوجه الرسل صحبة رسل الملك بركة: الأمير جلال الدين والشيخ نور الدين علي، ووصلت كتب الأشكري أن رسل السلطان توجهوا سالمين.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام
إلى الأمير جمال الدين النجيبي الصالحي[2]

قال: ولما تسلم الأمير علاء الدين الركني مدينة دمشق على ما قدمناه اختار السلطان الأمير جمال الدين أقش النجيبي الصالحي لنيابة السلطنة بدمشق، وجهز معه الصاحب عز الدين عبد العزيز بن وداعة وزير الشام. وكان قد حصل بينه وبين الأمير علاء الدين طيبرس مفاوضات أوجبت حضوره إلى الباب السلطاني صحبة الركاب الشريف فرسم بعوده على [عادة][3] وظيفته.

وفي هذه السنة في ذي القعدة، خرج أمر السلطان لقاضي القضاة تاج الدين[4] أن يستنيب نواباً من المذاهب الثلاثة، فاستناب القاضي صدر الدين سليمان الحنفي، والشيخ شرف الدين عمر السبكي المالكي، والشيخ شمس الدين الحنبلي.

وفيها: اشتد الغلاء بالشام[5]، وأبيعت غرارة القمح بأربعمائة وخمسين درهماً، والشعير بمائتين وخمسين، وأبيع القمح بحماه عن كل مكوك أربعمائة درهم، ثم غلت سائر الأصناف، ومات خلق كثير من الجوع.

وفيها: في ذي الحجة ظهر بالقاهرة عند الركن المخلق معبد وفيه حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى بن عمران عليه السلام، فجددت عمارته. وهو إلى الآن يعرف بمعبد موسى.

---

(١) هكذا في الأصل، والمرجح أن الأسلوب كان يقتضي «من عاداها ومن هادنها».
(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٨٠.
(٣) هكذا بالأصل.
(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧٢.
(٥) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٦.

ذكر وفاة شيخ الإسلام عز الدين أبي محمد بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن أبي محمد السلمي الدمشقي الشافعي وشيء من أخباره[(١)]

كانت وفاته، رحمه الله تعالى، بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة المعزية، في يوم السبت قبيل العصر التاسع من جمادى الأول سنة ستين وستمائة، ودفن يوم الأحد قبل الظهر بسفح المقطم. ومولده تقريباً في سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وولي من المناصب الدينية بدمشق: تدريس زاوية الغزالي، وخطابة الجامع الأموي. وولي بالديار المصرية: القضاء بمصر والوجه القبلي، وخطابة جامع عمرو بن العاص، وتدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة، والنظر في عمارة المساجد بالقاهرة ومصر. وكان، رحمه الله تعالى، أحد أئمة المسلمين، إليه انتهت الفتيا في زمانه، وصنف التصانيف المشهورة، منها: الإمام في أدلة الأحكام، وقواعد الفقه الكبرى، والوسطى والصغرى، والغاية في اختصار النهاية، وجمع بين الحاوي والنهاية، واختصر الشامل لابن الصباغ، واختصر الكشاف، واختصر تفسير ابن عباس والماوردي، وفسر سورة البقرة في مجلدة[(٢)]، وفسر من سورة يس إلى سورة الناس، واختصر صحيح مسلم في مجلدين، وعمل عليهما حواشي مفيدة، واختصر الرعاية، وصنف في الزهد شجرة المعارف، وغير ذلك من التصانيف المفيدة. وكان رحمه الله، كثير الزهد والإيثار، لا يعتني بالملابس، ولا يكترث بها، ولا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخشى سطوة ملك، لم يزل يصدع الملوك بمر الحق، ويفتي بحكم الله وسنة رسوله ﷺ، وإن خالف ذلك آراء الملوك واعتقادهم، وكرهوه منه، ونهوه عنه فلا يرجع عما علمه، ويطلب المناظرة عليه. واتفقت له وقائع مع الملوك راموا فيها قتله، فحماه الله تعالى منهم، وهي وقائع تدل على صلابة دينه، وحسن يقينه، وتمسكه من السبب الأقوم بمتينه. منها: واقعته مع الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل صاحب دمشق في مسألة الكلام. وكان الملك الأشرف قد صحب جماعة من مبتدعة الحنابلة من صغره ممن يقول بالحرف والصوت، فاستمالوه إلى مذهبهم وقرروه عنده حتى امتزج بلحمه ودمه، واعتقد كفر من يعتقد خلافه وأنه مباح الدم. وكان في ابتداء سلطنته يميل إلى الشيخ عز الدين لما يبلغه عنه، وقصد حضوره إليه، والشيخ يأبى

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، وفيات عام ٦٦٠؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٦.

(٢) لا يعقل أن تكفي مجلدة واحدة، والراجح أن العدد الذي كان قبل التميز قد سقط.

ذلك ويمنع منه ولا يجيب إليه. فألقى إلى السلطان من صحبه من الحنابلة أن الشيخ مخالف لرأيه مباين لمذهبه، وأنه يقدح فيمن يعتقده ويذمه ويسبه، فأتهمهم السلطان في ذلك، وطلب منهم تحقيقه عنده، فاجتمعوا وكتبوا فتيا في مسألة الكلام وأرسلوها إلى الشيخ، وكان قد اتصل به خبر مكيدتهم، فلما أتته كتب عليها بما يعتقده من تعظيم الله تعالى وتنزيهه وتوحيده، وأنه حي مريد سميع بصير عليم، قدير متكلم قديم أزلي ليس بحرف ولا صوت، ولا يتصور في كلامه أن ينقلب مداداً في الألواح والأوراق، بل الكتابة من أفعال العباد، ولا يتصور في أفعالهم أن تكون قديمة، ويجب احترامها لدلالتها على ذاته، كما يجب احترامها لدلالتها على صفاته. وأطال في الفتيا وبسط الكلام واستدل، ونفى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وأكابر أصحابه خلاف ذلك، وأخرج الفتيا من يده وقد تحقق ما يؤول أمرها إليه، فعرضت على السلطان، ومن عرضها لا يشك أن فيها سفك دم الشيخ. فلما وقف عليها استشاط غضباً وقال: صح عندي ما قالوه عنه، وتكلم في حقه بأشنع الكلام، وكفره، وكان ذلك في شهر رمضان، وقد اجتمع على سماطه القضاة والعلماء، فما استطاع أحد منهم أن يرد عليه لما عنده من الحرج. فقال بعضهم: السلطان أولى بالعفو والصفح لا سيما في مثل هذا الشهر، وموّه آخرون بكلام يوهم صحة فذهب خصمه، ثم انفصلوا من المجلس. فنهض في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي، رحمه الله تعالى، وهو عالم مذهبه في زمانه. واجتمع بالقضاة والأعيان الذين حضروا المجلس، ووبخهم ولامهم وشدد عليهم النكير كونهم ما ذكروا الحق وكونهم سألوا العفو والصفح، وقال: هذا يوهم الذنب، ولم يزل إلى أن أخذ خطوطهم بموافقة الشيخ. فعند ذلك التمس الشيخ من السلطان أن يعقد مجلساً للشافعية والحنابلة ويحضره المالكية والحنفية وغيرهم من علماء المسلمين. وقال: الذي يُعتقد في السلطان أنه إذا ظهر له الحق يرجع إليه، وأنه يعاقب من موه الباطل عليه، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل، تغمده الله برحمته، فإنه كان قد عزر جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيراً بليغاً رادعاً وبدع[1] بهم وأهانهم.

فأجابه السلطان بخطه ما مثاله:

بسم الله الرحمن الرحيم

«وصل إليّ ما التمسه الفقيه ابن عبد السلام، أصلحه الله، من عقد مجلس وجمع المفتيين والفقهاء. وقد وقفنا على خطه وما أفتى به، وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن

---

(١) هكذا في الأصل، والمعنى بحسب سياق الكلام «نكّل».

الاجتماع به. ونحن فنتبع ما عليه الخلفاء الراشدين الذين [قال][(١)] ﷺ، في حقهم. «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي». وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه، ويتبع الحق ويتخلص من البدع، اللهم إلا أن كنت تدعي الاجتهاد فعليك أن تثبت، ليكون الجواب على قدر الدعوى لتكون صاحب مذهب خامس.

وأما ما ذكرته عن الذي جرى في أيام والدي، تغمده الله برضوانه، فذلك الحال أنا أعلم به منك. وما كان له سبب إلا فتح باب السلامة، لا لأمر ديني وجرم جره سفهاه قوم فحل بغير جانيه العذاب. ومع هذا فقد ورد في الحديث الفتنة نائمة، لعن الله مثيرها؛ ومن تعرض إلى إثارتها قابلناه بما يخلصنا من الله، وما يعضد كتاب الله وسنة رسوله».

فلما وصلت هذه الرقعة إلى الشيخ قرأها، وقال للرسول: إذهب فقد وصلت. فقال: تقدمت الأوامر المطاعة السلطانية بإحضار جوابها، فكتب الشيخ ما مثاله.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣].

أما بعد حمداً لله الذي جلت قدرته وعلت كلمته وعمت رحمته وسبغت نعمته، فإن الله تعالى قال لأحب خلقه إليه وأكرمهم لديه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦] وقد أنزل الله تعالى كتبه وأرسل رسله بنصائح خلقه. فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه. وكان فيما أوصى به خلقه أن قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦] وهو سبحانه وتعالى أولى من قبلت نصيحته وحفظت وصيته. وأما طلب المجلس وجمع العلماء فما حملني عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين. وقد سئل رسول الله ﷺ عن الدين فقال: «الدين النصيحة»؛ قيل لمن؟ يا رسول الله: قال: «لله ولكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم»، فنصح الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولكتابه بالعمل بمواجبه وللأئمة بأرشادهم إلى أحكامه والوقوف عند أوامره ونواهيه، ولعامة المسلمين بدلالتهم على ما يقربهم إليه ويؤلفهم لديه. وقد أديت ما عليّ في ذلك.

والفتيا التي وقعت في هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة، وما يخالف في ذلك إلا رعاع لا يعبأ الله

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

بهم، وهو الحق الذي لا يجوز دفعه، والصواب الذي لا يمكن رفعه. ولو حضر العلماء مجلس السلطان لعلم صحة ما أقول، والسلطان أقدر الناس على تحقيق ذلك. وقد كتب الجماعة خطوطهم بمثل ما قلته، وإنما سكت من سكت في أول الأمر لما رأوا من غضب السلطان. ولولا ما شاهدوه من غضب السلطان لما أفتوا أولاً إلا بما رجعوا إليه آخراً. ومع ذلك فيكتب ما ذكرته في هذه الفتيا وما ذكره الغير، ويبعث إلى بلاد الإسلام ليكتب فيها من يجب الرجوع إليه ويعتمد في الفتيا عليه. ونحن نحضر كتب العلماء المعتبرين ليقف عليها السلطان.

وبلغني أنهم ألقوا إلى سمع السلطان أن الأشعري[1] يستهين بالمصحف. ولا خلاف بين الأشعرية وجميع علماء المسلمين أن تعظيم المصحف واجب. وعندنا أن من استهان بالمصحف أو بشيء منه فقد كفر، وانفسخ نكاحه، وصار ماله فيئاً للمسلمين، وتضرب عنقه، ولا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، بل يترك بالقاع طعمة للسباع. ومذهبنا أن كلام الله سبحانه وتعالى قديم أزلي قائم بذاته، لا يشبه كلام الخلق، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق ولا يتصور في شيء من صفاته أن يفارق ذاته، إذ لو فارقته لصار ناقصاً، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وهو مع ذلك مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور مقروء بالألسنة، وصفة الله القديمة ليست بمداد الكاتبين ولا ألفاظ اللافظين. ومن اعتقد ذلك فقد فارق الدين وخرج عن عقائد المسلمين بل لا يعتقد ذلك إلا جاهل غبي، وربنا المستعان على ما تصفون.

وليس رد البدع وإبطالها من باب إثارة الفتن. فإن الله سبحانه وتعالى أمر العلماء بذلك، وأمرهم ببيان ما علموه. ومن امتثل أمر الله ونصر دين الله لا يجوز أن يلعنه رسول الله.

وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس: فأصول الدين ليس فيها مذاهب فإن الأصل واحد، والخلاف في الفروع.

ومثل هذا الكلام مما اعتمدتم فيه قول من لا يجوز أن يعتمد قوله. والله أعلم بمن يعرف دينه ويقف عند حدوده.

---

(١) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن. مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم. توفي ببغداد سنة ٣٢٤ هـ/ ٩٣٦ م.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٨٧، ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري ص ١٢٨ ـ ١٤٠.

وبعد ذلك فأنا نزعم أنا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده. وكل جندي لا يخاطر بنفسه فليس بجندي.

وأما ما ذكر من أمر باب السلامة، فنحن تكلمنا فيه بما ظهر لنا من أن السلطان الملك العادل، تغمده الله برحمته، إنما فعل ذلك إعزازاً للدين ونصرة للحق. ونحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر[١]، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

وكتب الشيخ هذا الجواب مسترسلاً بحضرة رسول السلطان، ودفعه إليه. فلما قرأه السلطان اشتد غضبه، وأرسل إليه أستاداداره غرس الدين خليلاً برسالة، وكان غرس الدين يحب الشيخ ويعتقده، فحضر إليه وجلس بين يديه، وتلطف به واستأذنه في أداء الرسالة، فقال: أدها كما قيلت لك.

فقال: يقول لك السلطان: «إنا قد شرطنا عليك ثلاثة شروط، أحدها: ألا تفتي، والثاني: ألا تجتمع بأحد، والثالث: أن تلزم بيتك». فقال له: إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ، المستوجبة للشكر لله تعالى على الدوام. أما الفتيا: فإني والله كنت متبرماً بها وأكرهها. وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم. ولولا أني كنت أراها متعينة عليّ لما أفتيت. والآن فقد سقط عني الوجوب وتخلصت ذمتي ولله الحمد والمنة. وأما ترك اجتماعي بالناس ولزومي لبيتي: فهذا من سعادتي لتفرغي لعبادة الله تعالى. والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى. وهذا تسليك من الحق، وهدية من الله تعالى إليّ أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان. والله لو كان عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعتها[٢] عليك ونحن على الفتوح، خذ هذه السجادة صلِّ عليها فقبلها الحاجب وقبّلها، وانصرف إلى السلطان وقصَّ عليه ما قاله الشيخ. فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمة، أتركوه، بيننا وبينه الله.

وبقي على ذلك ثلاثة أيام، إلى أن ركب الشيخ العلامة جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية حماره وتوجه إلى القلعة، وكان معظماً عند السلطان وقد جمع العلم والعمل، فلما بلغ السلطان وصوله إلى القلعة أرسل خواصه يتلقونه، وأمرهم أن يدخلوا به إلى داره على حماره ففعل. ولما رآه السلطان وثب إليه وتلقاه، وأنزله عن حماره وأجلسه على تكرمته واستبشر به. وكان ذلك عند غروب الشمس. فلما أذَّن

---

(١) في الأصل: السراير.

(٢) لخلعته، والتصحيح يقتضيه السياق.

المؤذن وصلُّوا المغرب قدّم السلطان إليه شراباً وناوله إياه بيده. فقال: ما جئت إلى طعامك ولا إلى شرابك. فقال: يرسم الشيخ ونحن نمتثل أمره. فقال: أي شيء بينك وبين ابن عبد السلام؟ هذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده ويفتخر به على سائر الملوك. قال: عندي خطه باعتقاده في فتيا، وخطه أيضاً في رقعة جواب، رقعة سيرتها إليه. فيقف الشيخ عليهما ويكون الحكم بيني وبينه. ثم أحضر الورقتين، فقرأهما الشيخ وقال: هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ونفس المؤمنين، وكل ما فيهما صحيح، ومن خالف ما فيهما وذهب إلى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت فهو حمار. فقال السلطان: نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك الفارط في حقه، والله لأجعلنه أغنى العلماء.

وأرسل إليه واسترضاه، وطلب محاللته ومخاللته. وتقدم السلطان إلى الفريقين بالإمساك عن الكلام في مسألة الكلام وألا يفتي أحد فيها بشيء سداً لباب الخصام.

ثم وصل السلطان الملك الكامل إلى دمشق. وكانت الواقعة قد اتصلت به، فرام الاجتماع بالشيخ فاعتذر إليه، فطلب أن يكتب له صورة الواقعة مستقصاة، فأمر ولده الشيخ شرف الدين أن يكتب ذلك من أوله إلى آخره ففعل. وأرسله إلى الملك الكامل فقرأه وكتمه. ثم سأل أخاه الملك الأشرف عن الواقعة. فقال: منعت الطائفتين من الكلام في المسألة، وانقطع بذلك الخصام. فقال له السلطان الملك الكامل: ليست هذه سياسة حسنة، تساوي بين أهل الحق والباطل، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأمرهم أن يكتموا ما أنزل الله إليهم. كان الطريق أن تمكن أهل السنة أن يلحنوا بحججهم وأن يظهروا دين الله، إلى غير ذلك من الكلام. وتحقق الملك الأشرف صحة ما قاله الشيخ وصرح بخجله منه، وصار يترضاه، ويعمل بفتاويه، ويأمر أن يقرأ عليه تصانيفه الصغار مثل: الملحة في اعتقاد أهل الحق، ومقاصد الصلاة، وكرر قراءتها عليه في يوم ثلاث مرات.

واستمر الحال على ذلك إلى أن مرض الملك الأشرف مرضة [موته][1] وأرسل أكبر أصحابه إلى الشيخ وقال: قل للشيخ محبك موسى بن العادل أبي بكر يسلم عليك ويسألك أن تعوده وتدعو له وتوصيه بما ينتفع به غداً عند الله تعالى. فأبلغه الرسول الرسالة، فتوجه إلى السلطان فسر برؤيته، وقال له: اجعلني في حل، وادع لي، وأوصني، وأنصحني: ففعل الشيخ ذلك، وتحدث معه في أشياء منها: إبطال

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

المنكرات بدمشق، فأمر بإبطالها، وتولى الشيخ إزالة بعضها بنفسه، وأطلق السلطان له ألف دينار عيناً، فردها عليه: هذه اجتماعة لله تعالى، لا أكدرها بشيء من الدنيا. ثم مات الملك الأشرف إثر ذلك.

ولما حضر الملك الكامل إلى دمشق وانتزعها من أخيه الصالح إسماعيل كما تقدم، حضر الشيخ إلى مجلس السلطان فأكرمه، وفوّض إليه تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق ثم فوض إليه قضاء القضاة بعد ذلك بدمشق. فاشترط شروطاً كثيرة ولم يله. وقيل إنه تولاه مدة يسيرة وعزل نفسه.

ثم كانت واقعة مع الملك الصالح عماد الدين إسماعيل [ابن العادل][1] صاحب دمشق [عندما أذن للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح... فأفتى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج... وكان الصالح غائباً عن دمشق فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام. وولي خطابة[2]] دمشق، بعد عز الدين بن عبد السلام، علم الدين داود بن عمر بن يوسف بن خطيب بيت الآبار.

فلما سلم الملك الصالح صفد والشقيف وغير ذلك للفرنج وصالحهم، كما تقدم، امتنع [الشيخ ابن عبد السلام][3] من الدعاء له على المنبر الجامع بدمشق فكان من خبر عزله واعتقاله وخروجه من الشام ووصوله إلى الديار المصرية وولايته الخطابة بجامع عمرو بن العاص بمصر، والقضاء بمصر والوجه القبلي، وعزله نفسه مرة بعد أخرى، وغير ذلك من أحواله ما قدمناه في أخبار الدولة الصالحية النجمية.

ولم يزل الشيخ، رحمه الله تعالى، معظماً عند الملك الصالح وغيره من الملوك بعده بالديار المصرية يرجعون إلى رأيه ويعتمدون على فتاويه، ويقف الأكابر عند أوامره إلى أن ملك السلطان الملك الظاهر فزاد في تعظيمه وإكرامه وبره، واستشاره في ابتداء دولته فيما يفعله مما فيه صلاح دولته، فقال له: إن الدولة لا تقوم إلا بأمرين؛ أحدهما: قيام الشرع الشريف. والثاني: تحصيل الأموال من وجوهها، ولا أرى لمنصب القضاء مثل تاج الدين عبد الوهاب، يريد ابن بنت الأعز، وللوزارة مثل بهاء الدين علي. فرجع السلطان إلى رأيه وتمسك بقوله، وفوض المنصبين لهما، فقام كل منهما في منصبه أحسن قيام. وحمدت عاقبة هذه الولاية، وشكر سداد هذا الرأي.

ولما توفي الشيخ، رحمه الله تعالى، تألم السلطان لفقده، وشيع جنازته أمراء

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٤.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٤.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٤.

الدولة وأكابرها، وحملوا نعشه إلى أن وضع في قبره، رحمه الله تعالى.

وهذا الذي أوردته من أخبار الشيخ في مسألة الكلام نقلته من خط ولده الشيخ شرف الدين محمد، رحمه الله تعالى. وفضائله ومناقبه، رحمه الله تعالى، كثيرة، وقد أتينا منها بما يدل على مجموعها.

وفيها: أيضاً توفي الصاحب كمال الدين[١] عمر، ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن هبة الله[٢] بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة الحنفي المعروف بابن العديم الحلبي[٣]، كان فاضلاً أديباً شاعراً كاتباً رئيساً مؤرخاً، وكانت وفاته بمصر في العشرين من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة، ودفن بسفح المقطم، ومولده بحلب في العشر الأول من ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

واستهلت سنة إحدى وستين وستمائة[٤]

ذكر البيعة للإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد العباسي[٥]

كان وصوله إلى الديار المصرية في سنة ستين وستمائة فتلقاه السلطان وأكرمه وخدمه، وأنزله بقلعة الجبل، وأدر عليه النفقات، ثم بايعه في يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين وستمائة على ما قدمنا ذكره في أخبار الدولة العباسية.

ذكر القبض على الملك المغيث صاحب الكرك واعتقاله[٦]

كان القبض على الملك المغيث فتح الدين عمر صاحب الكرك في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأول سنة إحدى وستين وستمائة. وذلك أن السلطان توجه من قلعة الجبل المحروسة لقصد الشام في سابع شهر ربيع الآخر من السنة،

---

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٦. يكنى بأبي قاسم.

(٢) في السلوك ورد بعد أحمد بن هبة الله: محمد بن هبة الله، المقريزي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٦.

(٣) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين بن العديم، مؤرخ، محدث، من الكتّاب، ولد بحلب، ورحل إلى دمشق وفلسطين، والحجاز والعراق. وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ٢، ص ١٠٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٠٨، اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٥٨.

(٤) يوافق أولها يوم الأربعاء ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٦٢ م.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩.

(٦) المقريزي: المصدر نفسه ج ١، ص٤٨١ ـ ٤٨٢.

وخيم بظاهر القاهرة إلى أن تجهز الناس، ورحل في حادي عشر الشهر فوصل إلى غزة المحروسة فوجد والدة الملك المغيث بها، فأحسن إليها وأنعم عليها، وأعطاها شيئاً كثيراً، وحصل الحديث معها في حضور ولدها [إلى السلطان](١)، وتقررت الأمور سراً ولم يعلم أحد بما تقرر، وأعاد عليها العطاء والإنعام وعلى كل من حضر معها، وتوجهت وصحبتها الأمير شرف الدين الجاكي المهندار(٢)، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر من الكرك.

ونظر السلطان في أمر أمراء التركمان وخلع عليهم. وأحضر أمراء [العربان من](٣) العابد وجرم وثعلبة وضمنهم البلاد وألزمهم [القيام](٤) بالعِداد(٥) [وشرط عليهم إقامة خيل البريد في المراكز](٦).

ثم سار من غزة ونزل الطور(٧)، في ثاني عشر جمادى الأول. وسير الملك الأشرف صاحب حمص إلى السلطان يلتمس الإذن له في الحضور إلى الخدمة فأذن له، فحضر في نصف الشهر فتلقاه السلطان وأحسن إليه. وصارت رسل الملك المغيث تتوالى إلى السلطان وهو ينعم عليهم. وخرج [إليه](٨) الملك المغيث من الكرك وأقام مدة في الطريق. وأظهر السلطان من الاحتفال بأمره شيئاً كثيراً وخدعه أعظم خديعة. ولما وصل الملك المغيث إلى بيسان ركب السلطان لتلقيه فالتقاه وساق الملك المغيث إلى جانبه، فلما وصل إلى باب الدهليز ترجل ودخل إلى الخيمة فأدخل إلى خركاة(٩)

---

(١) إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١، س ٧، نقلاً عن مفرّج الكروب لابن واصل، ص ٤١٢ ب.

(٢) هكذا بالأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١، س ٩ (المهمندار). والمهمندار، يقوم بلقاء الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٥٩.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١، س ١١.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١، س ١١.

(٥) العِدَاد هنا، زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطعان القبائل العربية والتركمانية .Quatremère: Op. cit, V 1, P 189, N⁰"69.
وانظر: قاموس المحيط للفيروزابادي، مادة: عدد.

(٦) ما بين المعكوفين وردت هكذا في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١. «وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه».

(٧) الطور في كلام العرب الجبل، والطور هو الجبل المشرف على نابلس ويعتقد اليهود أن إبراهيم (ع) أُمر بذبح ابنه إسماعيل (ع) فيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧.

(٨) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨٢.

(٩) الخركاه: هي كالبيت، تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة، تغشى بالجوخ ونحوه، وتحمل في =

واحتيط عليه وعلى أصحابه. وكان السلطان قد استدعى قبل ذلك قاضي القضاة بدمشق والعلماء وأظهر أن ذلك لمبايعته، ولم يطلع أحد على غير ذلك. فلما وقعت الحوطة على الملك المغيث أحضر السلطان الملوك والأمراء وقاضي القضاة والشهود والأجناد ورسل الفرنج وأخرج كتباً من جهة العدو المخذول إليه. وقال الأتابك لمن حضر: «السلطان يسلم عليهم ويقول ما أخذت الملك المغيث إلا بهذا السبب». وقرئت الكتب. وانصرف الملك الأشرف ومن حضر. وقال للقاضي وجماعة العلماء: ما طلبتكم إلا بهذا السبب. وكتب مكتوب بصورة الحال، وكتب فيه القاضي والجماعة. ثم جهز الملك الأشرف وركب السلطان لوداعه.

وفي اليوم الذي قبض فيه على الملك المغيث جلس السلطان بعد انقضاء المجلس وأمر بالكتب إلى الكرك: يعد من فيها بالإحسان، ويحذرهم عاقبة مخالفته.

وسير الأمير بدر الدين بيسري الشمسي، والأمير عز الدين أيدمر الظاهري أستاد الدار العالية[١] إلى جهة الكرك وجهز الخلع والأموال ليلحقهما بها[٢]، وجهز الملك المغيث عشية النهار إلى الديار المصرية صحبة من أختاره لذلك، وأطلق أهله وحاشيته، وسير حريمه إلى مصر وأطلق لهم الرواتب.

وكان من خبر وفاة الملك المغيث ما قدمناه في أخباره، رحمه الله.

وفي هذه المنزلة[٣] وصلت رسل دار الدعوة ومعهم الهدايا ووصل ولدا[٤] الصاحبين مقدمي الدعوة، فأحسن السلطان إليهما وتوجها.

وفيها: أغار السلطان على عكا، وكان من أخبار الفرنج ما نذكر إن شاء الله تعالى في غزوات السلطان وفتوحاته.

ولما رجع السلطان من الغارة توجه إلى نحو الكرك، وكان رحيله من منزلة الطور في يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة من السنة. وجرد صحبته جماعة من العسكر وطائفة أخرى صحبة الأمير علاء الدين أمير جاندار إلى الصالحية[٥]. ووصل

= السفر لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨؛ Dozy: Suppl. V 1, P 366.

(١) استادار العالية: من الوظائف العسكرية. والاستادار لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨١.

(٢) هكذا في الأصل، وهي كلمة عامية.

(٣) المقصود (منزلة الطور) حسب سياق الكلام.

(٤) في الأصل ولد بالمفرد، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) قرية قرب الرُّها من أرض الجزيرة، ويقال قرب الرَّقّة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

السلطان إلى القدس الشريف في يوم الجمعة، فزار تلك الأماكن الشريفة وعاين ما يحتاج إليه من العمارة، وكتب إلى دمشق بتجهيز جميع ما يحتاج إليه من الأصناف والصناع. ثم صلى الجمعة، وتصدق وكتب بحماية الأوقاف، وتوجه نحو الكرك.

ذكر أخذ الكرك(١)

وفي يوم الخميس ثالث وعشرين جمادي الآخرة سنة إحدى وستين وستمائة نزل السلطان على الكرك وصحبته العساكر، وأحضرت السلاليم الخشب من الصلت وغيرها. وكان السلطان قد استصحب من الديار المصرية جماعة من الحجارين والبنائين والنجارين والصناع على أنه يبني الطور، وأحضر جماعة من دمشق وغيرها وسيروا إلى عين جالوت(٢)، وأشاع أن ذلك لبناء جامع، ولم يكن ذلك إلا لأجل الكرك. وعزم على الطلوع إليها بنفسه. فخاف أهل الكرك، ونزل أولاد الملك المغيث، وقاضي المدينة، وخطيبها وجماعة من أهلها، ومعهم مفاتيح الحصن والمدينة، وطلبوا العوض فحلف السلطان على ما طلبوا وأرضاهم بالعطاء، وسير الأمير عز الدين أيدمر أستاد الدار، والصاحب فخر الدين [محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا](٣) لتسلم الحصن. فطلعا في ليلة الجمعة وقت المغرب وتسلماه. ودعي للسلطان في بكرة الجمعة على أسوارها، ونصبت الصناجق السلطانية على أبراجها. وأصبح السلطان وطلع إلى الحصن في الثالثة من نهار الجمعة وجلس في القاعة الناصرية ورتب أحوال الحصن، واهتم بأمره، وعين للقلعة خاصاً، وأعطى أولاد الملك المغيث جميع ما حواه الحصن من مال وقماش وأثاث، وكذلك سائر غلمانهم وجميع الأمراء والمغادرة والأجناد، ولم يتعرض لأحد منهم في(٤) شيء، ونزلوا جميعهم في ذلك النهار، وصلى السلطان بها الجمعة وخطب له. ونزل وقت المغرب.

وفي يوم الأحد، سير إلى الملك العزيز ولد الملك المغيث الخلع والقماش، وكذلك [إلى](٥) الطواشي بهاء الدين صندل والأمير شهاب الدين بن صعلوك أتابكه(٦).

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩١.

(٢) بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. كان الروم قد استولوا عليها مدة، ثم استنقذها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٧.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩١.

(٤) في الأصل (إلى) والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٦) الأتابك: يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين: وهما: أطا بمعنى الأب، وبك: بمعنى أمير. وأصله =

وكتب السلطان إلى الشام بحمل الغلال والذخائر والأصناف إليها. وطلع إليها يوم الاثنين وكتب المناشير لعربانها ومن بها. وكانت تزيد على ثلثمائة منشور في وقت واحد، وعلم عليها، وثبتت، وسلمت لأصحابها بعد تحليفهم بين يدي السلطان، كل هذا في بعض يوم. وجرد السلطان بها جماعة من البحرية والظاهرية، واستناب الأمير عز الدين أيدمر أستاذ الدار بالكرك، وأضاف إليه النظر على الشوبك(١) وأعمالها. وحلف مقدمي المدينة وحلف نصارها على الإنجيل. وحمل ما كان معه إلى الحصن من الزردخاناه(٢) والأغنام والشعير وغير ذلك من سائر الأصناف والأقمشة وسبعين ألف دينار عيناً، ومائة ألف وخمسين ألف درهم، وأعطى الأمير عز الدين أستاذ الدار ثلاثين ألف درهم، وجملة من القماش.

وتوجه السلطان إلى القاهرة في يوم الأربعاء [تاسع عشر جمادى الآخرة](٣) فكان دخوله إليها في سابع عشر رجب، وزينت المدينة أحسن زينة. وشق السلطان المدينة، وخلع على الأمراء والمقدمين والمغادرة وجميع حاشيته وغلمانه وأمّر ولد الملك المغيث الأكبر: مائة فارس.

ذكر القبض على الأمراء وهم: الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي والأمير شمس الدين أقش البرلي والأمير عز الدين الدمياطي، وما نقل من الأسباب الموجبة لذلك(٤)

وفي شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين وستمائة، قبض السلطان على الأمراء

= أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشان ألب أرسلان، كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير أمرائهم يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم، على سلطان أو أمير قاصر صغير. وكثيراً ما تزوج الأطابك من أم الموصى به. فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبويه، ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام، على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً. وكان يسمى أتابك العساكر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٨٤، حاشية رقم (٦)، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٤٦، حاشية رقم (١)، وانظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أتابك.

(١) قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة، قرب الكرك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) الزردخاناه: دار السلاح. وهي كلمة فارسية مركبة، وهي تشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح وغير ذلك. وتعني أيضاً السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب. القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩٢.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٩٣.

المذكورين واعتقلهم. وسبب ذلك أن السلطان كان قد أحسن إليهم إحساناً عظيماً. وكان مما اعتمده مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي أنه فوض إليه أمر المملكة، وأنفذ كلمته، وأطلق له في كل جمعة خوانين من عنده يمدان بجميع ما يحتاج إليه حتى ماء الورد، إلى غير ذلك. ورتب له في كل شهر كَلُّوتَتَين[١] زركشاً بمائة دينار عيناً، وكلبنداتها[٢]، كل كلبند بأربعين ديناراً. كل ذلك زيادة على الإقطاعات العظيمة والمرتبات الكثيرة، وعلى الإنعام، حتى جامكيات البزدارية[٣] والفهادين[٤] وعليق خيلهم. واشتغل الرشيدي بالشرب واللهو.

وأما الأمير عز الدين الدمياطي[٥] فإن السلطان أعطاه وزاده، ومن جملة ما كان بيده نصف مدينة غزة زيادة، وكتب له توقيعاً أنه إذا سافر في جميع المملكة لا يمنع شيئاً يطلبه في الشام من غزة إلى الفرات.

وأما الأمير شمس الدين البرلي فقد تقدم ما عامله به عند وصوله واستمر ذلك إلى آخر وقت.

ثم بلغ السلطان أن الرشيدي قد فسدت نيته فجعل عليه عيوناً، تحفظ جميع ما يجري منه، فكان مما أنكر السلطان عليه أن الأمير أسد الدين أستاد دار الملك المغيث أخبر السلطان أن كتاب الرشيدي وصل إلى الملك المغيث يقول له لا تحضر، فإن السلطان يريد أن يمسكك. وكان جواب السلطان: «إن كان الملك المغيث قد حلف للرشيدي فلا يحضر، وإن كان حلف لي فيحضر». ولم يظهر للرشيدي شيئاً من ذلك. ولما سير السلطان الأمير بدر الدين بيسري الشمسي إلى الكرك كتب إلى السلطان يقول: «إنني أمسكت كتاباً من الرشيدي بالكرك يقول: «لا تسلموها»، ويحسن لهم

---

(١) هذا اللفظ مثنى كلوتة، وهي غطاء الرأس تلبس وحدها، أو بعمامة، وتجمع على كلوتات وكلاوات. وتسمى أيضاً كلفة وكلفتاة وكلفتة، ويقابلها في الفرنسية لفظ (Calotte). انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١٢، ص ٩٨، وصبح الأعشى للقلقشندي، ج ٤، ص ٥ ـ ٦ :Dozy Supp. Dict. Ar.

(٢) ترجم (Quatremère) هذا اللفظ إلى (Turban) أي عمامة. غير أن المفهوم من سياق العبارة أن الكلبند هذا، كان جزءاً من غطاء الرأس، سواء أكان عمامة أو كلوتة. Quatremère: op. cit, V 1, p 211.

(٣) البزدارية: جمع بزدار أو بازدار. والبازدار هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده. القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٦٩.

(٤) الفهادة: هم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود.

(٥) عن السلوك للمقريزي، ج١، ص٤٩٣، أنه عز الدين أيبك الدمياطي.

التوقف عن التسليم ويعرض عليهم الاتفاق معه على أن يحضر هو ويتسلمها منهم ويحفظها لهم، فكتم السلطان ذلك وأمر الأمير بدر الدين بيسري بالاحتراز والتحفظ. ولما توجه السلطان إلى الكرك جعل على الرشيدي عيوناً، فبلغ السلطان أنه لما نزل الكفرين ونمرين قصد الركوب في أصحابه ومماليكه ويسبق[١] إلى الكرك فيدخلها هجماً. فركب السلطان إليه ونزل عنده ولاطفه ومازحه، ففاته ما دبره، وحفظ السلطان عليه الطرقات، ثم نزل السلطان بركة زَيْزَاء، فبلغه أن الرشيدي قد عزم على الركوب إلى الكرك، فخدعه السلطان بأن أرسل إليه أحد خواصه يبشره بتسليم الكرك. فلما سمع الرشيدي ذلك وقف عن فعله وخلع على المبشر. فلما رجع السلطان من الكرك ونزل غزة قام ليسبغ الوضوء على العادة، وتفرقت الخاصكية[٢] للوضوء والتهيؤ لصلاة الجماعة. وقام السلطان يتركع قبل الأذان، وإذا بالرشيدي قد أقبل في مقدار ثلاثمائة فارس مستعدة من مماليكه والدمياطي والبرلي، فلما قضى السلطان صلاته شد سيفه، وقال للأمير شمس الدين سنقر الرومي: ما الذي رأيت؟ فقال: «جماعة ما جاؤوا في خير». ثم حضر الأمير سيف الدين قلاون الألفي وركب فرساً جيداً ووقف، واجتمعت الخاصكية. وركب السلطان، وأتى الرشيدي، فوقف بالقرب من السلطان في مكان ما جرت عادته بالوقوف فيه، فحضر الأمير عز الدين إيغان الركني فقال للرشيدي: «أراك في هذا المكان، ما هذا مكانك يا سيف الدين» ومازحه وما زال به حتى ساق من ذلك المكان، وساق الدمياطي والبرلي وتفرقوا. وكان الدمياطي قد جرت منه قضية أخرى وهي أن السلطان لما ملك الكرك وأنزل أولاد الملك المغيث أعطاهم السلطان خلعاً وأقمشةً وإنعاماً كثيراً وأنزلهم في المنظرة التي في الوادي تحت الكرك بقرب منزلة السلطان: سير الدمياطي ضَوَّاءً[٣] وجماعة يمشون حولهم بغير أمر السلطان، ثم حضر في الليل إليهم جماعة من مماليكه بالسيوف متلثمين فكسروا الصناديق وأخذوا القماش الذي كان السلطان أنعم عليهم به ظناً منهم أن تقوم فتنة وشوشة في العسكر ولا يعلم أنهم مماليك الدمياطي، فكشف الله ذلك، وظهر القماش عند خواص مماليكه، واطلع السلطان على ذلك، وتحدث الأمير شجاع الدين المهندار مع الدمياطي فما أنصف من مماليكه، وقال: «أنا أغرم عنهم»، وأحضر بعض القماش، وقرر أن تقوم بدارهم عن بقية ذلك. هذا والسلطان لا يتكلم بكلمة بل كتم ذلك إلى أن استقر بقلعة الجبل فلما

---

(١) في الأصل: وبسبق، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان في خلواته، ويسوقون المحمل الشريف. ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٦.

(٣) من طائفة: الضوية أو المشاعلية أو أرباب الضوء.

أصبح طلب الرشيدي فاعتقله، وطلع الأمراء إلى الخدمة في اليوم الثاني، فأمسك الدمياطي والبرلي وأحسن إلى مماليكهم وخواصهم وأقرهم على أخبازهم، ولم يغير على أحد منهم ولا تعرض على بيوت الأمراء.

ذكر وصول [رسل](١) الملك بركة

قال: ولما وصل السلطان إلى غزة عند عوده من الكرك، وصل إليه البريد من الأمير عز الدين الحلي نائب السلطنة بالديار المصرية، يذكر أن رسل الملك بركة وصلوا إلى ثغر الإسكندرية، وهم الأمير جلال الدين بن القاضي، والشيخ نور الدين علي ومعهما جماعة، وبخبر بوصول رسل الملك الأشكري، ورسل مقدم الجَنَوِية(٢)، ورسل السلطان عز الدين صاحب الروم. فكتب بالإحسان إلى جميعهم. ولما استقر السلطان بقلعة الجبل أحضرهم واجتمع بهم بحضور الأمراء وغيرهم، وقرئت الكتب ومضمونها؛ السلام والشكر وطلب الإنجاد على هولاكو والإعلام بما هو عليه من مخالفة(٣) يسق جنكزخان، وأن جميع ما فعله من إتلاف النفوس بطريق العدوان منه، وأنني قد قمت أنا وأخوتي الأربعة بحربه من سائر الجهات لإقامة منار الإسلام، والتمس إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هولاكو، ويوصي على السلطان عز الدين صاحب الروم ويستمد مساعدته. فأنعم السلطان على الرسل إنعاماً عظيماً، ورسم بتجهيز الهدية إلى الملك بركة.

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر: وكان في جملة الهدية ختمة شريفة ذكر أنها خط عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونمزلقات(٤)، وسجادات وذكر أشياء كثيرة من جملتها زرافة، وسافرت الرسل في سابع عشر شهر رمضان سنة إحدى وستين وستمائة.

ذكر توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية(٥)

وفي سادس شوال سنة إحدى وستين وستمائة، توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية، وذلك بعد أن توجه نحو الصيد وتصيد. وكان دخوله إلى الثغر في يوم

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩٥.
(٢) الجنوية: أهل مدينة جنوة، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٠٥.
(٣) اليسق: هي القوانين المنسوبة إلى جنكيزخان.
(٤) هكذا في الأصل.
(٥) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

الأربعاء مستهل ذي القعدة، ودخل من باب رشيد. ورسم بمكتوب برد مال السهمين، وصلة أرزاق الفقراء، ووضع المظالم، ثم لعب الكرة، وخلع على الأمراء ووصلهم بالأموال والأقمشة. وركب لزيارة الشيخ القباري[١] والشاطبي وجلس بدار العدل في يوم الخميس تاسع الشهر وبسط المعدلة وأمر بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات. ثم رجع السلطان في حادي عشر الشهر.

وفي آخر ذي العقدة من السنة نزل السلطان إلى القاهرة، وعاد الأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير علاء الدين أيدغدي الركني والأمير حسام الدين بركة خان.

وفي ليلة الأربعاء الخامس من ذي الحجة توفي الأمير حسام الدين المذكور، فحضر السلطان جنازته ومشى فيها.

ذكر وصول التتار المستأمنين[٢]

وفي سابع ذي القعدة من السنة، وردت الكتب من البيرة وحلب أن جماعة من التتار مستأمنة واردة إلى الباب العزيز، يزيدون على ألف وثلاثمائة فارس من المغل والبهادرية. فكتب السلطان بالإحسان إليهم وتجهيز الإقامات لهم. وفي يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة كان وصولهم، فركب السلطان وتلقاهم، فنزلوا عندما رأوا السلطان، وقبلوا الأرض. وكان السلطان قد رسم بعمارة مساكن لهم فعمرت باللوق فنزلوها، وأحسن إليهم. ثم وردت الكتب بقدوم جماعة أخرى كثيرة منهم، فاحتفل بهم وركب لتلقيهم، ثم ورد جماعة أخرى فاعتمد معهم من الإحسان نظير أولئك. وكان الواصل إلى الخدمة في هذه الثلاث مرار من أكابر أمرائهم من يذكر. وهم: كرمون أغا، وهو الذي فتح بلاد الترك جميعها، وامتغا أغا[٣] ونوكا أغا[٤]، وجبراك[٥] أغا، وقنان أغا، وطيشور، وناصغبة[٦] ونبتو، وصجتي[٧]

---

(١) هو الشيخ المعتقد محمد بن منصور بن يحيى، أبي القاسم القبّاري، والقبّاري: نسبة إلى قبّار (Fossoyeur) وهو الرجل الذي يتولى حفر القبور ودفن الأموات. انظر: ..Dozy: Supp. Dict. وفي محيط المحيط أن «القبار هم عمال الصيد الذين يجتمعون لجر ما في الشباك من الصيد». وانظر المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٩.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠١.

(٣) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «إمطغية».

(٤) في السلوك، ج١، ص ٥٠١، «نوكيه».

(٥) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «جبرك».

(٦) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «ناصعيه».

(٧) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «صحبي».

وجوجلان، واجقرقا، وأرقدق[١]، وصلاعنة[٢] وميقتدم[٣]، واجتمعوا بمن كان قد وصل قبلهم وهم: صراغان أغا ومن كان قد وصل معه. ثم عرض السلطان عليهم الإسلام فأسلموا على يديه.

وفي هذه السنة أمر السلطان [بعمل جامع خام][٤] يضرب على يمنة الخيمة السلطانية، وعمل له محاريب وعدة أبواب ومقصورة برسم السلطان.

وفيها: أمر السلطان بعمارة دار العدل تحت قلعة الجبل، وتجديد بنائها.

وفيها: وصلت رسل اليمن بتقادم ومعهم هدايا لخواص الأمراء، فأمر السلطان بإنفادها إلى من عينت له وأذن لهم في قبولها.

وفيها: عرض السلطان العساكر، وكان يجلس لذلك في كل خميس واثنين.

وفيها: جهز السلطان عرب خفاجة، وسير الخلع إلى كبراء العراق، وكتب إلى صاحب شيراز وغيره بالإغراء بهولاكو.

وفيها: توفي الأمير فخر الدين[٥] أبو الهيجا بن عيسى بن خشترين الأزكشي الكردي أحد الأمراء بدمشق، وكان شجاعاً أبل في وقعة عين جالوت بلاء حسناً، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك المسعود صلاح الدين أقسيس ابن[٦] الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن[٧] الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وكانت وفاته بنابلس في خامس عشر ذي الحجة سنة إحدى وستين وستمائة، ومولده بدار الوزارة بالقاهرة في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وهو الذي كان قد ملك الديار المصرية في أيام الملك المعز عز الدين أيبك كما تقدم.

فلما ملك السلطان الملك الظاهر أمّره بالشام، وخلف، رحمه الله، ولداً اسمه ناصر الدين محمد، ونعته بالملك الكامل.

---

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠١ «ارقرق».
(٢) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «صلاغية».
(٣) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «متقدم».
(٤) ما بين حاصرتين في السلوك، ج ١، ص ٥٠١: «بعمل جامع من الثياب المفصلة».
(٥) في السلوك، ج ١، ص ٥٠٢ «مجير الدين».
(٦) في الأصل بن والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) في الأصل بن والتصحيح يقتضيه السياق.

واستهلت سنة اثنتين وستين وستمائة(١)

ذكر تفويض أمر جيش حماة إلى الطواشي شجاع الدين مرشد الحموي

وفي أول هذه السنة طلب السلطان الطواشي المذكور [إلى قلعة الجبل](٢) وتحدث في اشتغال(٣) صاحب حماه مخدومه بالملاذ واللهو، وقال: «كتب إليه أو نبهته من هذه الغفلة، وسيرت إليه شرف الدين عبد العزيز شيخ الشيوخ في ذلك فما أفاد، وقد اعتمدت عليك في مصلحة هذا البلد، لما فيك من الديانة والخير والشجاعة»، وألزمه بتكملة الجيش وإلزام الجند بإقامة البرك والعدة الكاملة. فالتزم بهذه الأمور. وكتب تقليده بذلك وتوجه.

ذكر عمارة المدرسة الظاهرية وترتيب الدروس(٤)

كان الشروع في عمارة المدرسة الظاهرية التي هي بالقاهرة المحروسة بين القصرين في ابتداء الدولة في ثامن شهر ربيع الآخر سنة ستين وتنجر بابها ودهليزها وأبوابها وكتاب السبيل في أواخر شعبان من السنة المذكور. ولم يشرع في بنائها حتى رتب أمور أوقافها. وكان المتولي عمارتها الأمير جمال الدين بن يغمور، ورسم له السلطان ألا يستعمل أحداً فيها بغير أجرة. وكان اجتماع أهل العلم بها في يوم الأحد الخامس من صفر سنة اثنتين وستين وستمائة. وفوض السلطان تدريس الحنفية للصدر مجد الدين بن الصاحب كمال الدين بن العديم، وتدريس الشافعية للقاضي تقي الدين ابن رزين. وصدر الاقراء للفقيه كمال الدين المحلي، والتصدر لإفادة الحديث النبوي للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي شيخنا. وذكرت الدروس بها في هذا اليوم، وحضر السلطان، ومدت الأسمطة وأنشد الشعراء وخلع عليهم.

وفي صفر من سنة، خرج السلطان متصيداً إلى جهة الغربية وتوجه إلى ثغر دمياط(٥) وزار البرزخ ومر في عوده ببلاد أشموم(٦) [وسار من المنزلة إلى الشرقية.

---

(١) يوافق أولها يوم الأحد ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٦٣.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٣.

(٣) يصف المقريزي، صاحب حماه «أنه مخدوم الطواشي» السلوك، ج ١، ص ٥٠٣.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٠٤.

(٥) دمياط: مدينة قديمة بين تنّيس ومصر. وهي ثغر من ثغور الإسلام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٥.

(٦) أُشْمُوم: اسم لبلدتين بمصر، أُشْمُوم طنّاح وهي قرب دمياط، وهي مدينة الدقهلية، والأخرى =

وفيه سأل الفرنج أن يؤذن لهم في زراعة ما بيدهم من بلاد الشام وتقويتها بجملة من الغلال، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام، وأذن لهم في ذلك فزرعوا][١]. وتصيد بمنزلة ابن حسون، وأخذ على بلاد الشرقية.

ذكر وفاة الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص والرحبة[٢]

وفي يوم الجمعة حادي عشر صفر من هذه السنة، توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن[٣] الملك المنصور إبراهيم ابن[٤] الملك المجاهد شيركوه ابن[٥] الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي [بن مروان][٦] رحمه الله تعالى. ولم يكن له ولد ولا أخ ولا ولي عهد، فسير السلطان إلى نوابه بتسليمها. فوصل البريد في سابع عشرين صفر بأن بدر الدين بيليك العلائي أحد الأمراء قد تسلما[٧]، وحلف الناس بهما[٨] للسلطان.

وفي هذا التاريخ ورد كتاب الأمير جمال الدين النجيبي النائب بدمشق يذكر أنه ولى حران للأمير جمال الدين الجاكي، والرقة لأمير آخر.

وفي هذا الشهر: سأل الفرنج نواب السلطان أنهم يأذنون لهم في زراعة البلاد وتقويتها من أموالهم وهي جملة كثيرة من الغلال، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام الحصاد[٩].

وفي هذه السنة: ثُمِّن القرط[١٠] الذي قضمته الخيول السلطانية وجمال

= أشموم الجريسات بالمنوفية. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٠.

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٥.

(٢) الرّحبة: قرية قرب القادسية على مرحلة من الكوفة. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣.

(٣)، (٤)، (٥) في الأصل (بن).

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٥.

(٧) تسلمها أي ـ الرحبة ـ في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٥.

(٨) بهما خطأ ظاهر، والصواب بها، انظر السلوك، ج ١، ص ٥٠٥.

(٩) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٥، وهذه الجملة وردت في شكل آخر. انظر الحاشية رقم (٣)، من صفحة ٩٤.

(١٠) القرط: هو البرسيم. انظر القاموس المحيط للفيروزابادي، مادة: قرط. وهو مترجم في: Dozy: Supp. Dict.. إلى الألفاظ الفرنسية: (Luzerne, foin, Fourrage).

المُناخات[١] فكان ثمنه خمسين ألف دينار[٢].

وفيها: استدعى السلطان الأمير علاء الدين الشهابي النائب[٣] بحلب وأمره أن يستنيب عنه الأمير نور الدين بن محلي[٤] ففعل ذلك. ولما وصل الملك إلى الأبواب السلطانية عزله السلطان عن نيابة حلب، وأقر الأمير نور الدين بن محلي في نيابة حلب فأحسن السيرة، وعمر البلاد وأعاد الفلاحين[٥]، وأفرد الخاص على ما كان عليه في الأيام الناصرية.

ذكر جلوس السلطان بدار العدل وما رتبه عند غلو الأسعار[٦]

قال: وفي شهر ربيع الآخر من السنة غلت الأسعار [بمصر] وبلغ ثمن الأردب إلى قريب المائة درهم نقرة. فرسم السلطان بالتسعير طلباً للرفق. فاشتد الحال وعدم الخبز. فأمر السلطان أن ينادي باجتماع الفقراء تحت القلعة، ونزل إلى دار العدل في يوم الخميس سابع الشهر، فأول ما تكلم فيه إبطال التسعير. ورسم أن يباع من الأهراء في كل يوم خمسمائة أردب بما يقدره الله من ويبتين فما دونها تباع على الضعفاء والأرامل. ونزل الحجاب تحت القلعة وكتبت أسماء للفقراء، وسير إلى كل جهة حاجباً لكتابة الأسماء في القاهرة ومصر وحواضرها، ولما تكامل حصر العالم أخذ السلطان ألوفاً، وأعطى لنواب ولده الملك السعيد كذلك، وأعطى لكل أمير جماعة على قدر عدته، وفرق على الأجناد ومفاردة الحلقة والمقدمين والبحرية، [وعزل التركمان والأكراد البلدين][٧]، ورسم أن يعطى لكل فقير مؤونته مدة ثلاثة شهور، ويسلم نواب الأمراء والأكابر والتجار الفقراء. ثم قال السلطان: «هؤلاء الفقراء

---

(١) المناخات: جمع مُناخ، وهي هنا الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية، كالإصطبلات لأصناف الخيل. ومنها مناخ الجمال البخاتي ومناخ الجمال النفر ومناخ الهجن والنياق. وكانت هذه المناخات، وكذلك اصطبلات الخيل وغيرها من أنواع الحيوان، كالفيلة والسباع والفهود تابعة لإدارة الاصطبلات السلطانية. ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٢٥، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٠٦.

(٣) هو الأمير علاء الدين أيدكين الشهابي. المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٤٠.

(٤) هو نور الدين علي بن مجلي الهاكري. ويرد اسم (محلي) هنا في متن النويري دون نقط بالحاء المهملة. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٠.

(٥) المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤٠.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

(٧) في السلوك، ج ١، ص ٥٠٧: «وعزل التركمان ناحية والأكراد ناحية».

جمعناهم في هذا اليوم، وقد انقضى نصف النهار فليعط كل منهم نصف درهم يتقوت به خبزاً، ومن غد يتقرر الحال». فأنفق فيهم جملة كثيرة بهذا القدر خاصة. وأخذ الصاحب جماعة العميان والأتابك [جماعة][١] التركمان، ولم يبق أحد من الخواص والحواشي وأرباب المناصب وغيرهم إلا أخذ جماعة. فانحطت الأسعار لذلك وكثر الخبز.

وفي ثالث شهر ربيع الآخر من السنة رسم السلطان بمسامحة بنات الأمير حسام الدين [لاجين][٢] الجوكندار العزيزي بما وجب للديوان في تركة أبيهن، [وكان قد مات بدمشق في رابع عشر المحرم، وهو مبلغ][٣] أربعمائة ألف درهم نقرة.

وفي هذه السنة، قصد متملك الأرمن حلب المحروسة مرة بعد أخرى، فلم يظفر بشيء، وخاب سعيه على ما نشرحه إن شاء الله في غزوات السلطان وفتوحاته.

وفيها: رسم السلطان بحفر خليج الإسكندرية، وكانت قد استدت فوهته، وندب لذلك الأمير عز الدين أمير جاندار فاهتم بذلك وحفر المكان المعروف بالنقيدي، وأمر ببناء مسجد هناك ليكون تذكرة باقية، وجهز الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستاد الدار العالية وأمره بالاهتمام بأمر جزيرة بني نصر لما بلغه قلة ريها، فاحتفل بها كل الاحتفال[٤].

وفيها: في جمادى الأول، تقدم أمر السلطان إلى الأمير سيف الدين بلبان الزيني أمير علم بالتوجه إلى الشام للاهتمام بأمر القلاع والبلاد وعرض عساكر حماة وحلب ورجال الثغور، والنظر في المهمات الخاصة والعامة، وإلزام الأمراء بتكملة العدد والعدة[٥] وإزاحة الأعذار وأخذ الأهبة للجهاد، وكتب على يده إلى دمشق بحمل خزانة كبيرة إلى البيرة برسم نفقاتها، فتوجه لذلك.

وفي العشر الأوسط من جمادى الآخرة حصل الظفر بجاسوسين للتتار، وكانت أخبارهما وحلاّهما وصلت إلى السلطان من جهة القصاد والناصحين بالأردو، وكذلك من كل جهة يصلان إليها، إلى أن ركبا من عكا في البحر، فلما وصلا إلى ثغر دمياط مسكا وأحضرا إلى بين يدي السلطان فذكر لهما الأماير، فأقرّا، ووجد معهما فرمانين[٦] للأتابك من هولاكو، وهو يرغبه ويستميله. فطلب السلطان الأتابك وأراه

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٨.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥١٠.

(٥) في الأصل: «العدة والعدة» بالتكرار. والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٠.

(٦) الفرمان: جمع فرمانات وفرامين وفرامنة. والفرمان ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاد يعلن فيها تنصيبهم ومأموريتهم. Dozy: Supp. Dict. Ar..

ذلك، ولم يصدق ذلك فيه، ومزق ذلك وحرقه، واستدل بذلك على ضعف هولاكو.

وفي هذه السنة تنجَّز البرج الذي أمر السلطان بعمله في قارة[١]، وشرع في بناء برج أكبر منه لحفظ الطرقات وصون الرعية من عوادي الفرنج المجاورين.

وفي جمادى الأول من السنة شرع النواب بالشام في بناء شقيف تيرون.

وفي الشهر أنعم السلطان على عسكر الساحل الذين هم صحبة الأمير ناصر الدين القيمري بمائتي ألف درهم فرقت عليه.

ذكر جلوسه بدار العدل وما قرره من مشاركة أمناء الحكم للأوصياء[٢]

وفي مستهل شهر رجب سنة اثنتين وستين وستمائة، جلس السلطان بدار العدل، فتقدم رجل من الأجناد ومعه صغير، فقال: «أنا وصيّ هذا الصغير» وشكا من قضية تتعلق به. فقال السلطان لقاضي القضاة: «أعلم أن الأجناد يموت الواحد منهم فيستولي خوشداشيته على موجوده ويجعل اليتيم أوشاقية، ويموت اليتيم فيستولي الوصي على الموجود أو يكبر اليتيم ولا يجد شيئاً ولا يقوم له حجة على موجوده. وقد يموت الوصي فينغمس مال اليتيم في ماله، وأنا أرى ألا ينفرد أحد من الأوصياء بوصية، وأن يكون نظر الشرع شاملاً، وأموال اليتامى مضبوطة، وأمناء الحكم يحاققون على المصروف وطلب نواب الأمراء ونقباء العساكر وأمرهم بذلك. واستمرت الحال عليه إلى وقتنا هذا[٣].

ذكر وصول جماعة من عسكر شيراز

وفي جمادى الآخر، بلغ السلطان أن جماعة من عسكر شيراز وصلوا لقصد الخدمة الشريفة، فأمر بالإحسان إليهم، ووصلوا في ثالث شهر رجب ومقدمهم [الأمير سيف الدين] بكلك[٤] ورفقته وهم: سيف الدين أقبار[٥] [الخوارزمي][٦] جمدار

(١) في الأصل: قارا: وهي قرية جنوبي حمص، وتقع على الطريق بين حمص ودمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٩٥، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص ٥١.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١١ ـ ٥١٢.
(٣) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥١٢.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٢.
(٥) في السلوك: (اقتبار).
(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٢.

السلطان جلال الدين خوارزمشاه والأمراء الأتابكية غلمان أتابك سعد منهم: سنقر جاه وغيره من الأتابكية. ووصل صحبتهم حسام الدين بن ملاح أمير العراق وجماعة من أمراء خفاجة، فتلقاهم السلطان وأحسن إليهم، وأمّر الأمير سيف الدين بكلك وأعطاه طبلخاناه، وكذلك أمراء خفاجة، والأمير مظهر الدين وشاح بن سهري[١]، وأطلق لحسين ابن ملاح قرية في الشام، وجهزهم إلى بلادهم.

وفي شهر رمضان وصل رسول من الملك شارل[٢] أخي الملك افرنسيس وهو صاحب مرشيلية، وصحبته عدة من السناقر الشهب والأمتعة. ومضمون كتابه[٣] المحبة والمشايعة. ووصل كتاب استاد داره يقول: إن مخدومه أمره أن يكون أمر السلطان نافذاً في بلاده، وأن يكون نائب السلطنة كما هو نائبه[٤].

وفي يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان: قرىء مكتوب بجامع مصر بأبطال ما قرره على ولاية مصر من الرسوم وهي مائة ألف درهم وأربعة آلاف درهم [نقرة][٥].

وفي هذا الشهر أحضرت فلوس من جهة قوص وجدت مدفونة فأخذ منها فلس: فإذا عليه صورة ملك واقف، وفي يده اليمنى ميزان، وفي اليسرى سيف، ومن الوجه الآخر رأس مصور بآذان كبيرة، ويداير الفلس سطور، فقرأها راهب يوناني: فكان تاريخه إلى وقت قراءته ألفين وثلاثمائة سنة. وفيه مكتوب: أنا غلياث الملك، ميزان العدل، والكرم في يميني لمن أطاع، والسيف في يساري لمن عصى، وعلى الآخر: أنا غلياث الملك، أذني مفتوحة لسماع كلمة المظلوم، وعيني مفتوحة أنظر بها مصالح ملكي.

ذكر سلطنة الملك السعيد[٦]

وفي يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة اثنتين وستين وستمائة، حصل الاتفاق على سلطنة الملك السعيد، فأركبه السلطان بشعار السلطنة، ومشى بنفسه في ركابه

---

(١) ورد في السلوك، ج ١، ص ٥١٢: (وشاح بن شهري).

(٢) المقصود هنا شارل انجو (Charles of Anjou) ملك صقلية. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٢، حاشية رقم (١)، وانظر النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٢١.

(٣) إن الكتاب المشار إليه، كان الغرض منه عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك ومملكة صقلية. انظر: Lane - Poole: A history of Egypt in the Middle Ages, P. 266.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥١٣.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٤، س ٢.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٦.

وحمل الغاشية. ثم أخذها الأمراء وحملوها وعليهم الخلع الفاخرة، ورجع السلطان. ولم يزل الملوك والأمراء في خدمته إلى باب النصر، ودخلوا القاهرة رجالة يحملون الغاشية، وقد زينت المدينة أحسن زينة. وشق الملك السعيد القاهرة وأتابكه عز الدين الحلي راكب إلى جانبه. وبسط الأمراء الثياب الأطلس والعتابي وغيرها تحت حوافر فرسه. ولم يزل إلى أن عاد إلى القلعة[١]. وكانت [الثياب][٢] بجملة عظيمة تفرقها المماليك السلطانية وأرباب المنافع.

وكتب له تقليد شريف أنشأه المولى محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر، وقرىء بحضور الأمراء وقاضي القضاة والعلماء في سابع عشر الشهر.

وفي العشر الأول من ذي القعدة من السنة، عرض السلطان الجيش، وكان قبل ذلك رسم بتكملة العدة والتأهب للغزاة فجلس في هذا اليوم على الصفة التي بجانب دار العدل عند طلوع الشمس، وساق كل أمير في طُلْبه، وعليهم لامة الحرب[٣]، وجروا الجنائب عليها عدة الحرب دون غيرها من التشاهير والمراوات المتخذة للزينة. وعبرت العساكر خمسة خمسة. فلما طال الأمر عبروا عشرة عشرة، وهلك الناس من الزحام[٤]. وإنما قصد السلطان عرض العسكر في يوم واحد حتى لا يقال إن أحداً استعار من أحد شيئاً. وكان الناس يدخلون من باب القرافة ويخرجون من جهة الجبل إلى صوب باب النصر إلى الدهليز المضروب هناك. ولما قرب وقت المغرب ركب السلطان وساق في وسط العساكر في جماعة يسيرة من سلاح داريته وخواصه، ونزل إلى الدهليز، ورتب المنازل، ورجع إلى قلعته وقت المغرب، ثم اهتم الناس بعد ذلك باللعب بالقبق[٥]،

---

(١) أي قلعة الجبل. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٦.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك ج ١، ص ٥١٦.

(٣) في السلوك: «وهو لابس لامة حربه». المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١٧.

(٤) وقد زاد صاحب السلوك قائلاً: «. . . منهم أيبك مملوك الأمير عز الدين أيدمر الحلبي. فدفن ثم نبش ودفن في قبر آخر. فقال في ذلك القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

ما نقلوا أيبك من قبره لحادثٍ كلا ولا عن ثبور
لكبه في يوم عرضٍ قضى والمرض لا بد له من نشور

المقريزي: السلوك، ج ١، ص٥١٧.

(٥) القبق أو القباق: لفظ تركي معناه نبات القرعة العسلية. وقد أطلق في العربية على الهدف الذي كان مستعملاً في لعب الرماية، المعروف باسم القبق أيضاً. وكانت طريقة لعب القبق أن ينصب صار طويل من خشب، يكون في رأسه شكل قرعة من ذهب، أو فضة بمثابة هدف، ويكون في القرعة طير حمام. ثم يأتي اللاعبون للمباراة في رمي الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق، وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة له. =

ولبسوا خيولهم التشاهير(١) [والبراسم](٢) البحرية والمراوات(٣) والأهلة الذهب والفضة والأطلس [الخطائي. ونزل السلطان، وجنائبه تجر، فكان منظراً يبهر العيون حسنه. وكان الذي دخل في المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار، وما تجدد بعد ذلك لا يحصى](٤). وساق السلطان إلى ميدان العيد(٥) وبين يديه جنائبه العظيمة، وهي مزينة، حكى القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية قال: قال لي القاضي فتح الدين بن سناء الملك وهو صاحب ديوان الخزائن قبل هذا الوقت بمدة سنة: إن الذي دخل في المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار، وما تجدد بعد ذلك لا يحصى. قال: وشرط السلطان لكل أمير يصيب القبق فرساً من خيوله بما عليه من التشاهير، ولكل مفردي أو مملوك أو جندي خلعة تليق بمثله. ودخل الناس بالرماح بكرة النهار، ثم شفع السلطان ذلك برمي النشاب. وحضر رسل الملك بركة في ذلك الوقت ووقفوا مع السلطان وشاهدوا ذلك واستعظموه، وأقام العسكر كذلك أياماً(٦).

وفي تاسع عشر ذي القعدة خلع السلطان على الملوك والأمراء والبحرية والحجاب والمفاردة وأرباب المناصب من الوزراء والقضاة وأرباب(٧) البيوت. وحظر الناس بالخلع والتشاريف ولعبوا بقية ذلك النهار. فقالت رسل الملك بركة للسلطان:

= Quatremère: op. cit, V 1, p 243, N⁰" 118; Dozy: Supp. Dict. Ar.).

(١) التشاهير: هي الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان. وقد شرحها دوزي بالعبارة الفرنسية التالية: «Les bandes plus ou moins Large, qui srrent La poitrine du cheval». Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) في الأصل (والبراجم) والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٨. والبراسم هي السروج الحربية.

(٣) المراوات: قطع في المعدن أو غيره، يزان بها سرج الحصان. وقد شرحها دوزي بالعبارة الفرنسية التالية: «Des plaques de métal ou autres, qui décoralent le harnais du cheval». Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٨.
والأطلس الخطائي نوع من الحرير، وأصل صناعته في بلاد الخطأ أي شمالي الصين، وكان في زمن ياقوت من مصنوعات تبريز. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج !، ص ٢١٩. Dozy: supp. Dict. Ar.

(٥) ميدان العيد، هو اليوم المنطقة الواقعة بين باب النصر وباب الحسينية. وهي المنطقة التي يخترقها شارع نجم الدين حالياً. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٧، حاشية رقم (١).

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٨ ـ ٥١٩.

(٧) في السلوك: «وذوي» البيوت، ج ١، ص ٥١٩.

«هذه عساكر مصر والشام»؟. فقال: «بل عساكر المدينة خاصة، غير الذين في الثغور، والمجردين والذين [سافروا][١] في إقطاعهم» فعجبوا من ذلك.

ذكر ختان الملك السعيد ومن معه[٢]

قال: وفي عاشر ذي القعدة من السنة رسم السلطان بعمل سماط عظيم، ومد بالقلعة لختان الملك السعيد بن السلطان، فأكل الناس وختن الملك السعيد ثم ختن بعده ابن الأمير عز الدين الحلي [الأتابك][٣] وابن الأمير شمس الدين سنقر [الأشقر][٤] الرومي، وولد الأمير سيف الدين سكر[٥]، وولد الأمير حسام الدين بن بركة خان، وولد الملك المجاهد ابن صاحب الوصل، ثم أولاد الملك المغيث صاحب الكرك الخمسة[٦] وولد فخر الدين الحمصي، وجماعة أخر من أولاد الأمراء. وكان قد تقدم قبل ذلك بكسوة جماعة من الأيتام وأبناء الفقراء بالقاهرة ومصر، فأحضروا إلى القلعة وختنوا. وحمل السلطان عن الأمراء والخواص كلفة التقادم [التي جرت العادة بها للملوك في مثل هذا المهم، فلم يقدّم أحد من الخاصة شيئاً البتة][٧].

ذكر خبر غازية الخنّاقة[٨]

وفي هذه السنة ظهر بخليج القاهرة قتلى، وفقد جماعة من الناس أتهم بهم معارفهم، والتبس أمرهم. ودام ذلك شهوراً، ثم ظهر أن امرأة حسناء وضيئة تسمى غازية كانت تتبرج بزينة فاخرة وتطمع من يراها من الأحداث في نفسها، ومعها امرأة عجوز، فإذا رأت أحداً قد مال إليها تعرضت له وخاطبته في أمرها وقالت: هذه لا يمكنها أن تجتمع بأحد إلا في منزلها خوفاً على نفسها. فمنهم من يحمله الغرض على موافقتها فيتوجه معها، فإذا حصل عندها خرج إليه رجلان فيقتلانه ويأخذن[٩] لباسه وما معه. وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر مخافة الشعور بهم، ثم سكنوا خارج باب

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥١٩.
(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٠٣.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٩.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠.
(٥) (سكر) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠.
(٦) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠ (الثلاثة).
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠.
(٨) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢١.
(٩) في الأصل: «يأخذا بحذف النون».

الشعرية على الخليج، وكان بالقاهرة ماشطة مشهورة فجاءتها العجوز وقالت لها: عندنا امرأة قد زوجناها ونحتاج إلى قماش وحلي تتجمل به بالأجرة على العادة، فأحضري لها ما يمكنك ونحن نزيدك في الأجرة، وواعدتها أن تأتيها ليلاً ففعلت الماشطة ذلك وأتتها ومعها جارية تحمل القماش والمصاغ، فوصلتها الجارية وعادت، فلما دخلت الماشطة قتلت وأخذوا ما معها، ثم جاءت الجارية من الغد وطلبت الماشطة فأنكروها، فتوجهت الجارية إلى متولي المدينة، فجاء وهجم الدار، فوجد فيها الصّبية والعجوز، فأخذهما وقررهما، فأقرّتا على نفسيهما[١] وعلى رجلين آخرين فحبسهما. وجاء أحد الرجلين يتفقد أمرهما في الاعتقال فقبض عليه وعوقب فأقر ودل على رفيقه وعلى رجل[٢] طواب كان يحرق لهم من يقتلونه[٣] في قمين الطوب. فطولع السلطان في أمرهم، فأمر بتسمير الخمسة فسمروا تحت القلعة، وشفع بعض الأمراء في إطلاق المرأة فأطلقت وفكت المسامير فماتت بعد أيام. وهدم عوام القاهرة الدار التي كانوا يسكنونها ويقتلون فيها. وبنيت مسجداً[٤] بمأذنة، وظهر في الدار حفيرة فيها قتلى كثيرة، [فسُمِّروا جميعاً ثم أطلقت المرأة بعد يومين، فأقامت قليلاً وماتت. ثم عملت الدار التي كانوا بها مسجداً وهو المعروف بمسجد الخنّاقة][٥].

ذكر وصول رسل الملك بركة

قد ذكرنا[٦] أن السلطان كان قد جهز الأمير سيف الدين كشريك والفقيه مجد الدين الروذراوري إلى الملك بركة، وأنهما توجها في المحرم سنة إحدى وستين وستمائة[٧]. وذكرنا عود الفقيه مجد الدين للمرض الذي أصابه، فتوجه الأمير سيف الدين ومن معه من المُفُل. وكان اجتماعهم بالأشكري في أنبه، ثم رحلوا إلى القسطنطينية في عشرين يوماً. ومنها إلى اصطنبول[٨]، ومنها إلى دَفْنِسْيا، وهي ساحل

---

(١) في الأصل: «فاقرأ على أنفسهما» بالتذكير.

(٢) في هذه الرواية رجل ثالث. أما في السلوك، ج ١، ص ٥٢١، فلا يوجد رجل ثالث.

(٣) في الأصل: «ما يقتلوه» بالعامية. وقد صحح لأن السياق لا يحتمل الاستعمال العامي في هذه العبارة.

(٤) في الأصل: «مسجدٌ».

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢١، والقصة كلها واردة بكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل ص ١٢٤ ـ ١٢٦، وهي أكثر تفصيلاً.

(٦) راجع ما سبق ذكر إنفاذ الرسل إلى الملك بركة.

(٧) يوافق أولها يوم الأربعاء ١٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٢٦٢.

(٨) هنا يميز النص بين القسطنطينية واصطنبول.

السوادق من جهة الأشكري، ثم ركبوا في البحر إلى البر الآخر ومسيرة ما بين العشرة أيام إلى يومين، ثم طلعوا إلى جبل يعرف بسوادق، فالتقاهم والي تلك الجهة في قرية اسمها القرم[١] يسكنها عدة أجناس من القفجاق والروس واللان. ومن الساحل إلى هذه القرية مسيرة يوم، ثم ساروا من القرم إلى برية يوماً واحداً، فوجدوا بها مقدم عشرة آلاف وهو حاكم على تلك الجهات، ثم ساروا عشرين يوماً في صحراء عامرة بالخركاهات والأغنام إلى بحر إتل، وهو بحر حلو سعته سعة نهر النيل، وفيه مراكب الروس ومنزلة الملك بركة على طول ساحله.

قال: وحملت إليهم الإقامات في طول الطرقات. ولما قاربوا الأردو تلقاهم الوزير شرف الدين القزويني.

ثم حضروا عند الملك بركة، وكانوا قد علموا آدابه التي تعتمد معه، وهي الدخول عليه من جهة اليسار، فإذا أخذت الكتب منهم انتقلوا إلى جهة اليمين، ويكون القعود على الركبتين، ولا يدخل أحد معه إلى خركاته بسيف ولا سكين ولا عدة، ولا يطأ برجله عتبة الخركاه، ولا يقلع الإنسان عدته إلا على الجانب اليسار، ولا يترك القوس في القربان، ولا يخليه موتراً ولا يخط في تركاشه نشاباً، ولا يأكل الثلج، ولا يغسل ثوبه في الأردو.

قال: ووجد الملك بركة في خركاه[٢] تسع وخمسمائة رجل مكسوة لباداً أبيض، مستورة من داخلها بالصندات والخطائي[٣] مرصعة بالجواهر واللؤلؤ، وهو جالس على تخت، وإلى جانبه الخاتون الكبرى، وعنده خمسون أو ستون أميراً[٤] على كراسي الخركاه. ولما دخلوا إليه أمر وزيره بقراءة الكتاب، ثم نقلهم عن اليسار إلى اليمين، وسألهم عن النيل، وقال: «سمعت أن عظماء لابن آدم ممتداً على النيل يعبر الناس عليه»؟ فقالوا: «ما رأينا هذا».

قال: وأخذ قاضي القضاة الذي عنده هذا الكتاب وفسره وبعث به نسخة إلى

---

(١) يتحدث القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٦٩، عن الطريق البحري إلى هذه المناطق ويأتي على ذكر بحر القرم. ولعل الأصح بالفاء، وقد ورد في السلوك ج ١، ص ٧٣٨، أن الظاهر بيبرس أرسل هدايا برسم عمارة جامع قرم، وأمر أن تكتب عليه ألقاب السلطان.

(٢) الخركاة: جمع خركاوات. وهي كالبيت تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة، تغشى بالجوخ ونحوه، وتحمل في السفر لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨. Dozy: Supp. Dict. Ar..

(٣) في الأصل: «والخطاي». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٨.

(٤) في الأصل: «أمرا». والتصحيح يقتضيه السياق.

القان[1]. وقرىء كتاب السلطان بالتركي على من عنده، ففرحوا به. وأعادوا الرسل بجوابه، وسير معهم رسله، فكان وصولهم في ذي القعدة من هذه السنة.

ذكر توجه السلطان إلى الإسكندرية وتقديم سيف الدين عطاء الله على عرب برقة[2]

قال: ولما فرغ السلطان من هذا المهم توجه إلى ثغر الإسكندرية متصيداً، فعدّي في ذي القعدة من السنة وسار إلى تروجة[3]، ومنها إلى الحمامات، وسار إلى منزلة الكرش بالقرب من العقبة الصغرى، وضرب حلفة هناك، ووصلت المسيرة إلى قرب العقبة الصغرى، وعَيَّد عيد الأضحى، وصلى صلاة العيد، ونحر الأضاحي، وبلغه أن بعض العربان قد عصوا في البراري، فجرد إليهم جماعة، وحضر جماعة من عرب هوارة وعرب سليم فكتب عليهم الحجج بعمارة البلاد، وألا يقربوا أحداً من العربان العصاة[4].

وعاد السلطان إلى الإسكندرية، وصلى في الجامع الغربي[5]، ولعب الكرة بميدانها. وزار الشيخ الشاطبي[6]، ورجع إلى القاهرة فلما وصل إلى تروجة رسم بتقديم سيف الدين عطاء الله بن عزار على عرب برقة، وتحدث معه في أمر العربان وكونهم ينتفعون من مصر بأثمان الخيول المحلوية والأغنام، وأنهم يستنتجون الأغنام ويزرعون ولا يقومون بحق الله. فالتزم المذكور بحفظ البلاد واستخراج الزكاة من

---

(١) القان: لقب أطلق على رؤساء الترك في القرن السابع الميلادي. ومعناه رئيس الرؤساء. وقد استعمل الترك لقب قان أو خان أيضاً، بمعنى قاغان. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ٢١ Encyclopaedia of islam: Art khàkan, Khàn..

(٢) برقة: اسم صُقْع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها انطابلس، وتفسيره الخمس مدن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٣) تروجة: قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الاسكندرية. وهي حالياً موضع خرب يقع اليوم جنوبي غربي دمنهور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٢٠.

(٥) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص٣٦١.

(٦) هو محمد بن سليمان بن محمد المعافري، أبو عبد الله الشاطبي. عالم بالقراءات. مولده بشاطبة. تفقه وروى الحديث في الأندلس والشام والحجاز ومصر. وانقطع للعبادة في الاسكندرية فتوفي فيها سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٤ م. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٤٣، ٢٤٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٢٨. وفيه: «توفي سنة ٦٧٣ ودفن بمرج سوار».

العربان. وأنعم عليه السلطان بسنجق[١] ونقارات[٢]، وتوجه [لحفظ البلاد واستخراج الزكاة والعشور من العربان ببرقة][٣].

قال: ولما وصل السلطان من الإسكندرية وصل شِحْنَة[٤] تكريت[٥] ومعه جماعة فأحسن إليهم.

ذكر الواقعة الكائنة بين المسلمين والفرنج ببلاد الأندلس - وانتصار المسلمين

كانت هذه الواقعة في سنة اثنتين وستين وستمائة. وورد الخبر بها إلى الديار المصرية في سنة ثلاث وستين بمقتضى كتاب ورد في جمادى الآخرة يتضمن انتصار المسلمين على الفرنج. وأمير المسلمين وسلطانهم يومئذ أبو عبد الله بن الأحمر[٦] وكان ألفنش ملك الفرنج قد طلب منه الساحل من طريف إلى الجزيرة، ومالقة إلى المرية، وحضر بمجموعة، فاجتمع المسلمون ولقوهم واقتتلوا، فانهزم الفرنج مراراً، وأخذ أخو الفنش أسيراً. ثم اجتمع الفرنج في جموع كثيرة ونزلوا على غرناطة[٧] فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة، وجمعوا من رؤوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس، وجعلت تلاً، وأذن المسلمون فوقه. وأسر من الفرنج عشرة آلاف. وذلك في يوم

---

(١) في الأصل: «بصنجق» والتصحيح يقتضيه السياق. والسنجق، لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح، والجمع سناجق، وهي رايات صفر صغار يحملها السنجقدار. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨، ج ٥، ص ٤٥٦، ٤٥٨.

(٢) النقارات: واحدتها نقارة، وهي من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة. وكانت تحمل على عشرين بغلاً، على كل بغل ثلاث، وتسير في الموكب اثنتين اثنتين. وكانت النقارات تحمل في ركاب السلاطين إلى الحرب فتستخدم في إصدار الأوامر، وفي الإيذان ببدء القتال. القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧١.Dozy: Supp. Dict. Ar. .

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠.

(٤) الشحنة: وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة، وهو رئيس الشرطة والموكّل بالأمن في بلدٍ من البلاد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٦٢.Dozy: Supp. Dict. Ar. .

(٥) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل. وهي غربي دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨ - ٣٩.

(٦) هو محمد بن يوسف بن محمد، أبو عبد الله. أمير المسلمين. لقب بالغالب بالله. مؤسس دولة بني الأحمر في الأندلس، وتوفي بالدولة النصرية. توفي سنة ٦٧١ هـ/ ١٢٧٣ م. ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ١٧٠، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠، ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٥٩.

(٧) في الأصل: «أغرناطة».

الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة، وانهزم ألفنش إلى إشبيلية، وكان قد دفن أباه بجامعها فأخرجه من قبره، خوفاً من استيلاء المسلمين عليها وحمله إلى طليطلة، واستعاد المسلمون من الفرنج اثنتين وثلاثين بلداً[١] من جملتها إشبيلية ومرسية وشريش وغير ذلك.

وفي هذه السنة كانت وفاة الأمير حسام الدين لاجين العزيزي الجوكندار بدمشق، ودفن بسفح قاسيون، وقيل إنه سم، وإن مملوكه جمال الدين أيدغدي واطأ عليه. وكان شجاعاً كريماً متواضعاً يحب الفقراء ويكرمهم ويتولى خدمتهم بنفسه، رحمه الله تعالى.

ذكر مقتل الزين الحافظي[٢]

وفي أواخر سنة اثنتين وستين وستمائة، أحضر هولاكو زين الدين أبا المؤيد سليمان بن عامر العقرباني، المعروف بالحافظي، وقال له ما معناه: قد ثبت عندي خيانتك وتلاعبك بالدول، وأنك خدمت صاحب بعلبك طبيباً، فخنته، واتفقت مع غلمانه على قتله. ثم انتقلت إلى خدمة الملك الحافظ الذي عرفت به ونسبت إليه، فلم تلبث أن خنته، وباطنت الملك الناصر حتى أخرجت قلعة جعبر عن يد مخدومك، ثم انتقلت إلى خدمة الملك الناصر فخنته معي، ثم انتقلت إليّ، فأحسنت إليك إحساناً لم يخطر ببالك أن تصل إلى بعضه مني، وقد شرعت تعاملني بما عاملت به الملك الناصر. وعدد له ذنوباً أخر من خيانته في الأموال التي كانت قد ندبه لاستخراجها من البلاد، وأمر بقتله هو وأهله، فقتل هو وأخوته وأولاده وأقاربه ومن يلوذ بهم، وكانوا نحو الخمسين لم ينج منهم إلا ولده مجير الدين محمد وولد أخيه اختفى بالسوق، وقيل إن السلطان الملك الظاهر تسبب في قتله، فإنه أحسن إلى أخيه عماد الدين أحمد، ورتب له راتباً كبيراً، وأمره بمكاتبة أخيه واستدعائه، وأنه إذا وصل كان له ما يقترحه، بشرط المواطأة على هولاكو وإفساد من يقدر على إفساده منهم. فلما وصلت إليه الكتب حملها إلى هولاكو وقال: إن صاحب مصر إنما يكاتبني بمثل هذا لتقع الكتب في يدك فتقتلني، وقد عزمت على أن أكاتب الأمراء القائمين بدولته والأعيان، وأكيده كما كادني. فأبى[٣] هولاكو ذلك، فلم يزل يراجعه حتى أذن له. فكاتب جماعة فعلم السلطان أنها مكيدة، فكتب إليه يشكره على عرض الكتب على هولاكو،

---

(١) في الأصل: «بلد».

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٣٢.

(٣) فأبا: هكذا بالأصل، وهو خطأ واضح.

ويستصوب رأيه في عرضها لتزول التهمة عنه، وأمر القصاد أنهم إذا وصلوا إلى شط جزيرة ابن عمر يتجردوا من ثيابهم ويتجيلوا في إخفاء أنفسهم ليظن أنهم قصدوا السباحة فغرقوا، ففعلوا ذلك. وجاء نواب التتار فوجدوا الثياب فأخذوها وجهزوا الكتب إلى هولاكو فقرأها، وكان ذلك من أسباب قتله، والله تعالى أعلم.

واستهلت سنة ثلاث وستين وستمائة[١]

في المحرم منها، وصل الأمير جمال الدين سكز[٢] بن الدوادار، وكان أبوه المجاهد دوادار الخليفة ببغداد، وكانت له نعمة عظيمة، فأحسن إليه السلطان وأمره بطبلخاناه.

وفي صفر من السنة، وقف السلطان الخان بالقدس الشريف، وقرىء كتاب وقفه بحضور السلطان وقاضي القضاة تاج الدين.

ووقف اسطبلين تحت القلعة يعرف أحدهما بجوهر النوبي، وحبسهما على وجوه البر.

وفيها في العشر الآخر من المحرم، أنهى إلى السلطان أن جماعة من الأمراء والأجناد اجتمعوا في دار على أكل ططماج وجرى بينهم كلام كثير أفض إلى الغض من الدولة، فاتصل ذلك بالسلطان وعين له ثلاثة نفراً وسعوا في الكلام في ذلك فأمر بتسميرهم، فسمر أحدهم، وكحل الثاني، وقطعت رجل الثالث. وأفرج عن بقيتهم، وأمر ألا يجتمَع أميران في مكان؛ وألا تعمل وليمة ولا ضيافة عن غير موجب، فحسمت مادة الاجتماعات.

وفي صفر ورد كتاب الأمير عز الدين أيدمر النائب بالكرك أنه رتب راتب الأسمطة والضيافة بحرم الخليل عليه الصلاة والسلام للوافدين، وكان ذلك قد قطع من مدة طويلة.

وفيها في تاسع عشر شهر ربيع الأول قطع السلطان أيدي جماعة من نواب متولي القاهرة والخفراء وأصحاب الأرباع والمقدمين، وكانوا ثلاثة وأربعين رجلاً[٣]، وكان سبب ذلك على ما حكاه الصاحب عز الدين بن شداد، ظهور شلوح ومناسر بالقاهرة وضواحيها ينهبون ويقتلون حتى تعرضوا للعربان الذين تحت القلعة، فارتفعت أصواتهم

---

(١) يوافق أولها يوم الجمعة، ٢٤ أوكتوبر/تشرين الثاني ١٢٦٤ م.
(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٤ «يشكر».
(٣) انظر السلوك، ج ١، ص ٥٤٠.

حتى سمعها السلطان وسأل عن خبرهم فأخبر بصورة الحال، فلما أصبح أتته ورقة الصباح وليس فيها ذكر هذه الحادثة، فأنكر على متولي القاهرة، فاعتذر أن نوابه لم يطالعوه بها، فأمر السلطان بقطع أيديهم فمات بعضهم وسلم البعض.

وحكى غيره، عن الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، أن السلطان خرج ليلة متنكراً وجعل يطوف أزقة القاهرة، وكان يفعل ذلك ويتفقد أمور الناس وأحوالهم ويسمع من ألفاظهم ما لا ينقل إليه، فمر في بعض أزقة المدينة فوجد بعض مقدمي[١] الوالي قد أمسك امرأة وهو يتهددها، وهي تقول له: اتق الله، والله ما أفعل هذا [إلا][٢] من حاجة وأنت تعلم أن عندي خمسة أيتام. فقال: أنا ما أعرف هذا، ولا بد أفعل وأصنع. فقالت له تقدم عني ناحية. وخلعت لباسها وناولته إياه، وقالت: والله ما أمسك سواه فأخذه وأطلقها. فعرفه السلطان ثم لم تكن له همة إلا أن جمعهم وقطع أيديهم، وشاهد فيمن قطع، ذلك المقدم بعينه.

وفي هذه السنة توجه السلطان إلى الصيد بجهة العباسة، وذلك بعد عوده من ثغر الإسكندرية، فرمى البندق، وأصرع جماعة وادعوا[٣] للسلطان[٤]، ومن جملتهم الملك العزيز فخر الدين عثمان ابن[٥] الملك المغيث صاحب الكرك.

وتوجه السلطان من العباسة إلى قلعة الجبل فأقام ليلة واحدة، وجهز العساكر، ثم توجه هو بعدها إلى الشام وصرع بشراً بالقرب من رأس الماء، وذلك في ثالث شهر ربيع الأول. وكان سبب توجهه ما بلغه من محاصرة التتار البيرة[٦] وكان في هذه السفرة من الغزوات والفتوحات ما نذكره، إن شاء الله تعالى في موضعه.

وفي هذه السنة رسم السلطان بتبطيل المزر بالديار المصرية وأن تخرب البيوت

---

(١) في الأصل: «مقدمين» والتصويب مما يقتضيه النحو.

(٢) في الأصل: «ما» والتصويب مما يقتضيه تركيب الجملة.

(٣) المعنى المقصود هنا «ادعى له». والظاهر أن الأمير فخر الدين عثمان، انتسب إليه واعتبره استاذه في الصيد. ذلك أن العادة في دوائر الصيد كانت في تلك الأزمنة، أن المبتدىء لا يصير في زمرة هواة هذا الفن إلا بعد الانتساب لأحد رماة الصيد القدماء، فإذا تم له ذلك قيل إنه ادعى لفلان - أي انتسب إليه. وكانت وسيلة «الادعاء» هذه، أن ينجح المبتدىء في إصابة رميته من طير أو غيره، وعند ذلك يختار الانتساب إلى من يشاء من رجال الصيد المعروفين، سلطاناً كان أو أميراً أو فقيهاً أو عامياً، انظر في ذلك: Quatremère: op. cit, V 1, p.75. N°" 88.

(٤) السلطان هنا هو الظاهر بيبرس.

(٥) في الأصل: «بن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٣.

التي يعمل فيها وتكسر مواعينه ويسقط من الديوان ارتفاعه، ورسم بتعويض المقطعين عنه، وكتب بذلك إلى الأمير عز الدين الحلي فأبطلها[١].

ولما فتح السلطان في هذه السفرة ما نذكره من بلاد الفرنج عاد إلى مقر ملكه، وكان رحيله من أرسوف[٢] في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة، ودخوله إلى القاهرة في يوم الخميس حادي عشر شعبان من السنة، وشق المدينة والأسارى بين يديه، وعم الناس بالخلع والإنعام، من الأمراء والوزراء والمقدمين والمفاردة والخواص حتى البرددارية[٣] وجميع الحاشية، وتصدق بجملة عظيمة من الدراهم والغلال على الفقراء، وفرق كساوي بالجوامع.

ذكر خبر الحريق بالقاهرة ومصر واتهام أهل الذمة وما قرره عليهم من الأموال بسببه[٤]

وفي هذه السنة في جمادى الآخرة، وقعت نار بحارة الباطلية بالقاهرة، فأحرقت ثلاثاً وستين داراً جامعة. ثم كثر الحريق بعد ذلك بمصر حتى احترق من رباعها المشهورة ربع فرح، وكان وقفاً على الأشراف بالمدينة، وأكثر ربع العادل وغير ذلك. وكانت توجد لفايف من المشاق والكبريت والأصناف النفطية على الأسطحة. وشاع الخبر أن النصارى يفعلون ذلك لأجل ما فعله السلطان ببلاد الفرنج من إحراق الكنائس. فجمع السلطان عند عوده من الشام النصارى واليهود، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهودهم، وأمر بتحريقهم. فجمع منهم عالم كثير تحت القلعة وأحضرت الأحطاب والحَلْفَاء[٥]. فسأل أهل الذمة مراحم السلطان، فقرر عليهم حمل خمسمائة ألف دينار[٦] إلى بيت مال المسلمين، والتزم بتوزيعها واستخراجها بطرك[٧]

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٢٥.

(٢) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قَيْسارية ويافا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٣) البردار: هو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة، متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه. وأصله فرادار، وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما فردا ومعناه: الستارة، والثاني: دار، ومعناه ممسك، والمراد ممسك الستارة، وكأنه في أول الوضع كان يقف بباب الستارة، ثم نقل إلى الديوان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٨ - ٤٦٩.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥.

(٥) في الأصل: «والحلفا» والتصحيح في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥، س ٧.

(٦) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥ «. . . خمسين ألف دينار».

(٧) كان بطرك النصارى في تلك السنة أثناسيوس الثالث. انظر Butcher: the story of the church of Egypt. V 1. p XIV, V 2. P 165.

النصارى، والتزموا أنهم لا يعودون إلى شيء مما كانوا يعتمدونه من المنكرات، ولا يخرجون عن الذمة وشرطها وحمل المال المقرر شيئاً بعد شيء.

وفي هذه السنة، اعتقل السلطان الأمير نور الدين زامل بن علي(١)، وكان قد حصل منه إساءات وفتن مرة بعد أخرى، وقبض السلطان عليه ثم أطلقه وأصلح بينه وبين الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، والأمير أحمد بن حجي، والأمير هارون، وحلفهم، وأعاد إقطاع زامل إليه وإمرته. فلما توجه لم يتأن إلى أن يصل البلاد بل ساق من أوائل الرمل [وهجم على بيوت عيسى](٢) وأفسد، وأمسك قصاد السلطان ومملوك الأتابك المتوجه إلى شيراز، وأخذ منهم الكتب، وتقرب بها إلى هولاكو، وتوجه إليه وأطمعه في البلاد فأعطاه إقطاعاً في العراق. وتوجه [زامل](٣) إلى الحجاز فنهب وقتل وانتهك حرمة الأشراف، [وحضر إلى أوائل الشام](٤)، وكان السلطان قد أعطى إقطاعه وإمرته لأخيه أبي بكر، فراسل زامل السلطان في طلب العفو، فتقرر حضوره في وقت معلوم وأنه متى تأخر عنه ليس له عهد ولا أيمان، فتأخر عن المدة المعينة، ثم وصل فاعتقله السلطان.

وفيها: حضر إلى السلطان نعجة قد ولدت خروفاً على صورة الفيل له خرطوم طويل وأنياب وإلية خروف.

وفيها: جهز السلطان الأخشاب والحديد والرصاص والآلات والصناع(٥)، فكانوا ثلاثة وخمسين رجلاً لإتمام عمارة الحرم الشريف النبوي. وأنفق فيهم الأموال وجهز معهم المئونة، وندب لذلك الطواشي شهاب الدين محسن الصالحي(٦)، ورضي الدين أبا بكر، والأمير شهاب الدين غازي بن فضل اليغموري مشداً، ومحيي الدين أحمد بن أبي الحسين بن تمام طبيباً إلى البيمارستان الذي بالمدينة، ومعه أدوية وأشربة ومعاجين ومراهم وسكر لأجل من يعتريه من الجماعة مرض. وكان خروجهم من القاهرة في سابع عشر شهر رجب. ووصلوا إلى المدينة في ثاني شوال. واستمر العمل في العمارة إلى سنة سبع وستين وستمائة. وكان السلطان يمدهم بما يحتاجون إليه من النفقات والآلات.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٦.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٦: «وعاد إلى الشام».
(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٢، مع ملاحظة اختلاف التوقيت والتفصيل.
(٦) يرد اسمه مسافراً مع كسوة الكعبة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٢، س ١٩ ـ ٢٠.

وفيها: توجه السلطان إلى بحر أشموم، وغرق عدة مراكب لإصلاحه، وتولى الحفر بنفسه، وشاهد الناس على كتفه قفّة مملوءة تراباً. فلم يبق أحد من الأمراء وغيرهم إلا بادر وفعل مثل ذلك. فتنجز ذلك في ثمانية أيام، وذلك في شوال من السنة.

وفي حادي عشرين الشهر رسم السلطان بإبطال حراسة النهار، وكانت جملة مستكثرة وكتبت التواقيع بإبطالها.

وفي الشهر قرئ مكتوب بجامع إشموم بمسامحة الأعمال الدقهلية والمرتاحية بأربعة وعشرين ألف درهم عن رسوم الولاية والمال المستخرج برسم النقيدي[١].

وفيه توجه شجاع الدين بن الداية الحاجب رسولاً إلى الملك بركة[٢]، في كف غارات الملك بركة عن بلاد الأشكري حسب سؤاله في ذلك، وسير معه ثلاث عُمَر اعتمر بها بمكة للملك بركة [عُمِلت في أوراق مذهبة][٣] وسير معه قمقمان من ماء زمزم، ودهن بلسان وغير ذلك.

وفي ذي القعدة وصل الأمير جمال الدين النجيبي نائب السلطنة بالشام فتحدث السلطان معه في مهمات، وكتب على يده تذكرة[٤]، وعاد في ذي الحجة.

ذكر تفويض القضاة لأربعة حكام[٥]

في ذي القعدة سنة ثلاث وستين وستمائة فوض السلطان القضاء بالقاهرة والديار المصرية لأربعة قضاة، لكل مذهب قاضٍ. وسبب ذلك أن الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي كان يكره قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ويغض منه عند السلطان لتثبته في أحكامه وتأنيه[٦] واحترازه، فاتفق أن السلطان جلس بدار العدل فقدمت له

---

(١) النقيدي: موضع قرب فم خليج الاسكندرية. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٨، حاشية رقم (٥).

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٣٨.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١١٧.

(٤) تذكرة: جمع تذاكر. وهي كما يدل معناها اللفظي، كل مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه بالأقاليم المصرية ونيابات الشام، أو إلى قصاده الذين يرسلهم في مهام الدولة، لتذكرتهم بتفاصيل ما يوكل إليهم، وليكون بمثابة ورقة اعتماد وحجة عند الجهات التي يقصدونها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٧٩ ـ ١٠٤. وانظر: Demombynes: Op. cit, introd. p. LXX.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٨، ٥٤٢. وكذلك النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٢١.

(٦) في الأصل: «ونائبه». والتصحيح يقتضيه السياق.

قصة من بيت الملك الناصر تتضمن أنهم ابتاعوا داراً من القاضي بدر الدين السنجاري وأن ورثته بعد وفاته ادعوا أنها وقفت قبل ذلك، فأخذ الأمير جمال الدين أيدغدي ينتقص المتعممين فقال السلطان للقاضي تاج الدين: «هكذا تكون القضاة»؟. فأجابه بالآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١]. قال: «فكيف العمل في هذا»؟. قال: «إذا ثبت الوقف يستعاد الثمن من الورثة من مال مورثهم». فقال السلطان: «فإن عجزوا عن الثمن»؟ قال: «الوقف باقٍ على أصله». فامتعض السلطان لذلك، فلم يتم الكلام حتى تقدم رسول صاحب المدينة النبوية وقال: «حملت كتاب السلطان إلى قاضي القضاة أن يسلم إلي المال الذي تحت يده من الوقف، لأنفقه في فقراء أهل المدينة، فلم يفعل». فسأل السلطان القاضي عن ذلك. فقال: «صدق هذا الرجل، أنا لا أعرفه، ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه وأثق بدينه وأمانته، فإن تسلمه أحضرته بين يديه». فقال السلطان: «تخرجه[٢] من عنقك وتجعله في عنقي، لا تسلم المال إلا لمن تختاره وترضاه». وتقدم بعض الأمراء في المجلس وشكى من القاضي تاج الدين في قضية أخرى هي [شهادة][٣] لم يثبتها لبعض أولاد خوشداشيته، فقال القاضي: «لم تأتني بينة»[٤]. فقال الأمير: حضرت البينة فلم تسمعها. فسأله السلطان عن امتناعه من سماع البينة. قال: «لا حاجة إلى ذكر الجواب». فقال الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي للقاضي نحن نترك مذهب الشافعي لك ويولي السلطان من كل مذهب قاضياً[٥]، فرجع السلطان إلى قوله، وفوض النظر في الأحكام والقضايا إلى حكام أربعة[٦] وهم: قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب المشار إليه، قاضي الشافعية. والشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي، قاضي المالكية، والقاضي صدر الدين سليمان [ابن أبي العز بن وُهيب الأذرعي][٧]، قاضي الحنفية والشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسي، قاضي الحنابلة. وجعل لهم السلطان أن يولوا في الأعمال نواباً عنهم. وخص قاضي القضاة، تاج الدين الشافعي، بالنظر في أموال

(١) سورة فاطر، من الآية ١٨ وتتمتها: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩ «تنزعه».

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩ للتوضيح.

(٤) في الأصل: «لم تأتيني» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) في الأصل: «قاصد» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٢٢.

(٧) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩.

الأيتام والأوقاف بمفرده بالديار المصرية، بتقليد سلطاني نسخته بعد البسملة، ومثال العلامة السلطانية بين السطرين المستعلي بالله[١].

«الحمد لله مجرد سيف الحق لمن اعتدى، وموسع مجاله لمن راح إليه وأغتدى، وموضح طريقه لمن اقتاد به واقتدى، ومزين سمائه بنجوم تستمد الأنوار من شمس الهدى، الذي أعذب لشرعة الشريعة المحمدية ينبوعاً، وأقامها أصلاً مد بثمار الرشد فروعاً، نحمده على نعمة التي ألزمتنا التشييد [في][٢] مباني الإنصاف شروعاً». «ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نعمر بها من القلوب والأفواه ربوعاً. ونصلي على سيدنا محمد الذي بعثه الله إلى العالم جميعاً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاة يناجي القائل بها بصيراً سميعاً».

«وبعد: فإن أحق من استوعبت كليات المحامد له بالتبعيض، وطافت الممادح من كعبة العلم بركن منه طواف المفرض لأطواف المفيض وخلد له إرضاء الأحكام وإمضاء التفويض، وريش جناحه وإن لم يك بالمهيض، وفسح مجاله وإن كان الطويل العريض، ورفع قدره على الأقدار، وتقسمت من سحائبه الأنواء، ومن أشعته الأنوار، ووغزر مدّه فجرت منه في رياض الرشد الأنهار، وغدا تخشع لتقواه القلوب، وتنصب لفتواه الأسماع وترنو لمحياه الإبصار، من أوفد من إرشاده للأمة وللأئمة لطفاً فلطفاً، وأوقد من علمه جذوة لا تخبو، ومن عدله قبساً بالهوى لا يطفأ، وفات النظراء والنظار فلا يرسل أحد معه طرفاً، ولا يمد إليه حياء منه طرفاً، وقد جاز واحتوى من العلوم على ما تفرق في غيره وغدا[٣] خير دليل إلى الحق، فلا يقتدي في المشكلات إلا برأي اجتهاده، ولا يهتدي في المذاهب إلا بسيره، وأصبح لفلك الشريعة المحمدية قطباً، ولجثمانها قلباً ولسوارها قلباً، وأضحى لدليلها برهاناً، ولإنسانها عيناً، ولعينها إنساناً، فكم أرضى بعدله وفضله بنى الأيام عن الأيام، وكم أغضى مع قدرته على الانتقام، وكم أمضى حكماً لا انفصال لعروته ولا انفصام، وكم أفضى بالجور إلى ماله وبالعدل إلى الأيتام، فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعديه، ولم يداجه لكونه يستر عليه تعبده في دياجيه، فهو الحاكم بالحق ولو على نفسه، والمسترد الحقوق الذاهبة حتى لغده من يومه وليومه من أمسه».

«ولما كان المجلس السامي القضائي الإمامي، العالمي العاملي، الأشرف

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في الأصل: «وهذا» ذلك أن الجملة هنا تحتاج إلى فعل لا إلى اسم إشارة.

الزاهدي الأثيري الماجدي الذخيري الأفضلي الجلالي التاجي، حجة الإسلام، شرف الأنام، مجد الأمة، فخر الأئمة، صدر الشريعة مقتدي الفرق، رئيس الأصحاب، لسان الحق، ذخر الملوك والسلاطين، ولي أمير المؤمنين، قاضي القضاة، عبد الوهاب ابن[١] القاضي الأجل الأوحد الأعز أبي القاسم خلف، حرس الله جلاله، ممن هو في أحسن هذه السمات يتصور، وله أنوار بركات تعدّ ونجوم السماء بها تتكثر، وقد تجوهر بالعلوم فأصبح التاج المجوهر، وله مزايا السؤدد التي لا يشك فيها ولا يرتاب، وسجايا الديانة التي إذا دخل غيره إليها من باب واحد دخل هو إليها من عدة أبواب، وهو شجرة الأحكام ومصعد كلم الحكام، ومطلع أنجم شرائع الإسلام، ومهبط وحي التقدمات والارتسام وعكاظ قضايا الحلال والحرام».

«خرج الأمر العالي المولوي السلطاني المالكي الظاهري الركني، لا زال ماضياً وبالسداد قاضياً: بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصرية فليحكم جميعها بما أراه الله من مذهب الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، وأموال اليتامى على اختلاف أجناسها هي ودائع الأموات، وذخائر كل ممنوع من التصرفات، وقد أوصى الله بها، وأوسع المتعدي عليها إنكاراً وتحذيراً، وخوف من أكلها ظلماً، فقال جل وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء: ١٠]». وقد رأينا أن نخصص المجلس السامي بالنظر في جميع أمورها وإذ قد غدت ذخر كل منقطع فنجعله من ذخرها، فلينظر[٢] في جميع أموال الأيتام على اختلاف أجناسها بالقاهرة ومصر المحروستين والديار المصرية بمفرده وبمن يستنيبه عنه، وليحطها بنظره، ويضبطها بحسن تأثيره وأثره، وكذلك ما يختص بمذهبه من الجوامع والمناصب والمساجد والربط والتصديرات والأوقاف، ينظر في جميعها ويولي في أصولها وفروعها، والأوقاف العامة من الصدقات وغيرها، ينظر فيها بنفسه وبنوابه، حافظاً لأمورها وملاحظاً لتدبيرها، ومجتهداً في صلاحها وتثميرها، وليستصحب من ذلك ما هو ملي باستصحابه، وليستمر على إقامة منار الحق الذي هو موثق عراء ومؤكد أسبابه، عالماً بأن كل إنارة أضأتها من قبسه وأن استضأنا بها في دياجي المنى، وكل ثمرة من مغترسه وإن مددنا إليها يد الاجتنا، وكل جدول هو من بحره وإن بسطت إليه راحة الاغتراف وكل منهج هو من جادته وإن ثنيت إليه أعنة الاستطلاع للإفادة والاستكشاف وهو بحمد الله

---

(١) في الأصل: «بن».
(٢) في الأصل: «فينظر». والتصحيح يقتضيه السياق.

المجتهد المصيب، والمادة للعناصر وإن كان يصيبه منها أوفر تصيب، والصادق الذي ينبىء بالحق إذا وامرته[١] المراسيم، ولا ينبؤك مثل خبير، ووصاياه منها يسترشد، فلا يفاوض فيها، ومنه تتعلم فلا نكرر عليه ما يستفاد منه من معانيها، والله تعالى يسد بأحكامه الذريعة، ويحمي به حمى الشريعة إن شاء الله تعالى، وكتب في ثامن وعشرين ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة بالإشارة العالية المولوية الأتابكية الفارسية وأعزها الله، الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه».

ولما فوض السلطان القضاء بالديار المصرية لحكام أربعة، فعل مثل ذلك بدمشق[٢]، وجهز التقاليد إلى الحكام الذين وقع الاختيار عليهم، وهم: القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان الشافعي، على عادته، والشيخ زين الدين عبد السلام الزواوي المالكي قاضي المالكية، والقاضي شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعي الحنفي قاضي الحنفية، والشيخ شمس الدين عبد الرحمٰن ابن الشيخ أبي عمر الحنبلي قاضي الحنابلة، ووصلت تقاليدهم بذلك في سادس جمادى الأول سنة أربع وستين وستمائة، فامتنع المالكي والحنبلي من قبول الولاية والدخول في باب القضاء، فطولع السلطان بذلك، فورد جوابه بإلزامهما، وأنهما إن استقرا على الامتناع وصمما عليه يعزلا عما بأيديهما من المناصب ويخرجا من بلاد السلطان، فقبلا الولاية، وامتنعا من قبول المعلوم المقرر للقضاة وقالا: «نحن في كفاية عن قبول المعلوم».

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأقرع

وفي ذي الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة، قبض السلطان على الأمير شمس الدين سنقر الأقرع، وسبب ذلك أن رسول الملك بركة أحضر معه رجلاً ادعى أنه الملك الأشرف ابن[٣] الملك المظفّر شهاب الدين غازي، فطلب السلطان من يشهد له بصحة ذلك. فشهد له المذكور، فبحث السلطان عن أمره، فوجد الأمير شمس الدين المشار إليه بعث إليه واستدعاه من عند الملك بركة لغرض كان في نفسه، فقبض السلطان عليه واعتقله، واعتقل من شهد له بخزانة البنود.

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الرومي[٤] وذنوبه السالفة

وفي رابع وعشرين ذي الحجة من السنة، أمسك السلطان الأمير شمس الدين

(١) هكذا في الأصل. وامرتيه. والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٢.
(٣) في الأصل: «بن».
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٠.

سنقر الرومي. وسبب ذلك؛ أنه كان له مملوك جميل الصورة، فبلغه أن السلطان ربما تعرض إليه يفعل، فغضب لذلك، وشفع السلطان عنده فيه فلم يقبل شفاعته، وضربه وحمى سفوداً من الحديد وجعله في دبره فمات، فطلبه السلطان من وقته وأعتقله. وأما ذنوبه السالفة فإنه كان جمدار الملك الصالح، وكان مؤاخي الملك الظاهر لما كانا في الخدمة الصالحية وبينهما صداقة، ولما كان من أمر البحرية ما قدمناه، كانا جميعاً وكان الملك الظاهر يتفقده بالمال والقماش، ولما قتل الملك المظفّر لم يكن شمس الدين حاضراً، وأعطاه السلطان الإقطاعات العظيمة فصار يخلو بجماعة بعد جماعة ويفرق عليهم المال الذي ينعم به السلطان عليه، فاتصل ذلك بالسلطان فأرسل إليه يحذره مع خوشداشيته، فلم يفد ذلك شيئاً، وبقي ذلك في خاطر السلطان، فلما قتل الآن مملوكه وقبض عليه أرسل يقول: «أشتهي أعرف ذنبي»، فسير السلطان إليه من عدد ذنوبه، فتحسر وقال: «آه، لو كنت حاضراً قتل الملك المظفّر حتى أعاند السلطان في الذي جرى». وكان قد تكلم بهذا الكلام وشافه السلطان به في حال إحسانه إليه، واستمر في الاعتقال إلى أن توفي، وكانت وفاته في يوم الأحد عاشر جمادى الأول سنة ست وسبعين وستمائة.

ذكر وفاة قاضي القضاة بدر الدين السنجاري وشيء من أخباره[1]

وفي هذه السنة في يوم السبت رابع عشر شهر رجب: كانت وفاة قاضي القضاة بدر الدين أبي المحاسن يوسف بن الحسن بن علي بن الخضر السنجاري الشافعي، رحمه الله تعالى، فجأة، وكان قد أكل بطيخاً أصفر وسلنجنينيا[2] عقب خروجه من الحمام. ودفن في يوم الأحد بمدرسته بالقرافة بجوار تربة الإمام الشافعي، وصلى عليه قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز. ومولده بسواد إربل في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وكان قاضياً بسنجار، وكان له على السلطان الملك الصالح من الخدمة بسنجار ما قدمنا ذكره، فلما ملك الملك الصالح دمشق كما تقدم، ولاه قضاء بعلبك وأعمالها وقرر له معلوماً كثيراً، وكان قد وصل في صحبته، ولما ملك الديار المصرية حضر إليه فأكرمه، وفوض إليه القضاء بمصر والوجه القبلي، ثم بالقاهرة والوجه البحري كما تقدم ذكر ذلك. وولي الوزارة كما تقدم أيضاً في أيام

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢١٩، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣١٣.

(٢) المقصود نوع من المأكولات أو الحلويات. ولم أستطع قراءة اسمه أو التعرف عليه. ومن الممكن قراءة اللام كافاً، حسب عادة الناسخ في النسخ.

الملك المنصور نور الدين ابن[١] الملك المعز، وكان، رحمه الله تعالى، مكيناً عند السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الأمير فخر الدين ابن[٢] الشيخ يكرهه، فكتب إلى السلطان الملك الصالح يذكر عنه أنه يأخذ من نوابه الأموال، ومن يعدله من الشهود، وأشباه ذلك، فأجابه السلطان في طرة كتابه: «يا أخي فخر الدين: للقاضي بدر الدين عليَّ حقوق عظيمة لا أقوم بشكرها، والذي وليناه قليل في حقه، وما قمت له بما يجب على من مكافأته». فلم يعاوده الأمير فخر الدين في أمره، وبقيت هذه الورقة عنده في جملة أوراقه، فلما قتل وخلف بنتاً صغيرة، احتاط ديوان الأيتام على موجوده فوجدوا هذه الورقة فحملوها إلى القاضي بدر الدين، فأوقف الناس عليها، وكان رحمه الله تعالى، كريماً كثير الاحتمال، كثير المروءة، حسن العشرة، يقبل الاعتذار، ولا يكافىء على السيئة بمثلها، بل يحسن لمن ظهرت إساءته، ويبره بماله ويستميله بإحسانه، إلا أنه شهر عنه في ولاية القضاء قبول هدايا النواب، حتى قيل إنه ربما كان قرر على كل منهم ما لا يحمله في كل مدة في مقابلة ولايته على قدر الولاية، وكذلك أيضاً من يقصد إنشاء عدالته حتى كثر المعدلون في أيامه، ووصل إلى العدالة من ليس من أهلها، ولما ولي قاضي القضاة تاج الدين أسقط كثيراً من عدوله، ولقد جاء بعد ذلك زماننا وأدركت بقايا عدوله فكانوا أميز العدول وأجلّ الناس، ومنهم من لي قضاء القضاة وبلغ، رحمه الله تعالى، خمسة وثمانين سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة في يوم الاثنين مستهل شعبان توفي الأمير جمال الدين موسى بن شرف الدين يغمور بن جلدك بلمان[٣] بن يغمور استاددار السلطان الملك الظاهر، وهو الذي كان ينوب عن الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق، وكان عالي المنزلة عند الملوك الأيوبية ومن بعدهم، ودفن بسفح المقطم، وكان مولده بالقرية اليغمورية بقرب سمهود من الأعمال القوصية[٤] في جمادى الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وهو ياروقي الأصل: وكان عفيفاً كريماً سمحاً جواداً، كيساً لطيفاً، متواضعاً حسن العشرة والسيرة، كثير البر والصدقة، رحمه الله تعالى.

---

(١) و(٢) في الأصل: «بن».

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٩، س ١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢١٨.

(٤) إن الاسم الحالي للأعمال القوصية هو كرم يعقوب. وهو اسم قرية تتبع مركز تجمع حمادي بين سمهود ونجانس إلى الجنوب من سمهود. ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١٨، حاشية رقم (٣).

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وستين وستمائة أيضاً: أمر السلطان بشنق الشريف حصن الدين بن ثعلب الجعفري[١] بالإسكندرية، فشنق خارج باب البحر، وكان السلطان قد اعتقله بها، وسبب شنقه أن الشريف السرسناي أحد عدول الثغر كان يتردد إليه في معتقله لتأنيسه وقضاء حوائجه، فاتصل بالسلطان أنه أعمل الحيلة في هروبه، وكان الشريف قد حضر إلى مصر لقضاء حوائج حصن الدين فأحضره السلطان وسأله عن ذلك، فأنكره، فأراه الخطوط الواردة من الإسكندرية بالشهادة عليه بذلك، وأمر بشنقه، فشنق تحت قلعة الجبل. وسير السلطان عز الدين أيبك الأغاحصاري[٢] إلى الإسكندرية فشنق الشريف حصن الدين.

واستهلت سنة أربع وستين وستمائة[٣]

في هذه السنة توجه الملك السلطان الظاهر إلى الشام في مستهل شعبان، واستناب بقلعة الجبل الأمير عز الدين أيدمر الحلي، وجعله في خدمة ولده الملك السعيد هو والصاحب بهاء الدين وتوجه، وكان في سفرته هذه من فتوح صفد والغارات على بلاد الفرنج ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

ذكر عمارة جسر دامية

وفي جمادى الأول سنة أربع وستين وستمائة، رسم السلطان ببناء جسر على نهر الأردن، وهو النهر الذي يشق غور الشام، ويسمونه الشريعة[٤]. وهذا الجسر هو بقرب دامية، فيما بينها وبين فراوي. واتفق فيه أعجوبة لم يسمع بمثلها: وذلك أن السلطان ندب الأمير جمال الدين بن نهار المهمندار[٥] لعمارته، ورسم أن يكون خمس قناطر، واجتمع الولاة لذلك ومنهم: الأمير بدر الدين محمد بن رحال متولي نابلس وحصلوا الأصناف وجمعوا الصناع، وعمروه على ما رسم به السلطان، فلما تكاملت عمارته وتفرق ذلك الجمع اضطرب بعض أركان الجسر، فقلق السلطان لذلك وأنكر عليهم وأعادهم لإصلاح ذلك. فتعذر عليهم لزيادة الماء وقوة جريانه، فأقاموا كذلك أياماً

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٨٨.

(٢) هكذا بالأصل.

(٣) يوافق أولها يوم الثلاثاء ١٣ أكتوبر/ تشرين الثاني ١٢٦٥ م.

(٤) أطلق هذا الاسم على نهر الأردن، بعد زمن الحروب الصليبية، وخصوصاً جزؤه الواقع بين بحيرة طبرية إلى مصب في البحر الميت، ويعرفه البدو بهذا الاسم حتى الآن. Le strange: G, palestine under the Moslems, p 52, Quatremère: op. cit. V 1, p 32. N$^{0\prime\prime\prime}$ 37.

(٥) في الأصل: «المهندار».

وقد تيقنوا العجز عنه. فلما كان في الليلة المسفرة عن السابع عشر من شهر ربيع الأولى سنة ست وستين انقطع ماء الشريعة حتى لم يبق بها شيء منه، فتبادروا وأشعلوا النيران الكثيرة والمشاعل واغتنموا هذه الحادثة وأصلحوا الأركان وقووها، وأصلحوا منها ما لا كان يمكن عمله. وركبوا من يكشف خبر هذه الحادثة، فساقوا الخيل فوجدوا كتاراً[١] مرتفعاً كان يشرف على الشريعة من الجانب الغربي، والكتار شيء يشبه الجبل وليس بجبل لأن الماء يحله بسرعة كالطين، وقد سقط في الشريعة فسدها، وانسكر الماء وتحامل على جهة الغور ما وراء السكر، فعادوا بالخبر، وانقطع الماء من نصف الليل إلى الرابعة من النهار، ثم تحامل الماء وكسر ذلك الكتار، وجاء طول رمح فلم يؤثر في ذلك البناء لإتقانه، وحمل الماء ما كان هناك من آلات العمارة. وهذه الحادثة من عجائب الأنفاق. وهذا الجسر باقٍ إلى وقتنا هذا[٢].

وفي جمادى الأولى أيضاً تكاملت عمارة الدار الجديدة المرسوم بعمارتها عند باب السر المطل على سوق الخيل [من قلعة الجبل][٣]، وعمل بها دعوة للأمراء.

وفي هذه السنة اهتم السلطان بحفر خليج الإسكندرية، وندب الأمير علم الدين المسروري لذلك، ثم توجه السلطان بنفسه وباشر الحفر وأزيلت الرملة التي كانت على الساحل بين النقيدي وفم الخليج، ثم عدي إلى بر أبيار، وغرق المراكب هناك وبنى عليها بالحجارة، ثم رجع إلى القاهرة.

وفي شهر رمضان من السنة وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك [ابن الإمام المستعصم][٤] الذي كان عند هولاكو، وصحبته جماعة من أمراء العربان. فأنزله الأمير جمال الدين النجيبي في أعز مكان. فلما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه جمال الدين بن الدوادار والطواشي مختار، فما عرفاه، وظهر أنه بخلاف ما ادعاه، فسير إلى مصر تحت الاحتياط.

وفي ذي القعدة وصل شخص آخر أسود ادعى أنه من أولاد الخلفاء، فسير إلى مصر أيضاً[٥].

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) انظر: Le strange: op. cit. p 52; Quatremère: po. cit. V 1. p 32, N⁰" 37.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٤.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٩.

(٥) يتضح من العبارة كلها أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماماً بإقامة الحاكم بأمر الله في الخلافة بالقاهرة سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٢ م. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٧.

ذكر الوثوب على الأمير عز الدين الحلي[١] وضربه بالسكين وسلامته وقتل الأمير صارم الدين المسعودي

قال: لما كان في يوم الاثنين منتصف ذي الحجة سنة أربع وستين وستمائة جلس الأمير عز الدين الحلي بدار العدل، ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة. [بدار العدل على العادة:][٢] وإذا بإنسان يخترق الصفوف ـ وبيده قصة ـ فوقف قدامه، وكان بيده سكين بين أثوابه، فضرب بها حلق الأمير عز الدين، فأمسكها بيده فجرحت يده، ثم رفسه برجله ونام على ظهره [فوقع المجرم][٣]، وقصد أن يضربه مرة أخرى أو يضرب الصاحب. فلما رفع يده جاءت السكين في فؤاد الأمير صارم الدين قايماز المسعودي فمات لساعته. وكان فخر الدين متولي الجيزة[٤] حاضراً فأمسكه ورماه. فوقع على قاضي القضاة، وضرب بالسيوف فمات. وعرف الضارب أنه من الجاندارية. وكانت به شعبة من الجنون، ولما وصل الخبر بسلامة الحلي إلى السلطان وهو راجع من أفامية[٥] أعطى مملوك الحلي ألف دينار عيناً، وأعطى رفيقه ثلاثة آلاف درهم، وأحسن إلى ورثة المسعودي.

وفي هذه السنة فتحت صفد[٦] على ما نذكره، إن شاء الله تعالى. ورجع السلطان منها إلى دمشق، وأنعم على أمرائها وقضاتها وأرباب المناصب بالتشاريف.

ونظر السلطان في أمر الجامع الأموي ومنع من مبيت الفقراء به[٧].

وفيها: أبطل السلطان ضمان الحشيشة[٨] وأمر بتأديب أهلها.

---

(١) في الأصل: «الحلبي» والتصحيح في السلوك، ج ١، ص ٥٥٠.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٠، س ١٤.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥١.

(٤) الجيزة: بليدة في غربي فسطاط مصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٥) أفاميا: مدينة حصينة من سواحل الشام. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٧.

(٦) صفد: مدينة في جبال عاملة، مطلة على حمص بالشام: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤١٢.

(٧) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٩، س ٧.

(٨) قال القاضي ناصر الدين أحمد بن محمد، قاضي الاسكندرية، لما وردت إليه المراسيم بالاسكندرية وعفّى متوليها أثر المحرمات:

لـيـس لإبـلـيـس عـنـدنـا أرب ... غـيـر بـلاد الأمـيـر مـأواه
حَـرَمْـتَـهُ الـخـمـرَ والـحـشـيـش معاً ... حَـرَمْـتَـهُ مـاءه ومـرعـاه

وقال أبو حسين الجزار:

قـد عُـطِّـل الـكـوب مـن حَـبـابـه ... وأُخـلـي الـثـغـر مـن رضـابـه

وفيها: في ثالث ذي القعدة توفي الأمير كرمون أغا[١] بدمشق بعد منصرفه من فتح صفد فشهد السلطان جنازته، ودفن برأس ميدان الحصا عند قباب التركمان.

وفيها: في ليلة عرفة، كانت وفاة الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي[٢] وكان قد جرح على صفد وبقي مدة والألم يتزايد به إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

وكان من أكابر الأمراء، وسمع الحديث، وحدَّث، وكان مشهوراً بالشجاعة والكرم والديانة وسعة الصدر وكثرة الصدقة، وكان قد رتب على نفسه صلة للفقراء من أرباب البيوت والزوايا في كل سنة تزيد على مائة ألف درهم وألوف أرادب غلة، هذا غير صدقاته. وكان مقتصداً في ملبسه يلبس الثياب القطن من الهندي والبعلبكي وغيره مما يباح ولا يكره لبسه. وكان من السلطان بالمنزلة العلية لا يخرج عن رأيه ومشورته سيما في الأمور الدينية وأحوال القضاة. ومما يدل على ذلك: ما تقدم[٣] من إشارته بتولية الحكم لأربعة قضاة. فرجع السلطان في ذلك إلى رأيه، وفعله لوقته. وكان رحمه الله من حسنات الزمان، وقد ختم له بالشهادة، فإنه مات من ألم تلك الجراحة. ودفن في مقبرة الملك الناصر بسفح قاسيون[٤]، رحمه الله.

واستهلت سنة خمس وستين وستمائة[٥]

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية وبناء الجامع الظاهري

كان خروج السلطان من دمشق في يوم الاثنين ثاني المحرم سنة خمس وستين وستمائة. فلما وصل إلى منزلة الفوّار [يريد الديار المصرية][٦] فارق العسكر وتوجه إلى الكرك. ولما وصل إلى بركة زَيْزَاء [وركب ليتصيد][٧] تقنطر[٨] عن فرسه، وذلك

= وأصبح الشيخ وهو يبكي ... على الذي فات من شبابه

انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٩، س ٦.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥٤، س ٧.

(٣) انظر صفحة ١١٧ من هذا الجزء.

(٤) قاسيون: هو الجبل المشرف على مدينة دمشق. وفيه عدة مغاور وكهوف، فيها آثار الأنبياء. وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح. وبه مغارة تعرف بمغارة الدم، يُقال بها قتل قابيل أخاه هابيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٥) يوافق أولها يوم السبت ٢ اكتوبر/ تشرين أول ١٢٦٦ م.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة من كتاب النهج السديد، ص ١٥٧.

(٨) في السلوك للمقريزي: «فتقطّر». انظر: السلوك، ج ١، ص ٥٥٥، س ٤.

في يوم الأحد ثامن المحرم، فتأخر هناك أياماً، ونزل إليه الأمير عز الدين نائبه بالكرك فأعطاه ألف دينار، وخلع عليه وسير الخلع إلى من بالكرك. ثم توجه في محفة حملها الأمراء والخواص على أكتافهم إلى غزة. ووصل إلى بلبيس[١] في ثالث عشر صفر فتلقاه ولده الملك السعيد والأمير عز الدين الحلي، وزينت المدينة لمقدمه.

وفي أول شهر ربيع الأول ركب السلطان فرسه وضربت البشائر لذلك، ونزل بباب النصر وأقام هناك إلى خامس الشهر، ثم توجه إلى بركة الجب لرمي البندق.

وفي شهر ربيع الآخر، سير السلطان الأتابك والصاحب فخر الدين ولد الصاحب لكشف مكان يعمل به جامعاً بالحسينية. فاتفقا على مناخ الجمال السلطانية. فقال السلطان: «أولى ما جعلت ميداني الذي هو نزهتي جامعاً»[٢]. وركب في ثامن شهر ربيع الآخر وصحبته الوزير والقضاة ونزل إلى ميدان قراقوش، ورتب أمور بنائه جامعاً، وأن يكون بقية الميدان وقفاً عليه[٣]، ورجع ودخل مدرسته بالقاهرة.

وفي هذه السنة أمر السلطان بإنشاء القناطر على بحر أبي الرجا [بناحية بيسوس][٤] فأنشئت، وتولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار فحصل الرفق بها للمسافرين وكانوا يجدون شدة وإزدحاماً بسبب المعادي.

وفي سابع وعشرين شهر ربيع الآخر وصل الملك المنصور صاحب حماه، وكان السلطان قد توجه إلى العباسية[٥] فتلقاه إلى رأس الماء وسير له ولمن معه التشاريف، وعاد السلطان إلى قلعته، وطلب صاحب حماة التفرج في الإسكندرية فسير إليها وسير في خدمته الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري، فوصل إليها وعظم تعظيماً كثيراً، ثم عاد، وتوجه في خدمة السلطان إلى غزة، ثم توجه إلى مملكته[٦].

وفي جمادى الآخرة وصلت رسل صاحب الدعوة وصحبتهم جملة من الذهب

(١) بلبيس: مدينة بينها وبين فُسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٩.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٦، س ٢.

(٣) الجامع المقصود هنا هو الجامع الظاهري. انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠، وكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦١. وبيسوس قرية صغيرة بمديرية القليوبية الحالية، وموقعها على الشاطىء الشرقي لفرع دمياط، وكانت من مراكز الطير المرتبة من القاهرة إلى دمياط، واسمها الحالي باسوس. مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١٠، ص ٢٥.

(٥) في الأصل: «العباسة» والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٥٦.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٦.

وقالوا: هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، وكان السلطان قد شرط ذلك عليهم عند وصول رسلهم وسؤالهم الصلح وشرطه على بيت الاسبتار في جملة ما اشترط عليهم.

ذكر إقامة الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة وشيء من أخباره(١)

وفي يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة أقيمت صلاة الجمعة بالجامع الأزهر. وسبب ذلك أن الأمير عز الدين الحلي خاطب السلطان في أمره وتبرع بجملة من ماله في عمارته، وانتزع أشياء من أوقافه كانت مغصوبة في أيدي جماعة، وشرع في عمارته، فعمر ما وهي من أركانه وجدرانه وبيضه وبلطه، وأصلح سقوفه وفرشه. واستجد به مقصورة حسنة، وعمل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار الظاهري فيه مقصورة كبيرة ورتب فيها مدرساً وجماعة من الفقهاء الشافعية، ورتب فيها محدثاً يسمع الحديث النبوي والرقائق(٢)، وسبعاً لقراءة القرآن. ووقف على ذلك أوقافاً، وولى خطابته زين الدين أدريس ابن صالح بن وهيب المصري القليوبي، فاستمر به إلى أن توفي. وكانت وفاته في ليلة السبت رابع عشرين شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وستمائة، ومولده سنة ثمان عشرة(٣) وستمائة.

وهذا الجامع هو أول مسجد جامع وضع للناس بالقاهرة المعزية، وفرغ من بنائه وأقيمت فيه الجمعة في شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلثمائة. فلما ولي العزيز بن المعز جدد به أشياء وعمر به عدة أماكن. ويقال إن به طلسم لا يسكنه بسببه عصفور ولا يفرخ فيه. وفي سنة ثمان وسبعين وثلثمائة سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس الخليفة أن يأذن له في صلة رزق جماعة من الفقهاء، فأذن له. فأطلق لكل منهم كفايته واشترى لهم داراً إلى جانب الجامع، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وذكروا فيه دروس فقه وكان أبو يعقوب قاضي الخندق، وكانوا نيفاً وثلاثين فقيهاً لأن دولة العبيد بين ما كان يستقل فيها بفقيه، ولما عمر الحاكم الجامع نقل الخطبة إليه.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٦ مع اختلاف في التوقيت.

(٢) الرقائق: مفردها رقيقة، ويقال الرقاق أيضاً ومفرده رقيق. لفظ اصطلاحي يطلق في كتب الحديث الكبرى على باب خاص من أبواب الحديث النبوي، وسُمِّيت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه، مما يجعل القلب رقيقاً رحيماً. فيقال: باب الرقائق وباب الرقاق، والتسمية الثانية أكثر شيوعاً. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٥٧، حاشية رقم (١).

(٣) في الأصل: «سنة ثمانية عشر» والتصحيح يقتضيه السياق.

ذكر إنشاء القصر الأبلق بالميدان بظاهر دمشق(١)

وفي سنة خمس وستين وستمائة، أمر السلطان الملك الظاهر بإنشاء القصر الأبلق بالميدان الأخضر بظاهر دمشق، فعمر على ما هو عليه الآن. واتفق في عمارته واقعة غريبة، حكى بعض من كان يباشر عمارته، قال: لما انتهت عمارة القنطرة التي بالإيوان ولم يبق من ختمها إلا وضع حجر واحد أسود، فرفع بالحبال بعد أن نحت وجهز ليوضع في مكانه وتشد به القنطرة، فانقطع الحبل وسقط الحجر إلى أرض الإيوان فانكسر، فتألم المهندس لذلك(٢)، ثم دخل إلى مرحاض القصر العتيق لقضاء الحاجة، [فرأى](٣) في أحد كراسيه حجراً أسود منحوتاً، فقاسه فوجده قدر الحجر الذي انكسر سواء، فاستأذن المهندس، الأمير جمال الدين النجيبي على قلعه ووضعه في رأس القنطرة، فأذن في ذلك، فقلع من كرسي المرحاض وجعل في رأس القنطرة بالإيوان فختمت به. وجاء كأنه عمل لها، ووضع الحجر الذي انكسر مكانه. وهذا من عجيب الإنفاق، وقد وقع نظير هذه الواقعة في أساس سور بغداد وعتبة جامع غزنة، وتقدم ذكر ذلك.

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعمارة قلعة صفد(٤)

وفي العشرين من جمادى الآخرة توجه السلطان إلى الشام في جماعة من أمرائه وأراح بقية العسكر، ولما وصل إلى غزة وردت إليه رسل الفرنج بهدية وجماعة من أسرى المسلمين. وتوجه السلطان إلى صفد بقصد عمارتها فرتب أمورها، وتوجه إلى دمشق مسرعاً عندما بلغه أن التتار عزموا على قصد الرحبة، فأقام بها خمسة أيام واهتم بأمر الرحبة(٥) وعاد إلى صفد في رابع وعشرين شهر رجب، فقسم الخندق على الأمراء، وأخذ نصيباً وافراً لنفسه ومماليكه وحاشيته، وعمل السلطان بنفسه وبيده، فلم يتوفر أحد من العمل. ولما كملت عمارة قلعة صفد رسم السلطان أن يكتب على أسوارها:

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦١، س ٢ ـ ٣.

(٢) ذكر المقريزي في السلوك، ج ١، ص ٥٦١، أن المهندس الذي أنشأ القصر الأبلق هو الأمير أقوش النجيبي.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من النسخة (س).

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٨، ٥٦٣.

(٥) الرحبة: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٣.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها، وتكملة عمارتها وتحسينها، بعدما[1] خلصها من أيدي الفرنج الملاعين، وردها إلى أيدي المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين، فأعادها للإيمان كما بدأها أول مرة، وجعلها للكفار خسارة وحسرة، ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد، وبدل الكفر بالإيمان، والناقوس بالأذان، والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس، سلطان الإسلام والمسلمين ومسترد صوال الدين، مبيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين، خلد الله سلطانه، فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الإسلام، ومن سكنها من المجاهدين المثاغرين على الدوام فليجعل لهذا السلطان فاتحها ومجددها نصيباً من أجره، ولا يُخْلِهِ[2] من الرحمة في سره وجهره في طول عمره، فإنه جعلها دار يمن وأمان، بعد أن كانت دار كفر وطغيان، وصار يقال عمر الله سرحها، بعد أن كان يقال عجل الله فتحِها، والعاقبة للمؤمنين إلى يوم الدين»[3].

ولما كملت العمارة طلع السلطان إلى القلعة فرأى بالبرج صنماً كبيراً كان الفرنج يقولون إن القلعة في خفارته ويسمونه أبا جرج، فأمر بقلعه وتكسيره، وعمر مكانه محراباً.

ورسم بتجديد عمارة حرم الخليل، وكتب بذلك إلى دمشق، وتوجه الأمير جمال الدين بن نهار لذلك، فجدد الأخشاب والمقاصير والأبواب، ودهن ما يحتاج منها إلى الدهان، وجددت الضرائح المقدسة.

ووصلت رسل الفرنج إلى السلطان وهو على صفد، وتحدثوا معه في أمر بلادهم، وأجابوا إلى ما قاله من مناصفة صيدا وهدم الشقيف. ثم أغار على عكا على ما نذكره إن شاء الله، ولم ينتظم أمر الصلح.

ثم حضرت رسل سيس ورسل بيروت[4] ومعهم جماعة من أسرى المسلمين،

---

(١) في الأصل من، والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٣، س ٧.

(٢) في الأصل: «ولا يخليه». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٣.

(٣) ورد نص النقش في السلوك، ج ١، ص ٥٦٣، مع اختلافات يسيرة.

(٤) أتى رسل بيروت تلك السنة من قبل صاحبتها الأميرة (Isabel d'ibelin) وكان سبب مجيئهم أن أخا =

وردوا مال التجار.

وفيها: توفي القاضي صدر الدين موهوب بن عمر بن إبراهيم الجزري الشافعي[١] وهو الذي كان ينوب عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمصر، وولي القضاء بعده كما قدمنا ذكر ذلك. وكان فاضلاً عالماً بمذهب الشافعي ومشاركاً في غيره من العلوم. وكان في مبدأ أمره على قضاء جزيرة ابن عمر. وكان كثير المال مرزوقاً في التجارة، فاكتسب مالاً جزيلاً فمد صاحب الجزيرة عينه إلى أمواله وقصد أخذها، فبلغه ذلك، فأرسل أكثر أمواله إلى مصر والشام صحبة التجار ثم هرب واختفى، ووصل إلى الشام ثم إلى الديار المصرية. ولما ولي الصاحب بهاء الدين الوزارة قصد أذاه فخافه خوفاً شديداً.

حكى عنه أنه قال: لما خفت الصاحب بهاء الدين رأيت رسول الله ﷺ في المنام فسألني عن حالي فقلت: يا رسول الله، إني خائف من الصاحب فقال لي: لا تخف منه وقل له بأمارة كذا وكذا لا تؤذني، فإن رسول الله قد شفع فيّ عندك، قال: فانتبهت فرحاً بمقابلة رسول الله ﷺ، ولما صليت الصبح ركبت دابتي ووقفت للصاحب في طريقه إلى القلعة، فسلمت، عليه وقلت له: معي رسالة، فقال: ممن هي؟ قلت: من رسول الله ﷺ، وهو يقول لك: بأمارة كذا وكذا لا تؤذني فإن رسول الله ﷺ، قد شفع فيّ عندك، فقال: صدقت أنت، وصدق رسول الله ﷺ، وأنت اليوم فقد بقيت أتشفع بك إلى رسول الله ﷺ، والله لا حصل لك مني سوء أبداً، فالمولى يرسم والمملوك يمتثل، ومن اطلع عليه مولانا وله حاجة[٢] من مضرور أو مظلوم ترسل إلي تعرفني حتى أقضي حاجته بنفسي، وأعتذر إليه، وبقي يعظمه، ولو فسح في أجله لولاه القضاء بعد القاضي تاج الدين ولكنه مات قبله. وكانت وفاته في مستهل شهر رجب سنة خمس وستين وستمائة. وقيل بل كانت وفاته فجأة في تاسع الشهر، ودفن بسفح المقطم. ومولده في النصف من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة بالجزيرة. ولما مات ترك ما يقارب ثلاثين ألف دينار، وكان له ابنتان: إحداهما بالجزيرة، والأخرى زوجة القاضي بدر الدين ولد القاضي تقي الدين بن رزين، فورثتاه[٣] وشركهما بيت

= هذه الأميرة كان «قد غدر بمركب للأتابك، فيه جماعة من التجار، وكانوا متوجهين إلى قبرس، فطالبهم السلطان بمال التجار، فالتزموا به والتزموا إطلاق التجار وتقرر الصلح». انظر عقد الجمان للعيني، ص ٢٢٥، ونهاية الأرب للنويري، ج ٢٨، ص ٩١. وانظر: King: the knights hospitallers in the Holy Land, p 262.

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، وفيات عام ٦٦٥ هـ.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) في الأصل: «فورثاه». وهو خطأ ظاهر.

المال، وكان رحمه الله كثير المروءة والإحسان إلى أهل بلده ومن يقصده.

ذكر وفاة قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز[١] ونبذة من أخباره رحمه الله ومن ولي قضاء الشافعية وغيره من مناصبه بعد وفاته

وفي السابع والعشرين من شهر رجب الفرد سنة خمس وستين وستمائة، كانت وفاة قاضي القضاة، تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب بن القاضي الأعز أبي القاسم خلف بن رشيد الدين أبي الثناء محمود بن بدر العلامي[٢] ـ وبنو علامة بطن من لخم ـ وهو المشهور بابن بنت الأعز، والأعز هذا هو جده لأمه، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام بن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر، أحد وزراء السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وقد تقدم ذكره في أخبار الدولة العادلية. ومولد القاضي تاج الدين بالقاهرة في مستهل شهر رجب سنة أربع وستمائة. ولما مات والده الأعز خلف ـ رحمه الله تعالى ـ ترك دنيا عريضة، فيقال إنه خلف اثني عشر ألف دينار عيناً، وقيل: سبعة آلاف، فأنفقت والدته ابنة الصاحب الأعز جميع ذلك على نفسها ومن يلوذ بها من أهلها، ونشأ فلم يجد شيئاً من ذلك، فما شافهها فيه بكلمة، وكان باراً بها، واشتغل بالعلم، وولي إعادة المدرسة المعروفة بزين التجار بمصر، وولي شهادة بيت المال في الدولة الكاملية. وكان سبب ذلك أن الشريف شمس الدين الأرموي نقيب السادة الأشراف، رحمه الله تعالى، كان يلي تدريس المدرسة المذكورة فتوجه من جهة السلطان الملك الكامل في رسالة واستناب القاضي تاج الدين هذا في التدريس والنظر، فأحسن الخلافة عنه وعمّر الوقف وقام بالوظيفة أحسن قيام، فلما عاد الشريف ووجد الأمر على ذلك، أنهاه إلى السلطان وشكره وأثنى عليه، فرسم السلطان الملك الكامل له بمباشرة شهادة بيت المال فباشر ذلك، وكان إذ ذاك على غاية الفاقة، وسلك طريقي الضبط والأمانة، وهذه الوظيفة هي أول مناصبه الديوانية، فاشتهر بحسن المباشرة والاحتراز، فتقدم في الأيام الصالحية النجمية وما بعدها، وولي نظر بيت المال، ثم ولي نظر الدواوين بالديار المصرية في أيام الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح، بتقليد معظمي، تاريخه لخميس بقين من ذي القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة، نعت فيه بالحضرة السامية: القاضي، ثم كتب له منشور كريم خاتوني بإقطاع لخاصه ولأربعة أتباع. وقد رأيت أن أشرح هذا المنشور بنصه وأبين وضعه ليعلم منه كيف كان الرسم والمصطلح في مثله،

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٢٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، في وفيات عام ٦٦٥.

(٢) في الأصل: «بنو» وهو خطأ.

وهو أن الموقع كتب عن يمين الدرج ما مثاله: (الصالحية) بقلم أغلظ من قلم المنشور، ثم كتب البسملة بعد هذه اللفظة بقدر أصبعين وكتب تلو البسملة ما مثاله: خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الخاتوني الصالحي الجلالي العصمي الرحيمي، زاده الله شرفاً ونفاذاً، أن يجري في إقطاع المجلس السامي، القاضي الأجل، الصدر الكبير، الرئيس الفقيه، العالم الإمام، الفاضل الأوحد، العامل المرتضى، الكامل المجتبى، المختار تاج الدين مجد الإسلام بهاء الأنام اختيار الدولة، مجتبى الملوك السلاطين، فخر الرؤساء، علم العلماء، شرف الفقهاء، رضي أمير المؤمنين عبد الوهاب بن خلف الناظر بالدواوين المعمورة، أدام الله رفعته ونعمته، ما رسم له به الآن من الإقطاع لخاصه ولأربعة أتباع معه في السنة ما يأتي ذكره.

خاصة: الثلثان من أبواب الهلالي بمدينة الفيوم. كفور سفط رشين خارجاً عن بني شريان[١]، ومعصرة أبي دخان، ودبيس، وهي مشناة ابن مليح، كوم بني مؤمنة، كوم الحمير، كوم مغنين[٢]، منشاة حراز، فزونة[٣]، قبالة الجعاف[٤]. وذلك في الإقطاع لاستقبال مغل سنة سبع وأربعين وستمائة بعد الاعتداد على غايته بما قبضه من الجامكية لاستقبال المدة من جملة ما يعوض به، وفي الخدمة مستهل المحرم منها.

أتباعه وعدتهم أربعة في السنة: ستة عشر ألف درهم ناصرية جهة ذلك من متحصل السدس من بحيرة تنيس لاستقبال تاريخ عرضهم بالديوان المعمور بعد الخط الشريف، أعلاه الله، وثبوته حيث ثبتت مثله.

كتب في ثامن ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة، وبين السطرين الأول والثاني بخطها ما مثاله: والده خليل.

ورأيت في هذا المنشور أشياء تستغرب ويستنكر مثلها في وقتنا هذا: وهو أن بيت العلامة الذي هو بين السطرين كتبت فيه الملكة، وفيه تحت خطها بين السطرين: خط ناظر الدواوين[٥] ومثاله: ليثبت بديوان النظر على الدواوين المعمورة إن شاء الله

---

(١) هكذا في الأصل، بغير نقط.

(٢) هكذا في الأصل، مع نقط الغين المعجمة والنون.

(٣) هكذا في الأصل، مع إهمال نقط النون.

(٤) هكذا في الأصل بغير نقط.

(٥) ناظر الدواوين: هو الذي يعبر عنه بناظر الدولة، ويشارك الوزير في التصرف والنظر في المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة ويسمى أحياناً ناظر النظار أو الصاحب الشريف، ومقره ديوان النظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٥.

تعالى، وخط شاد الدواوين[١]: امتثل الخط الشريف، وبينهما في بيت العلامة أيضاً: خط ناظر الفيوم ومثاله: ليثبت إن شاء الله تعالى بديوان نظر الفيوم. وما معه وفي سامتة السطر الثاني ما مثاله: ليثبت بالديوان المعمور مما يختص بالوجه القبلي، وأسفل منه ما مثاله: ليثبت بالديوان المعمور بالوجه البحري، وإلى جانبه عن يساره ليثبت بديوان الجيوش المنصورة إن شاء الله تعالى، ثم بعد ذلك خطوط الكتاب، ولعل ناظر الفيوم الذي كتب في هذا الموضع هو شرف الدين هبة الله الفايزي الذي ولي الوزارة فيما بعد، فإنه كان ناظر الصناعة والفيوم في ذلك الوقت، والله أعلم.

ثم ولي القاضي تاج الدين نظر بيت المال في الأيام المعزية، بتوقيع تاريخه ثالث عشر صفر سنة إحدى وخمسين وستمائة، وقرر له في كل شهر خمسون ديناراً، وفي السنة مائتا أردب واثني عشر أردباً نصفين، ثم ولي بعد ذلك نظر الدواوين. فهذه مناصبه قبل أن يلي القضاء والوزارة، ثم ولي قضاء القضاة بمصر والوجه القبلي في تاسع شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة، عوضاً عن القاضي بدر الدين السنجاري، وجمع له القضاء بالقاهرة والوجه البحري في الشهر المذكور لثمان بقين منه، وعطل القاضي بدر الدين السنجاري عن القضاء. ولما ولي القضاء شدد على العدول وأسقط كثيراً منهم، فكان يكتب الإسجالات بإسقاط عدالة جماعة بعد جماعة من عدول السنجاري، ويشهد على نفسه بما تضمنته، فقلق الناس لذلك، ولم تطل مدة ولايته هذه، فإنه عزل في بعض شهور سنة خمسة وخمسين وستمائة كما قدمنا ذكر ذلك، ثم فوضت إليه الوزارة بالديار المصرية كما تقدم ذكره، ثم عطل عن الوزارة والقضاء في الأيام المظفّرية - قطز - إلى أن كانت الدولة الظاهرية الركنية، ففوض السلطان الملك الظاهر له قضاء القضاة بجميع الديار المصرية في السابع عشر من جمادى الأول سنة تسع وخمسين وستمائة، عوضاً عن القاضي بدر الدين السنجاري، ثم أفردت عنه مصر والوجه القبلي في السنة المذكورة، وفوض ذلك إلى القاضي برهان الدين الخضر السنجاري، ثم أعيد ذلك إليه في الثامن من صفر سنة ستين وستمائة. وقد شرحنا مضمون تقاليد هذه الولايات في مواضعها. وفوض إليه تدريس المدرسة الصالحية النجمية، بتوقيع ظاهري تاريخه ثاني عشر جمادى الأول سنة ستين وستمائة بعد وفاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام. ثم فوض إليه النظر العام على الأشراف والأوقاف والأحباس، ومشهد السيد الحسين ومدرسة الإمام الشافعي، والخانكاه والمشاهد بالباب الشريف وبجميع أعمال الديار المصرية بتوقيع ظاهري تاريخه السابع

---

(١) شاد الدواوين: كانت مهمته مرافقة الوزير، والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢.

من جماد الآخر سنة ستين وستمائة. وفوض إليه تدريس مدرسة الشافعي بتقليد تاريخه نصف ذي الحجة سنة إحدى وستين. ثم قسم القضاء بين أربعة حكام، فكتب له تقليد كما تقدم، تاريخه ثامن عشرين ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وخص بالنظر في جميع أموال الأيتام بالقاهرة ومصر والديار المصرية بمفرده والأوقاف، وقد شرحنا ذلك. واستمر كذلك إلى أن مات رحمه الله تعالى. وكان رحمه الله، كثير الاحتراز والتحفظ، وضبط ناموس الشرع، وإقامة الحرمة، وكف الأيدي العادية، والتطلع على جهات الأوقاف، وأخبار العدول، وغير ذلك مما هو متعلق بمنصب الشرع الشريف. ولما مات، رحمه الله تعالى، قسم قضاء الشافعية بعده، ففوض قضاء مصر والوجه القبلي للقاضي محيي الدين بن الصلاح[١] عبد الله بن قاضي القضاة شرف الدين محمد ابن عين الدولة الصفراوي[٢]. وفوض قضاء القاهرة والوجه البحري للقاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين[٣]. وولي النظر على ديوان الأحباس القاضي تاج الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ أبي العباس أحمد المعروف بالقسطلاني. وولي تدريس المدرسة الصالحية القاضي صدر الدين أبو حفص عمر ولد قاضي القضاة تاج الدين المشار إليه. وولي نظر الخانقاه قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي، وولي تدريس مدرسة الإمام الشافعي فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين. وفيها أيضاً: توفي الأمير ناصر الدين الحسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري مقدم الجيش بالساحل[٤]، وكانت وفاته في ثالث شهر ربيع الأول بالساحل، ومولده في سنة ستمائة بقيمر، وهو الذي بنى المدرسة الشافعية بدمشق بناحية مادنة[٥] فيروز. وكان جواداً كريماً جليلاً مقداماً تقدم على جيوش الشام في الأيام الصالحية والناصرية، وكان جميع الأكراد في طاعته وخدمته. وكان أمره في الأيام الناصرية أنفذ من أمر السلطان لانقياد الجيوش إليه. ثم خمل في الأيام الظاهرية إلى أن أقطعه السلطان الملك الظاهر إقطاعاً بالساحل، وقدمه على أمراء الساحل، فصلحت حاله، وكان مقامه بجنين، رحمه الله تعالى.

---

(١) ذكر المقريزي في كتابه السلوك، ج ١، ص ٥٦٢، س ٢ ـ ٣، أنه محيي الدين عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن علي بن صدقة بن حفص المعروف بابن عين الدولة.

(٢) هكذا في الأصل. ولم ترد «الصفراوي» في كتاب السلوك.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٢، س ١.

(٤) سماه المقريزي في السلوك ج ١، ص ٥٦٢، س ٧ ـ ٨: «نائب السلطنة بالساحل».

(٥) هكذا في الأصل.

ذكر وصول الشريف بدر الدين مالك بن منيف[1] وإعطائه نصف إمرة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفي سنة خمس وستين وستمائة: وصل الشريف بدر الدين مالك بن منيف ابن شيحة، وكان السلطان على صفد، فشكى من الشريف عز الدين جماز، وقال: إن المدينة كانت بين أبي وبينه نصفين، وتوفي والدي وأنا صغير، فظلمني وأخذ نصيبي، وقد جئت مستجيراً بالسلطان في رد حقي. فكتب السلطان إلى الشريف جماز يأمره بتسليم النصف الذي كان لمنيف لولده مالك، وكتب تقليده بنصف إمرة المدينة ونصف الأوقاف، وسلم إليه نصف الأوقاف التي بمصر والشام، وتوجه. وورد جواب الشريف عز الدين جماز إلى السلطان بامتثال الرسوم، وأرسل خادمين من خدام الضريح النبوي يشهدان بذلك، فكتب السلطان إليه يشكره على ذلك.

ثم عاد السلطان إلى مقر ملكه بقلعة الجبل. وكان وصوله إليها في يوم الثلاثاء رابع عشر ذي الحجة خمس وستين وستمائة.

ذكر تسمير من يذكر بالقاهرة

وفي العشرين من ذي الحجة من السنة بعد عود السلطان إلى الديار المصرية أمر بتسمير جماعة كانوا معتقلين بخزانة البنود منهم: أفش القفجاقي أحد المماليك الصالحية، وكان قد ادعى النبوة. وأحضر في شهر رمضان إلى دار العدل، فأمر نائب السلطنة باعتقاله، فلما حضر السلطان من الشام أنهى إليه أمره فاستحضره وسمع كلامه وأمر بتسميره.

ومنهم: الناصح الواحي كان في ابتداء أمره ضامن الواحات، ثم ترقى إلى أن ولي نظر أخميم وأسيوط وغير ذلك بالوجه القبلي. وكان يركب بالطبلخاناه، وقويت نفسه وكثرت أتباعه واتسعت أمواله. فأرسل السلطان وقبض عليه وأمر باعتقاله بخزانة البنود، فأنهى إلى السلطان الآن أنه اتفق مع الملك الأشرف ابن شهاب الدين غازي ومع رجل نصراني على أن ينقبوا خزانة البنود ويخرجوا منها ويتوجهوا إلى الواحات فيتسلطن بها الملك الأشرف ويكون الناصح وزيره والنصراني كاتبه، فأمر السلطان بتسميرهم، فسمروا في يوم واحد.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٨، ٥٦٠.

واستهلت سنة ست وستين وستمائة[(١)]

ذكر أخذ الزكاة من عرب الحجاز[(٢)]

كان السلطان قد اهتم بأمر الزكاة من سائر الجهات حتى المغرب والحجاز، وأذعن عربان بلاد برقة لذلك وقاموا بالزكاة.

وفي صفر سنة ست وستين وستمائة: وصل الأمير ناصر الدين بن محيي الدين الجزري الحاجب من المدينة النبوية، وكان قد توجه لاستخراج الزكاة والعشر، فأحضر صحبته مائة وثمانين جملاً وعشرة آلاف درهم فاستقلها السلطان وأمر بردها عليه، ثم وصل بنو صخر، وبنو لام، وبنو عنزة وغيرهم من عربان الحجاز، والتزموا بزكاة الغنم والإبل، وتوجه معهم مشدون لاستخراج ذلك. هذا والسلطان على صفد لعمارتها.

ذكر ظهور الماء بالقدس الشريف[(٣)]

وفي سنة ست وستين وستمائة: ورد كتاب قاضي القدس أن الماء انتزح من بئر السقاية وعظمت مشقة الناس، فنزل رجل إلى البئر وشاهد قناة مسدودة من زمن بخت نصر الذي هدم البيت المقدس، فأحضر الأمير علاء الدين الحاج الركني [نائب القدس][(٤)] بنايين وكشف القناة السليمانية، ومشوا فيها تحت الأرض إلى الجبل الذي تحت الصخرة المقدسة فوجدوا باباً مقنطراً ففتحوه، فخرجت عين ماء كادت تغرقهم. وكان خروج الماء في ذي الحجة سنة خمس وستين.

ووردت كتاب الأمير الحاج علاء الدين الركني أنه نقص ماء السقاية الذي ظهر ونزح، ودخل الصناع إليه فوجدوا سداً، فنقب فيه الحجارون مقدار عشرين يوماً ووجد سقف مقلفط به مائة وعشرون ذراعاً بذراع العمل، فخرج الماء وملأ القناة.

وفي هذه السنة: وصلت هدية صاحب اليمن[(٥)] ورسله، وأحضر فيها من الخيل المسومة عشرون فرساً بالبركسطوانات[(٦)] الأطلس المزركشة وفيلة وحمارة وحش عنابية اللون، وغير ذلك من المسك والعنبر والعود والصيني[(٧)] وغيره، فقبلت هديته،

---

(١) يوافق أولها يوم الخميس ٢٢ سبتمبر/ أيلول ١٢٦٧ م.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٨، ٥٦٢ ـ ٥٦٣.
(٣) انظر السلوك، ج ١، ص ٥٦٠.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٠.
(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٣، س ١٧ ـ ١٨.
(٦) هكذا في الأصل.
(٧) هكذا في الأصل.

وجهزت له هدية وصنجق وخلعة وشعار السلطنة وجوشن وكبش[١] وغيره من آلة الحرب، وسير إليه طيور جوارح. وكوتب[٢] بالمقام العالي المولوي السلطاني، وكاتبه السلطان بالمملوك. وتوجه بالهدية فخر الدين المقري[٣] ووصل صحبة أحد رسوليه - وهو ابن الماكساني التاجر - بها، وذكر أن[٤] والده صاحب اليمن سير به للمجاهدين ولوجوه البر، فأودع ثمنه بالخزانة، ولما توجه السلطان إلى الغزاة أنفق منه جملة في إقامة مجانيق أفردها لها، وأفتك ببقيته جماعة من أسارى المسلمين.

ذكر خبر الحبيس النصراني ومقتله

هذا الحبيس من نصارى مصر، وكان في ابتداء أمره من كتاب صناعة الإنشاء، ثم ترهب وانقطع في جبل حلوان. فيقال إنه وجد في مغارة منه مالاً للحاكم العبيدي كان قد وضعه هناك، فتصدق هذا الحبيس على الفقراء من سائر الملل. واتصل بالسلطان خبره فطلبه، وطلب منه المال، فقال: «أما أني أعطيك من يدي إلى يدك فلا يتصور، ولكنه يصل إليك من جهة من تصادره، ولا يقدر على ما تطلبه منه، فأساعده بمال يحمله إليك» وشفع فيه، فأطلقه السلطان.

ولما كانت واقعة النصارى المتقدمة، كان يحضر عند مشد المستخرج، ومن عجز عن أداء ما قرر عليه ساعده به وأداه عنه، نصرانياً كان أو يهودياً. وكان يدخل إلى الحبوس ويطلق منها من عليه دين ويقوم بما عليه. وكان يعطي ما ينافر العقول. وتوجه إلى الصعيد، ودفع عن أهل الذمة أكثر ما قرر عليهم، وتوجه إلى الإسكندرية، وعامل أهلها بما هالهم من بذل الأموال. فوصلت فتاوى الفقهاء إلى السلطان بقتله، وعللوا ذلك: «خوف الفتنة». فوافق ذلك رأي السلطان فأحضره في سنة ست وستين وستمائة، وطلب منه المال وأن يعرفه من أين أصله، وكيف حصل له، فلم يعرفه وجعل يغالظه ويدافعه، إلى أن أيس السلطان منه فعذبه حتى مات. وأخرج من القلعة ورمي بظاهرها على باب القرافة. وذكر أن مبلغ ما وصل إلى بيت المال وما واسى به من مدة سنين: ستمائة ألف دينار عيناً، مما أحصي بقلم الصيارفة الذين كان يجعل الأموال عندهم ويكتب إليهم أوراقه بما يعطيه. وذلك غير ما كان يعطيه سراً من يده.

---

(١) في الأصل، كبر. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٦٣، ورد أن الكبش اسم آلة من آلات الحرب.

(٢) في الأصل «كتب» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) هكذا في الأصل، مع أن الرواية لم تذكر الابن قبل ذلك.

ذكر بناء القرية الظاهرية قرب العباسية

وفي سنة ست وستين وستمائة: مر السلطان على وادي السدير قرب العباسية فأعجبه. فاختار منه مكاناً بنى به قرية سماها الظاهرية، وعمر بها جامعاً.

وفيها: توجه السلطان إلى الشام. وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى من الفتوحات.

ذكر إيقاع الحوطة السلطانية على الأملاك والبساتين وما تقرر على أربابها من المال

وفي سنة ست وستين وستمائة: لما كان السلطان نازلاً على الشقيف أمر بإيقاع الحوطة على البساتين والقرى والضياع التي بأيدي أهل دمشق ملكاً وحبساً. وقال: «نحن فتحنا هذه البلاد بالسيف، وانتزعناها من أيدي التتار». وكان قد تحدث بذلك في السنة الخالية. وعقد مجلس حضره السلطان والقضاة والفقهاء، فقال قاضي القضاة شمس الدين بن عطاء الحنبلي: «هذا لا يحل ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه» وقام مغضباً، فتوقف السلطان ثم تقدم الآن بإيقاع الحوطة على البساتين، فاتفق وقوع صقعة باردة على البساتين، فأحرقت أكثر أشجارها، فظن أهل دمشق أن هذه الحادثة تبعث السلطان على الإفراج عنها فلم يفعل، ولما وصل إلى دمشق وعزم على العود إلى الديار المصرية عقد مجلساً بدار العدل حضره القضاة والفقهاء وأهل البلد، وأجرى ذكر البساتين وأخرج فتاوى الفقهاء من الحنفية باستحقاقها، فتوسط الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين عند السلطان على ذلك أن يقرر على أصحاب البساتين ألف ألف درهم، فامتنعوا من ذلك. وقالوا: «لا طاقة لنا بها معجلة»، وسألوا أن يقسطها، فامتنع السلطان، وتمادى الحال إلى أن خرج من دمشق، ولما وصل إلى منزلة اللجون عاوده الصاحب فخر الدين والأتابك والأمراء، فاستقر الحال أن يعجلوا منها أربعمائة ألف درهم ويعقد لهم بما قبضه السلطان من المغل، ويقسط ما بقي، في كل سنة مائتي ألف درهم، وكتب بذلك توقيع وقرىء على المنبر بدمشق.

ذكر وصول الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من بلاد التتار والصلح مع التكفور هيتوم صاحب سيس

كان السلطان قد جهز العساكر إلى سيس، وأسروا ليفون بن هيتوم ولد صاحب سيس على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، فترددت الرسل منه إلى السلطان يعرض عليه

كل ما تقرر عليه من مال وقلاع. فاقترح السلطان عليه أموراً، منها أن يحضر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بلاد التتار، وأن يرد القلاع التي أخذها من المملكة الحلبية، فسأل مهلة سنة إلى أن توجه إلى الأردو، وكشف خبره وأجيب إلى إطلاقه. ثم ورد كتاب صاحب سيس يذكر أنه حصله. وورد كتاب الأمير شمس الدين المذكور بعلائم وأماير. فتوقف صاحب سيس في الإجابة إلى رد بعض القلاع، فرد السلطان رسله وكتب إليه: «إنك إذا كنت قسوت على ولدك وولي عهدك، أنا أقسو على صديق ما بينه وبيني نسب، ويكون الرجوع منك لا مني. ونحن خلف كتابنا. ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر». فلما وصل إليه هذا الكتاب والسلطان إذ ذاك على أنطاكية خاف وبذل ما رسم به السلطان، وتقرر الصلح على تسليم قلعة بهسنا والدربساك ومزريان ورعبان والروب وشيح الحديد[١]؛ وجميع ما كان أخذه من بلاد الإسلام، وردها بحواصلها كما تسلمها، وإطلاق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وأن يطلق السلطان له ولده وولد أخيه وغلمانهما. وأنه يحضر رهينة باسال أخ الملك، ويسير ريمون أخ زوجة الملك ليفون، ويبقى باسيل المأسور بن كنداصطبل هو وهؤلاء رهائن على تسليم القلاع. وكتبت الهدنة بذلك في شهر رمضان بأنطاكية.

وأرسل السلطان الأمير بدر الدين بجكا[٢] الرومي على خيل البريد إلى قلعة الجبل، فأحضر ليفون وتوجه به إلى أبيه على خيل البريد في حادي عشر شوال. ثم توجه الأمير سيف الدين بلبان الرومي الدوادار إلى سيس لتقرير فصول رسم بها السلطان. ولما وصل ليفون إلى أبيه أطلق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر. وكان السلطان يتصيد بجرود بالقرب من بلاد حمص مما يلي دمشق، فلما بلغ السلطان قربه، ركب مختفياً والتقاه وأحضره معه إلى الدهليز وباتا جميعاً. ولما أصبح واجتمع الناس للخدمة خرج إليهم السلطان الأمير شمس الدين في خدمته، فبهت الناس لرؤيته. وأنعم عليه السلطان بالأموال والخلع والحوائص والخيل والبغال والجمال والمماليك وجميع ما يحتاجه الأمراء. ولما حضر إلى الديار المصرية أمّره وبنيت له دار بقلعة الجبل. وأما القلاع المذكورة فتسلمها نواب السلطان، وأطلقت الرهائن.

ولما ترتبت هذه المصالح وفتحت هذه الفتوحات العظيمة التي نذكرها، رجع السلطان من أنطاكية ووصل إلى شيزر، وتوجه منها في البرية إلى حمص للصيد. ووصل السلطان إلى دار النائب بحمص في ثلاثة نفر وهم: الأمير بدر الدين

---

(١) ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ ذكر القلاع نفسه ما عدا الروب.

(٢) هكذا في الأصل بدون نقط. والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٦٩.

بيسري[١]، والأمير بدر الدين الخزندار، والأمير حسام الدين الدوادار. ثم دخل دمشق في سادس عشرين شهر رمضان والأسرى بين يديه، وخرج منها في ثامن عشر ذي القعدة، وعيد في أم البارد [وهي السعيدية][٢] ورحل إلى قلعته في حادي عشر ذي الحجة وحمل عن الناس كلفة الزينة.

وفيها: توفي الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور بن محمد بن محمد بن محمد بن وداعة الحلبي[٣]. وقيل إنه كان في ابتداء أمره خطيباً بجبلة، ثم اتصل بالملك الناصر وصار من خواصه، فولاه شد الدواوين بدمشق، وكان يعتمد عليه. فلما ملك السلطان الظاهر ولاه وزارة الشام، فوقع بينه وبين الأمير علاء الدين طيبرس نائب السلطنة مفاوضة اقتضت حضوره إلى الديار المصرية، ثم أعيد إلى الوزارة بالشام عندما فوض السلطان نيابة السلطنة بدمشق للأمير جمال الدين النجيبي كما تقدم، فوقع بينه وبينه [خلاف][٤] أيضاً، فكان يهينه، فكتب إلى السلطان يذكر أن الأموال قد انكسرت، وأن الشام يحتاج إلى مشد تركي شديد المهابة مهسوط اليد، وتكون أمور الأموال والولايات والعزل راجعة إليه، وقصد بذلك رفع يد الأمير جمال الدين النجيبي عن الأموال، وظن أن المشد يكون بحكمه ولا يتصرف إلا عن أمره. فرتب السلطان في المشد الأمير علاء الدين كشتغدي[٥] الشقيري وبسط يده حسب ما اقترح ابن وداعة، فلم يلبث أن وقع بينهما [خلاف][٦] وكان يهينه بأنواع [الإهانات][٧] ويسبه، فيشكو ذلك إلى النجيبي فلا يلبي دعوته، ويقول له: «أنت طلبت مشداً تركياً، وقد جاء ما طلبت». ثم كاتب الشقيري في حقه، فورد الجواب بمصادرته، فصادره وضربه بالمقارع وعصره وعلقه، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه، وباع موجوده وأماكن كان قد وقفها وحمل ثمن ذلك، ثم طلب إلى الباب السلطاني فتوجه، وحدث نفسه بالعود إلى منصبه، فأدركته منيته، فمات في ذي الحجة من السنة، ودفن في مستهل المحرم سنة سبع.

---

(١) في الأصل: «سيبري». والتصحيح من رسم الاسم في نفس المتن في مواضع كثيرة.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧١، س ١١.
(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.
(٥) في الأصل: «كشغدي» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.
(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.

واستهلت سنة سبع وستين وستمائة[(١)]

في هذه السنة في أولها، جهز السلطان من كان عنده من رسل الملوك فتوجهوا إلى مرسليهم.

ذكر تجديد الحَلْفِ للملك السعيد

وفي يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة: جلس السلطان في مرتبته، وجلس الأمير فارس الدين الأتابك والأمير عز الدين الحلي بين يديه، والصاحب بهاء الدين، وكاتب الإنشاء. وكان قبل ذلك يتحدث مع الأمراء في أمر ولد الملك السعيد وتفويض الأمور إليه فأجابوا بالسمع والطاعة، وحلف الأمراء في هذا اليوم وسائر العساكر المنصورة.

وفي ثالث عشر الشهر ركب الملك السعيد في الموكب كما يركب والده، وجلس في الإيوان، وقرئت عليه القصص. وفي العشرين من الشهر قرىء تقليده بتفويض السلطنة إليه. وهو من إنشاء المولى فخر الدين بن لقمان[(٢)] وخطه.

ونسخته بعد البسملة والعلامة السلطانية الظاهرية:

«الحمد لله الذي أجزل العطاء والمواهب وضاعف النعماء التي يفيض شعابها، وأمواه العيون نواضب، وضاعف عزا لا يعز معه مقصد، ولا يتعذر معه المطالب، وحلي عطل الأيام بالمحاسن التي تستر بها ما ظهر من المعايب. أحمده على نعمه التي تجلى بنورها ظلم الغياهب، والألطاف التي نظمت من المجد عقدة المتناسق ودره[(٣)] المتناسب».

«وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغ بها يوم الإشهاد قاصيه المنى، وتجعل كل صعب هيناً. وأشهد أن محمداً عبده الذي صدع بالحق معلناً، ورسوله الذي أظهر الإسلام وما تباحد عزمه ولا انثنى، صلى الله عليه وعلى آله الذين شيدوا من المعالي البنا، وأصحابه الذين أحسنوا والله يحب من كان محسناً».

«وبعد: فإنا لما أتانا الله تعالى من السلطان الذي ملك به من العز ما جمح، والقدرة التي قربت[(٤)] من الآمال ما نزح، والمهابة التي ملأت عيون الأعداء بالذل لا

---

(١) يوافق أولها يوم الاثنين ١٠ سبتمبر/ أيلول ١٢٦٨ م.
(٢) انظر هذا التقليد مع بعض الاختلاف في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٩.
(٣) في الأصل: «ذروة».
(٤) في الأصل: «قرنت».

الوطف، والعزايم التي أذكرت من مواقف المهاجرين والأنصار ما سلف، والهمم التي نهضنا بها لفتح معاقل الكفار، والجهاد الذي كانت أثارنا فيه من أحسن الآثار، والغزوات التي كان معروفها منكراً، والوقائع التي نصر الله فيها حزب الإيمان فأضحى الدهر ينشر حديثه متعطراً، وشد أزرنا بولدنا الملك السعيد الأجل الكبير العالم العادل ناصر الدين بركة خاقان، أمتع الله الإسلام ببقائه، وأقر عيون المجد بنصر لوائه، وتوسمنا فيه مخايل السعادة بادية الغرر، وظهرت فيه أدلة النجابة، والأدلة إذا ظهرت لا تستتر، وبدت فيه مساع أوجبت له مزية التكريم، وعم فيها فضله فتعين أن يخص بالتعظيم، ولاحت منه إشارات يعرب عن الرشد، وتدل أنه في تدبيره حسن القصد، وسما نور هلاله فاتفقت النفوس أن يكون بدراً كاملاً، ووثقت الآمال أن يرجع حالياً كل ما كان عاطلاً، رأينا أن نفوض إليه حكم كل ما أمضى الله فيه حكمنا من البلاد، وتحققنا أن رائد نظرنا في أمره يصدق فيما اختار من الارتياد. وقلدناه أمر الديار المصرية والبلاد الشامية والقلاع والحصون، وهي: الديار المصرية، البلاد الشامية، البلاد الحلبية، البلاد الحموية، البلاد الحمصية. فهذا الملك إليه ممتد الرواق، ودو نظامه يتزين بحسن الاتساق، ونواحيه مع اتساعها محروسة بهممه، فكأنه خصر اشتمل عليه النطاق، ونعم الله محروسه معه بالشكر، مقيدة عنده بالإطلاق، والدين الحنيفي من عزمه عالي المنار، والنفوس واثقة[1] أن تكون بناصره دائمة الانتصار، وأخبار نصره تحفظها الليالي مما تكرره ألسن العمار، ومهابته تسري إلى قلوب الأعداء فتحول منها الأفكار، والدولة الزاهرة به محاطة[2] الأرجاء، وسحائب إحسانه متدفق الأنواء، وآثار نعمة الله فيها ظاهرة، والله يحب أن يرى على عبده أثر النعماء. والشريعة المطهرة بتأييده نافذة الأحكام، وأمورها مرعية بهممه التي أضحت المعالي أنها لا تنام، وأطلقنا تصرفه وحكمه في الخزائن والأموال، وتعيين الإقطاعات في الغيبة منا والحضور. وأمرنا أن لا يرد أمره في جميع ما يقتضيه رأيه الشريف من الأمور. فبيديه الحل والعقد، وإلى أبوابه ينتهي القصد. فقد أضحى بحمد الله حلية للمجد، والأيام تزهو به كما تزهو الدرر بواسطة العقد، وإليه في الأمور النقض والإبرام. وعليه المعتمد في فصل الأحكام. وإليه ترجع الولاية والعزل، وهو الفرع الذي زكا، ولا يزكو الفرع إلا إذا كان طيب الأصل. ومن شيمته الاقتداء بنا في بسط الإحسان والعدل

(١) في الأصل: «واقفة» وهو تصحيف.

(٢) في الأصل: «مخلصة» وهو تصحيف.

وإحياء سنتنا مما يضفيه على الأولياء من ملابس الفضل، واقتفاء آثارنا في غزو بلاد الكفار، والمجاهدة التي تطول بها أيدي الكماة بالسيوف القصار، وإلى الله نرغب أن يوفقه لمراضيه، ويلهمه رشده فيما يستقبل من أموره، ويمضيه ويؤيده بالنصر الذي تروى أحاديثه وتتلى، ويمده بتوفيقه الذي يرشده من الضلال ناشئاً وكهلاً، ويساعده بالتأييد الذي يستجد له ذكراً خالداً لا يبلى، والظفر الذي تستحلى أحاديثه إذا أعيدت، وإن كان الحديث المستعاد لا يستحلى. ونسأل كل واقف على هذا التقليد أو من يسمع به من الأمراء والنواب والعساكر المنصورة ـ أيدهم الله تعالى ـ امتثال أمره، والقيام بما يجب عليه من طاعته في سره وجهره، والنهوض في خدمة ركابه، والاجتهاد في تسهيل ما يصعب من طلابه، والمسير عند سيره تحت علمه، والالتجاء في السراء والضراء إلى حرمه، والوفود إلى جنابه المنيع المريع، فهو بحمد الله كعبة تحج إليها الآمال، وحرم يخفف ما على الأعناق من أعباء الخدم الثقال. والاعتماد على الخط الشريف أعلاه، وكتب في عاشر صفر سنة سبع وستين وستمائة».

وقرىء هذا التقليد بالإيوان بحضور الأمراء وأعيان الدولة واستمر جلوس الملك السعيد وركوبه.

وفي ثاني عشر جمادى الآخرة، توجه السلطان إلى الشام واستصحب أكابر الأمراء وجماعة من العسكر المنصور، وفي غرة شهر رجب شرع السلطان في النفقة في الأمراء الذين صحبته، ونزل أرسوف لكثرة مراعيها.

ووصل إليه رسل أبغا بن هولاكو، فقرىء على السلطان كتابه، ومعناه الرغبة في الصلح، وأعاد الرسل بالجواب، وكاتب أبغا نظير ما كاتبه به.

ذكر توجه السلطان على خيل البريد إلى الديار متنكراً وعوده إلى مخيمه بخربة اللصوص ولم يعلم من به بتوجهه

قال القاضي عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية عن هذه الوقعة حسبما أملاه السلطان من لفظه: لما خرج السلطان من دمشق، بعد تجهيز رسل أبغا، ودع الأمراء كلهم وتوجهوا إلى الديار المصرية، ولم يبق معه من الأمراء الأكابر غير الأتابك، والمحمدي، والأيدمري، وابن أطلس خان، وأقش الرومي، توجه إلى القلاع، فابتدأ بالصبيبة ومنها إلى الشقيف وصفد، وبلغه وفاة الأمير عز الدين الحلي، فكتب إلى الأمير شمس الدين أقسنقر استاد الدار بالحضور بالأثقال والعساكر إلى خربة اللصوص والعسكر قد خيم بها. وخطر له التوجه إلى الديار المصرية، فكتب إلى النواب بالشام بمكاتبة الملك السعيد والاعتماد على أجوبته، ورتب أنه كلما جاء بريد

يقرأ عليه ويخرج علائم على دروج بيض تكتب عليها أجوبة البريد، واستقرت هذه القاعدة مدة.

وفي رابع عشر شعبان أظهر تشويشاً، وأحضر الحكماء إلى الخيمة، وحصل احتفال ظاهر بهذا الأمر، وأصبح الأمراء فدخلوا وشاهدوا مجتمعاً في صورة متألم، وكتب إلى دمشق باستدعاء الأشربة.

وتقدم إلى الأمير بدر الدين الأيدمري وسيف الدين بكتوك جرمك الناصري، بأنهما يتوجهان إلى حلب على خيل البريد، وودعاه وصحبتهما بريدي، وتوجها في ليلة السبت سادس عشر شعبان، وأوصاهم أنهم إذا ركبوا يحيدون إلى خلف الدهليز ليتحدث معهم مشافهة.

وجهز آقسنقر الساقي في البريد إلى الديار المصرية وأعطاه تركاشه[١] وأمره بالوقوف خلف خيمة الجمدارية خلف الدهليز. ولبس السلطان جوخة مقطعة وتعمم بشاش دخاني عتيق، وأراد أن يخرج ولا يعلم به الحرس، فأخذ قماش نوم لأحد المماليك، وطلب خادماً من خواصه وقال له: ها أنا خارج بهذا القماش فامش أمامي، فإن سألك أحد فقل: هذا بعض البابية[٢] معه قماش أحد الصبيان حصل له مرض وما يقدر يحضر إلى الخدمة هذه الليلة، وهذا غلامه خارج إليه بقماشه.

فخرج بهذه الحيلة، وتوجه إلى الجهة التي واعد آقسنقر إليها. وكان قد سير بهاء الدين أمير آخور ومعه أربعة أرؤس من الخيل، وأمره أن يقف بها في مكان، فتوجه إليه، وأخذ أقسنقر الخيل، وسير بهاء الدين أمير آخور إلى التل فأحضر الأيدمري ورفقته، وساق بهم السلطان وهم لا يعرفونه فلما اختلطوا قال للأيدمري: «تعرفني؟» قال: «أي والله»، وأراد النزول لتقبيل الأرض فمنعه. وقال لجرمك: «تعرفني»، فقال: «إيش هذا يا خوند»[٣]؟ فقال له: «لا تتكلم» وكان معهم علم الدين شقير مقدم البريدية

---

(١) التركاش: لفظ فارسي ومعناه الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٧، ص ٣٠٩ Dozy: Supp. Dict. Ar. Quatremère: op. cit. V 2. P 13. N$^{o"}$ 14.

(٢) البابية: جمع بابا. وهو حسبما ورد في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥، ص ٤٧٠ «لقب عام لجميع رجال الطست خاناه، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك. وهو لفظ رومي معناه أبو الآباء. وكأنه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه، من تنظيف قماشه وتحسين هيئة، أشبه بالأب الشفيق، فلقب بذلك». انظر أيضاً: Quatremère: op. cit, V 2, pp 194 - 195.

(٣) خوند: لفظ فارسي واستعمل أيضاً في اللغة التركية ومعناه: السيد أو الأمير. واستعمل لقباً من ألقاب النساء، وأطلق على زوجة السلطان الأشرف قايتباي. القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٦، ص ٧٧ ـ ٨٨. Dozy: Supp. Dict. Ar..

فصاروا خمسة، معهم أربعة جنائب[١] من خيل السلطان الخاص.

وساقوا إلى جهة مصر، فوصلوا إلى القصير[٢] المعيني نصف الليل، فدخل السلطان ليأخذ فرس الوالي، فقام إليه يهاوشه بأربعين خمسين راجلاً، وقال له: «هذه الضيعة ملك السلطان ما يقدر أحد يأخذ منها فرساً، فإن رحتم وإلا قاتلناكم». فتركوه وتوجهوا إلى بيسان فأتوا دار الوالي وقالوا: «نريد خيلاً للبريد». فقال: «انزلوا خذوا»، فنزلوا، وقعد السلطان عند رجلي الوالي وهو نايم. ثم قال للأيدمري «الخلائق على بابي وأنا على باب هذا الوالي لا يلتفت إلي، ولكن الدنيا نوب». وطلب من الوالي كوزاً فقال: «ما عندنا كوز، إن كنت عطشان، اخرج واشرب» فأحضر له الأيدمري كوزاً شرب منه. وركبوا فصابحوا جينين، فوجدوا خيل البريد بها عرجاً معقرة، فركب السلطان منها فرساً ما كاد يثبت عليه من رائحة عقوره. ولما وصلوا العريش قام السلطان والأمير سيف الدين جرمك ونقيا الشعير. فقال السلطان للأيدمري: «أين السلطنة، واستاد الدار، وأمير جاندار، وأين الخلق الوقوف في الخدمة؟ هكذا تخرج الملوك من ملكهم، وما يدوم إلا الله سبحانه وتعالى».

ووصلوا إلى قلعة الجبل ليلة الثلاثاء الثلث الأول، فأوقفهم الحراس حتى شاوروا الوالي. ونزل السلطان في باب الأسطبل وطلب أمير آخور، وكان قد رتب مع زمام الأدر[٣] أنه لا يبيت إلا خلف باب السر، فدق السلطان باب السر، وذكر علائم[٤] لزمام الأدر، ففتح الباب، وأحضر السلطان رفقته إلى باب السر، وأقام هو وهم يومي الثلاثاء والأربعاء وليلة الخميس لا يعلم بهم أحد إلا زمام الأدر، وهو ينظر إلى الأمراء وغيرهم في سوق الخيل. فلما قدّم الفرس للملك السعيد يوم الخميس قدم أمير آخور للسلطان فرساً. ولما خرج الملك السعيد ما أحس إلا والسلطان قد خرج إليه، فخاف، فلما عرفه قبّل الأرض، وركب السلطان وخرج والوقت مغلس، فأنكر

(١) الجنائب: جمع جنب، وهي الخيول التي كانت تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها. القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٨١.

(٢) القصر المعيني: هو قصر معين الدين بغور الأردن. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٦.

(٣) صحة هذا الاسم المركب «زمام دار». وقد أخطأ النويري وغيره في رسمه أما الزمام دار فتحريف من الزنان دار. وهو لقب على الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان. وهو مركب من لفظين فارسيين. أحدهما: زنان، ومعناه النساء، والثاني: دار، ومعناه ممسك. فيكون المعنى ممسك النساء. بمعنى أنه الموكل بحفظ الحريم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 65. N$^{0''}$ 77.

(٤) في الأصل: علايم. والتصحيح يقتضيه السياق.

الأمراء ذلك ووضعوا أيديهم على قبضات سيوفهم وطلّعوا[١] في وجه السلطان فلما حققوه قبلوا الأرض. وساق السلطان إلى ميدان العيد، وعاد إلى القلعة، فقضى أشغال الناس، ولعب الكرة يوم السبت، وتوجه يوم الأحد إلى مصر لرمي الشواني، وركب في الحراريق.

وسافر ليلة الاثنين على البريد. ولما قربوا من الدهليز المنصور رد الأيدمري وجرمك إلى خيامهم، وأخذ السلطان جراب البريد على يده وفي كفه فوطة، وتوجه راجلاً ودخل من جهة الحراس، فمانعه حارس وأمسك الحارس أطواقه ونتشه، فانجذب منه ودخل من باب الدهليز. وركب عصر يوم الجمعة، وحضر الأمراء إلى الخدمة، فأظهر أنه كان متغلث المزاج، وضربت البشائر بالعافية، ولم يدر بهذه الأمور إلا الأتابك وأستاد الدار وخواص الجمدارية.

وفي هذه السنة في تاسع جمادى الآخرة رسم السلطان بأبطال الخواطي[٢] من القاهرة ومصر والديار المصرية، وأمر بحبسهن وتزويجهن.

وفيها أيضاً وردت الأخبار أن زلزلة حدثت ببلاد سيس[٣] أخربت قلاعها مثل سرفند كار، وحجر شعلان، وقتل بسببها جماعة حتى سال النهر دماً.

ذكر وفاة الأمير عز الدين أيدمر الحلي [الصالحي نائب السلطنة][٤]

لما خرج السلطان لسماع رسالة الملك أبغا خرج الأمير عز الدين المذكور في خدمته، فلما استقر السلطان طلب دستوراً وتوجه إلى دمشق لملاحظة أملاكه، فلما دخل السلطان إلى دمشق أطلق له شيئاً كثيراً، وزار السلطان فقيراً بجبل الصالحية ومعه الأمير عز الدين، فقام عز الدين ليجدد الوضوء، فقال الشيخ للسلطان: «هذا يموت في هذه الأيام ولا يخرج من دمشق»، وكان إذ ذاك كالأسد قوة، فمرض في اليوم الثاني، وتوفي في أوائل شعبان سنة سبع وستين. وحضر ولده[٥] إلى الدهليز بخربة اللصوص فأحسن السلطان إليه وسيره إلى القاهرة. ولما وصل السلطان إلى القاهرة أمره بأربعين فارساً.

(١) هكذا بالأصل. وهي كلمة عامية. أما السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٧، فقد أورد: «ونظروا».
(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٧٨.
(٣) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧٨.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢.
(٥) في الأصل: «ولد». والتصحيح يقتضيه السياق.

وفيها: توفي الأمير أسد الدين سليمان بن الأمير عماد الدين بن داود بن عز الدين موسك[١] الدوادي الهذباني، من بيت الإمرة وله اختصاص كبير بالملوك والتقدم عندهم. وجدّه الأمير عز الدين من أكابر الأمراء الصالحية، وترك أسد الدين هذه الخدم وتزهد ولازم مجالس العلماء، ولبس الخشن من الثياب، وكانت له نعمة عظيمة ورثها من أبيه فأذهبها، ولم يبق له سوى ريع أملاكه، فكانت تقوم بكفايته إلى أن توفي في يوم الثلاثاء مستهل جمادى الأول بدمشق، ودفن بقاسيون، وله شعر حسن، رحمه الله تعالى.

ذكر توجه السلطان الملك الظاهر إلى الحجاز الشريف[٢]

قال: لما قوي عزم السلطان على الحجاز الشريف كتم ذلك، وأنفق ونقى من جيشه، وجرد جماعة صحبة الأمير جمال الدين أقش الرومي السلاح دار، وهم المتوجهون صحبة السلطان، وجرد العساكر التي بقيت صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر أستاد الدار إلى دمشق، فنزلوا بظاهرها.

وتوجه السلطان إلى الكرك في صورة أنه يتصيد، فوصل إلى الكرك في مستهل ذي القعدة، وكان رسم بتجهيز جميع ما يحتاج إليه برسم الحجاز هناك. فسير الثقل في رابع ذي القعدة، وتوجه السلطان في السادس من الشهر إلى الشوبك، وتوجه منه في حادي عشر الشهر، ووصل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، في الخامس والعشرين منه، فزار ورحل في السابع والعشرين. فقدم مكة، شرفها الله تعالى في خامس ذي الحجة، فتصدق بصدقات وافرة وكساوى كثيرة، وبقي كأحد الناس بغير حاجب، ثم غسل الكعبة، وبقي في وسط البيت، ومن رمى له إحرامه غسله له بما ينصب من الماء في الكعبة ويرميه إلى صاحبه، ثم جلس على باب الكعبة وأخذ بأيدي الناس ليطلع بهم إلى الكعبة. وتعلق أحد العوام به، فلم يصل إلى يده لازدحام الناس عليه، فتعلق بإحرامه وكاد يرميه إلى الأرض وهو مستبشر بهذا الأمر، وعلق كسوة البيت الشريف ورفعها بيده على أركان البيت الشريف هو وخواصه. وسبل[٣] البيت الشريف لسائر الناس، وتردد إلى الصالحين. وكان قاضي القضاة صدر الدين سليمان معه في طول الطريق يستفتيه. وكتب إلى صاحب اليمن كتاباً ينكر عليه[٤] أموراً وكتب فيه: «سطرتها من مكة وقد أخذت طريقها في سبع

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٠.
(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢. وكان التسبيل في مقابل مال وغلال أعطيت لأميري مكة.
(٤) في الأصل: «يذكر». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٨١.

عشرة خطوة[١]» يريد بالخطوة المنزلة. وقضى السلطان فرض الحج ومناسكه كما يحب، حلق ونحر، وأحسن إلى أميري مكة، شرفها الله تعالى: الأمير نجم الدين أبي نمي، والأمير إدريس بن قتادة، وإلى صاحب ينبع و[أمير][٢] خليص[٣]، وزعماء الحجاز كلهم. وطلب أميرا مكة نائباً من السلطان، فرتب شمس الدين مروان، وزاد أمراء الحجاز، إلا جماز[٤] ومالك أميري المدينة، فإنهما انتزحا من بين يديه.

وخرج السلطان من مكة، شرفها الله تعالى، في ثالث عشر ذي الحجة، ووصل إلى المدينة في العشرين سنة، وخرج في بكرة النهار الثاني، ووصل إلى الكرك في يوم الخميس سلخ ذي الحجة.

واستهلت سنة ثمان وستين وستمائة[٥]

واستهلت سنة ثمان وستين وستمائة والسلطان الملك الظاهر بقلعة الكرك، فأقام بها حتى صلى الجمعة، وركب من الكرك بعد الصلاة مستهل المحرم في مائة فارس جريدة، وعلى يد كل واحد من أصحابه جنيب، وساق إلى دمشق. فلما قاربها والناس لا يعلمون شيئاً من حاله ولا يجسر أحد يتكلم، سير أحد خواصه في البريد بكتب البشائر[٦] بسلامته وقضاء حجة إلى دمشق. فأحضر الأمير جمال الدين النجيبي الأمراء وغيرهم ليقرأ عليهم كتاب البشرى، فبينما هم في ذلك وقد بلغهم أن السلطان في الميدان. فتوجه إليه الأمير جمال الدين النجيبي فوجد السلطان قد نزل بالميدان بمفرده ووهب فرسه لإنسان من منادية سوق الخيل عرفه وقبل الأرض بين يديه، وحضر الأمراء إلى الخدمة وأكلوا شيئاً، وتوجهوا ليستريح السلطان، فقام وركب في جماعته اليسيرة وتوجه إلى حلب، فعادوا إلى الخدمة فلم يجدوا أحداً. ودخل السلطان حلب والأمراء في الموكب فساق إليهم فما عرفه أحد، وبقي ساعة ثم عرفه الصروري[٧]، فنزل الأمراء وقبّلوا الأرض، ونزل بدار السلطنة بحلب، وشاهد قلعتها، وعاد منها، فوصل إلى دمشق في ثالث عشر المحرم، ولعب الكرة وركب في ليلته وتوجه إلى

---

(١) في الأصل: «سبعة عشر خطوة». وهو خطأ ظاهر.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢.
(٣) خليص: حصن بين مكة والمدينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٧.
(٤) في الأصل: «جما». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢.
(٥) يوافق أولها يوم السبت ٢١ أغسطس، آب ١٢٦٩ م.
(٦) في الأصل: «البشاير».
(٧) وردت هذه النسبة مرات، ولعلها نسبة إلى الصرورات من سواد مدينة الحلة.

القدس والخليل عليه الصلاة والسلام فزار تلك الأماكن المقدسة وتصدق. وكان العسكر[١] المصري قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استاد الدار إلى تل العجول. هذا كله وما غير عباءته التي عليه، وذلك كله في عشرين يوماً. وركب في تل العجول ووصل إلى قلعة الجبل في ثالث صفر.

ثم توجه إلى ثغر الإسكندرية في ثاني عشر صفر ودخل الثغر في الحادي والعشرين من الشهر. وكان الصاحب بهاء الدين [بن حنا][٢] قد سبقه إلى الثغر وجهز الأموال والتعابي من الأقمشة، فخلع على الأمراء وأنعم عليهم بالتعابي والنفقات. ولعب الكرة بالإسكندرية. وخرج منها إلى الحمامات، ونزل باللليونة[٣]، وابتاعها من وكيل بيت المال.

وبلغه حركة التتار فعاد إلى قلعته، فوصل إليها في ثامن ربيع الأول سنة ثمان وستين وستمائة.

ذكر توجه السلطان إلى الشام جريدة[٤]

قال: ولما بلغ السلطان حركة التتار، وأنهم تواعدوا مع فرنج الساحل، وأن التتار أغاروا على الساجور بقرب حلب، وعلى جهة أخرى وأخذوا مواشي العربان، فأراح العسكر وجرد الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار بجماعة من العسكر ليقيموا في أوائل البلاد الشامية. وركب في جماعة يسيرة من قلعته، وذلك في ليلة الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول ووصل إلى غزة، وتوالت الأمطار، فوصل إلى دمشق في سابع شهر ربيع الآخر، ووردت إليه الأخبار برجوع التتار لما بلغهم خروجه، فأغار على عكا، واستولى على بلاد الإسماعيلية على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وأقام السلطان بالشام بقية سنة ثمان وستين وستمائة.

وفي هذه السنة نصب الدرابزين على الحجرة الشريفة النبوية. وذلك أن السلطان لما توجه إلى الحجاز رأى الضريح النبوي والزوار تقف إلى جانب الحائط، فرأى أن يعمل درابزيناً ليكون حرماً حول الحجرة، فأمر بعمله، فعمل وكمل، وسير إلى المدينة في سنة ثمان وستين صحبة الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الخليلي، فنصب.

---

(١) في الأصل: «المعسكر».
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٤، س ٥.
(٣) الليونة: بلدة من أعمال مريوط. ابن دقماق: كتاب الانتصار، ص ١٢٦.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٤.

وفيها: كانت وفاة قاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى بن قاضي القضاة محيي الدين أبي المعالي محمد بن قاضي القضاة زكي الدين أبي الحسن على ابن قاضي القضاة مجد الدين أبي المعالي محمد بن قاضي القضاة زكي الدين أبي الفضل يحيى بن علي بن عبد العزيز العثماني[١]. وكانت وفاته بفسطاط مصر في رابع عشر شهر رجب سنة ثمان وستين. ودفن بالقرافة.

ومولده بدمشق في ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ست وتسعين وخمسمائة، ورئاسته[٢] وأصالته أشهر من أن يأتي عليها.

وفيها: توفي الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي، وزير الصحبة، ضحى يوم الاثنين الحادي والعشرين من شعبان ودفن بكرة نهار الثلاثاء بتربتهم بالقرافة. ومولده في اثنين وعشرين وستمائة بفسطاط مصر، وفوضت وزارة الصحبة بعده لولده الصاحب تاج الدين محمد.

وفيها: توفي الصاحب الوزير زين الدين أبو يوسف يعقوب بن عبد الرفيع بن زيد الزبيري، المعروف بابن الزبير نسبة إلى الزبير بن العوام[٣] الأسدي رضي الله عنه. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء رابع عشر شهر ربيع الآخر. ومولده سنة ست وثمانين وخمسمائة. وكان عالماً فاضلاً رئيساً يتكلم باللغة التركية. وزر للملك المظفّر فظفر، ثم وزر بعده للسلطان الملك الظاهر أياماً، ثم عزله، فلزم داره إلى أن مات رحمه الله تعالى، وكان له شعر حسن رقيق.

وفيها: توفي الشيخ الإمام الخطيب أصيل الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن عمر بن علي العوفي الأسعردي المولد. قدم دمشق في الدولة الصالحية وولي الخطابة بها. ثم عزل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعاد ثم عزل بالقاضي عماد الدين بن الحرستاني. وانتقل إلى الديار المصرية صحبة الملك المظفّر في سفرته التي قتل فيها. وتولى خطابة الجامع الصالحي خارج بابي زويلة. وتولى نيابة الحكم بالشارع الأعظم نيابة عن قاضي القضاة بدر الدين السنجاري. واستمر على الخطابة والحكم إلى أن توفي في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وستين في

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٩.

(٢) في الأصل: «ورياسته».

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد، أبو عبد الله. صحابي شجاع أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سلّ سيفه في الإسلام. قتل يوم الجمل بوادي السباع، الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٧٢، أبي نعيم: حلية الأولياء، ج ١، ص ٨٩.

بيت الخطابة قبل صلاة الجمعة، وجاء رئيس[1] المؤذّنين كما جرت العادة فوجده ساجداً وعليه ثياب الخطابة وقد قضى نحبه، فأحضر ولده في تلك الساعة وأعلم بموت والده، فطلع المنبر وخطب وصلى بالناس. ودفن الخطيب في بكرة يوم السبت بسفح المقطم بقرافة سارية. وكان لطيفاً حسن العبادة والصوت. وله تصانيف ونظم ونثر، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة تسع وستين وستمائة[2]

في هذه السنة، توجّه السلطان إلى عسقلان[3] في سابع صفر فهدمها[4] وعفى آثار عمارتها ورمى حجارتها في ميناها، وعاد فوصل إلى قلعته في ثامن شهر ربيع الأول.

وفيها: هلك الملك المجير هيتوم بن قسطنطين صاحب سيس[5]، ووردت مطالعة ولده ليفون في سابع عشرين شهر ربيع الأول مضمونها: أنه لما كان في خامس عشرين تشرين الأول ترهب والده وانتقل إلى الدير وخرج عن أمور الدنيا. فلما كان في نهار الثلاثاء ثامن عشرين تشرين الأول وهو حادي وعشرين ربيع الأول مات وقت مغيب الشمس، وسأل شموله بالمراحم السلطانية في ضمه إلى جناح الرحمة، فكتب بتعزيته بأبيه وتهنئته بما صار إليه من الملك، وإطابة قلبه.

ذكر القبض على الملك العزيز فخر الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك والأمراء الشهرزورية[6]

قد ذكرنا أن السلطان لما تسلم الكرك من المشار إليه بعد القبض على والده أمّره بمائة فارس. واستمر المذكور في الخدمة الشريفة ولازم السلطان في أسفاره وغزواته. وكان يلعب معه بالكرة، ويحضر معه في أوقات الصيد وغير ذلك من مشاهده العامة. وظهرت منه شهامة، وأحسن رماية النشاب وأخذ نفسه في ذلك بمأخذ الفرسان

---

(١) في الأصل: «ريس». والتصحيح يقتضي السياق.

(٢) يوافق أولها يوم الأربعاء ٢٠ أغسطس/آب عام ١٢٧٠ م.

(٣) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر، بين غزة وبيت جبرين. ويقال لها عروس الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٢٢.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٠.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٧، حاشية رقم (٥).

(٦) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٩٥.

الشجعان. ولما كان السلطان على هدم عسقلان أفرد له جانباً يهدمه، فمر السلطان عليه في بعض الأيام وهو قائم يستعمل الرجالة ويحثهم على الهدم ويجتهد فيما هو فيه. فبينما السلطان ينظر إليه ويتأمله إذا انهدم ما تحته من البناء فوثب من مكانه وألقى نفسه إلى الأرض ووثب أخرى فسلم والسلطان ينظر إليه. فعجب السلطان من اهتمامه مع حداثة سنه. ثم عاد إلى ما كان عليه من الهدم ولم يتأثر لذلك. وبينما السلطان في أواخر هدم عسقلان ورد عليه كتاب نائبه الأمير بدر الدين الخزندار يستحثه على العود إلى قلعة الجبل، ويعلمه أنه لا يأمن وثوب الأمراء الشهرزورية، وأن قدرته تضعف عن مقاومتهم في غيبة السلطان. وحال ورود كتابه أمر الناس بالرحيل ورجع لوقته إلى الديار المصرية. ولما رجع رمى الملك العزيز بقرة وحش بيده في أثناء الطريق وحملها إلى السلطان والأمير شمس الدين سنقر الأشقر وغيره من الأمراء عنده. فقال السلطان للأمير شمس الدين المذكور: انظر إلى هذا الصغير وما هو عليه، والله ما يقصر!. فقال له سنقر الأشقر: لقد ربيت حية صغيرة بين ثيابك تنتفع بها إذا كبرت. وكان سنقر الأشقر يكرهه لقبض أبيه عليه وتسليمه للملك الناصر واعتقاله كما تقدم، فأراد مكافأته في ولده. ولما وصل السلطان إلى قلعة الجبل في ثامن شهر ربيع الأول، كما تقدم، نزل إلى الميدان في يوم الثلاثاء الثاني عشر من الشهر ولعب بالكرة، ودخل الملك العزيز على عادته إلى الميدان ولعب بالكرة، فجاء الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ليأخذ الكرة منه، والملك العزيز مجتهد في ضربها، ورفع جوكانه ليضربها فوقع في رأس الأمير شمس الدين ولم يقصد ذلك، فكاد أن يسقط إلى الأرض لولا [أن][1] اعتنق عنق فرسه حتى سكن ما به من ألم الضربة. فجاء السلطان إليه وهو يمازحه، فقال له: «كاد هذا الصغير أن يرميك عن فرسك حتى اعتنقت رقبته». فنظر إلى السلطان وقال: «والله إن كان اليوم ما رماني، فغداً يرميك أنت، وهذا الصبي والله لك بئس الذخيرة». فلما كان في يوم الخميس رابع عشر الشهر جلس السلطان في مجلسه واستدعى الأمراء الشهرزورية وهم عشرة منهم: الأمير بهاء الدين يعقوبا[2]، وتوتل، وسنقران وقبض عليهم، وقبض على الملك العزيز معهم واعتقلوا، ثم أحضر الأمراء الشهرزورية وغيرهم وقررهم، فاعترفوا أنهم قصدوا قتل الملك السعيد ابنه، وقيامهم بالأمر فإن أطاعهم الناس وإلا أقاموا الملك العزيز، فسألهم: «هل كان هذا الأمر عن مباطنته»؟ فحلفوا أنه لم يطلع على ما عزموا عليه ولا باطنهم فيه. واستمر الملك العزيز في الاعتقال إلى آخر أيام الملك السعيد عندما حوصر بالقلعة فأفرج عنه وعن

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٥، س ٧.

الأمراء الشهرزورية وغيرهم. وكان قد رزق أولاداً في اعتقاله في الدولة الظاهرية، فلما أفرج عنه الملك السعيد أمره أن ينصرف في حال نفسه ويتوجه إلى الأمراء إن أحب ذلك، أو يقيم بالقلعة إلى أن ينفصل الأمر. وخرج بعض من أفرج عنهم إلى الأمراء فقبضوا عليهم واعتقلوهم، فخشي الملك العزيز من ذلك فسأل أن يرجع إلى معتقله، ويقيم مع أولاده فرجع إليهم، فاستمر في الاعتقال إلى أن ملك الملك الأشرف خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاون فأفرج عنه في سنة تسعين وستمائة[١] على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ولنرجع إلى سياقة أخبار الدولة الظاهرية:

وفي عاشر جمادى الآخرة من السنة توجه السلطان إلى الشام وصحبته ولده الملك السعيد[٢]، فكان دخول الملك السعيد إلى دمشق في ثامن شهر رجب. وخرج هو والأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة. وكان السلطان قد توجه من جهة بعلبك ووصل إلى طرابلس، فأغار وقتل وفتح صافيتا وحصن الأكراد[٣] وحصن عكا وبلاد الإسماعيلية، وغير ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها في تاسع شوال: دخل الشيخ خضر شيخ السلطان إلى دمشق، وجاء إلى كنيسة اليهود وأخرجهم منها وجعلها زاوية، وعمل لأصحابه بسيسة عشرة قناطير بالدمشقي، فأكلوا منها، وحضر المغاني تعمل سماعاً ورقصوا على بقية البسيسة بأرجلهم، فما أفلح بعد ذلك. فاجتمع اليهود وخرجوا عن مظالم كانت بينهم، ورفعوا أصواتهم بالدعاء وقالوا: «يا محمد بن عبد الله، نحن في ذمتك وعهدك، لا دولة لنا ولا سلطان، فانتصر لنا». فكانت حادثة السيل، وخروج الشيخ خضر من الكنيسة على صورة منكرة.

---

(١) الموافق ١٢٩١ م.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٠، س ١٦، ٥٩٢ ـ ٥٩٣.

(٣) كتب السلطان بيبرس بعد تسلم حصن الأكراد إلى رئيس فرسان الاسبتار، خطاباً أورده العيني في عقد الجمان، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ وهذا نصه:

«إلى إفرير أول، جعله الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يعاند من سخّر لجيشه النصر والظفر، ولا يعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقدر ولا يحمى منه محجور البناء ولا مبنى الحجر. نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وخليته، وكنت الموفق لو أخليته، وتكلفت في حفظه على أخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك. وما كانت هذه العناصر تنزل على حصن ويبقى أو يخدم سعيداً ويشقى». ففي هذه الجملة الأخيرة تورية، فإن المقصود بلفظ «سعيداً» هنا، ابن السلطان بيبرس وولي عهده. وهو الذي حاصر الحصن فعلاً. أما رئيس هيئة الفرسان الاسبتار تلك السنة فهو (Hugh Revel) انظر: King: op. cit. p 271.

ذكر حادثة السيل بدمشق(١)

وفي ثاني عشر شوال سنة تسع وستين وستمائة، وهو يوم عيد عنصرة اليهود، جاء سيل عظيم إلى دمشق في الساعة الثامنة من النهار، وعلا على سور دمشق قدر رمح، وفي بعض المواضع أحد عشر ذراعاً، ودخل في باب الفراديس بعد أن خرب جسره، وأخرب جسر بابي السلامة وتوما، ووصل إلى المدرسة الفلكية وصار فيها مقدار قامة وبسطة. واستمر ثلاثة ساعات من النهار وهبط. وكان مبدأ هذا السيل أنه انعقد على جبال بعلبك غيم متكاثف فسمع لرعده دوي هائل في يوم السبت حادي عشر شوال، وكان بذلك الوادي ثلوج كثيرة، فوقع المطر على الثلوج فحلها، وسال في يوم الأحد من جهة عين الفيجة بعد أن رمى فيها صخوراً عظيمة ساقها بين يديه، واقتلع أشجار جوز عادية، وانتهى إلى دمشق وخرب عدة كثيرة من دور العقبية، وخرب حيطان الميدان وقطاير(٢) البساتين، وأهلك خلقاً كثيراً من الروم والعجم كانوا قد قدموا حجاجاً ونزلوا بالميدان فغرقوا عن آخرهم هم وجمالهم ودوابهم، وأغرق من الحيوانات على اختلاف أجناسها مما لا يعد كثرة، وردم الأنهار بطين أصفر، واقتلع الأشجار من أصولها. ودخل السلطان بعد ذلك بأيام إلى دمشق فما وجد بها ماء ولا حماماً يدور، وشرب الناس من الصهاريج والآبار. ويقال إنه هلك بهذا السيل عشرة آلاف نفس، وأخذ الطواحين بحجارتها.

وحكي أن فقيراً يعرف بالخبر حضر(٣) إلى دار نائب السلطنة بدمشق قبل هذه الحادثة وقال: «عرفوا الأمير أني أريد أن أعدو إلى بعلبك». فقال له الأمير: «رح، اجر». وضحكوا منه. فتوجه، وعاد وهو ينذر الناس بالسيل. فضحكوا منه ولم يعبأوا بكلامه. فما أحسّوا إلا والسيل قد هجم.

وفي هذه السنة: عزل قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان عن قضاء دمشق، وخرج منها في ذي القعدة. وكانت مدة ولايته عشر سنين سواء. وقلد القضاء بعده بالشام قاضي القضاة، عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر المعروف بابن الصايغ. وكان تقليده قد كتب والسلطان على طرابلس، وتأخر إلى أن حضر السلطان إلى دمشق، وكان وصول السلطان إلى دمشق في يوم الأربعاء خامس عشر شوال(٤).

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٦.
(٢) القطاير: جسور تستعمل في ري البساتين. الفيروزابادي: القاموس المحيط، مادة: قطر.
(٣) في الأصل: «حصر». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٣.

ذكر سفر الشواني[١] الإسلامية إلى قبرس وكسرها وأسر من كان بها وخلاصهم

وفي شوال سنة تسع وستين وستمائة: كتب السلطان من الشام إلى الديار المصرية بتسفير الشواني لقصد قبرس[٢]، فأشار ابن حسون برأي كان بئس الرأي، وهو أنه قال: «لو دهنت الشواني سواداً تشبهاً بشواني الفرنج، وعملت لها أعلام بصلبان حتى إذا دخلت إلى بلاد الفرنج يعتقدونها لهم، فتغتنم الغرة منهم» فاتبع رأيه. وتطاير الناس بذلك، وسافرت الشواني فانكسرت بالقرب من قبرس. فورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان وفيه تقريع: «إن الشواني كسرها الريح وأخذتها، وهي أحد عشر شينياً، وأسرت من فيها». فكتب السلطان إلى الديار المصرية وهو بالشام بإنشاء عشرين شينياً، وإحضار خمس شواني كانت بقوص. وأجاب [السلطان][٣] صاحب قبرس بتقريع وتوبيخ، ويعلمه أنه فتح القرين، في كلام كثير تركنا إيراده اختصاراً. وبقي القواد في الأسر هم والرماة. ففادى بهم الفرنج أسرى، وبقي الاحتياط على الرؤساء وهم ستة نفر، منهم ريس الإسكندرية، وريس دمياط، وأبو العباس المغربي وغيرهم. واستمروا في الأسر إلى سنة ثلاث وسبعين وستمائة. وقصد السلطان ابتياعهم وسير الأمير فخر الدين المقري الحاجب إلى صور بسبب ذلك، فتعالى الفرنج فيهم. وكانوا قد نقلوا إلى عكا وحصل الاحتراز عليهم، وجعلوا في حبس حصين. فرسم السلطان للأمير سيف الدين بن خطلبا ـ أحد النواب بصفد ـ بسرقتهم، فأرغب الموكلين بهم بالمال حتى دخلوا إليهم بمبارد ومناشير، وسرقوا من جب القلعة، وخرجوا في مركب. وكانت خيل مهيأة، فركبوا ووصلوا إلى القاهرة ولم يدر بهم أحد بعكا. ثم قامت فتنة بعكا بسببهم[٤].

---

(١) الشواني: جمع شيني أو شينية. وهي سفن حربية كبيرة. ويظهر أن الشواني كانت أكبر السفن الحربية استعمالاً في مصر. انظر: الخطط للمقريزي، ج ٢، ص ١٩٤ ـ ١٩٥، وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) أصل مشروع غزو قبرس: أنه بلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص ركب بجيشه إلى عكا نجدة لأهلها، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة، فبعث جيشاً كثيفاً من ستة عشر شينياً لأخذ جزيرة قبرس في غيبة صاحبها. انظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٣.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٣ ـ ٥٩٤.

ذكر عود السلطان إلى قلعته ووصول رسل اليمن واهتمامه بأمر الشواني، وما أنعم به من الخلع والخيول على الأمراء والأجناد

قال: وسار السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعة الجبل في ثاني عشر ذي الحجة سنة تسع وستين، وعند وصوله جهز الأمير شمس الدين آقسنقر استاد الدار بالعساكر إلى الشام، فخرجوا في الشهر المذكور.

ووصلت هدية صاحب اليمن في الشهر [المذكور][1] وفيها التحف الثمينة وفيل ودب أسود.

ووالي السلطان النزول إلى مصر بنفسه والأمراء في خدمته لمباشرة عمل الشواني.

وفي الشهر المذكور خلع وفرق بالميدان على ألف وسبعمائة نفر من الأمراء والحلقة أثمان خيل، وفرق ألفاً وثمانمائة وخمسين رأساً، وذلك في ثاني عشرين الشهر، ثم أعاد العطاء في الثالث والعشرين منه حتى فرغ الناس وعمهم بالعطاء، ولازم صناعة الإنشاء عدة أيام بسبب الشواني.

ذكر القبض على من يذكر من الأمراء[2]

وفي هذه السنة في خامس عشر ذي الحجة أمر السلطان بالقبض على جماعة من الأمراء، منهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير، والأمير جمال الدين أقش المحمدي، والأمير جمال الدين أيدغدي الحاجبي الناصري، والأمير عز الدين إيغان الركني سم الموت، والأمير شمس الدين سنقر المساح، والأمير سيف الدين بيدغان[3] الركني، والأمير علم الدين سنجر طرطح[4] الآمدي وغيرهم، وحبسوا في قلعة الجبل.

وسبب ذلك أن السلطان بلغه عنهم وهو بالشقيف أنهم قد عزموا على القبض عليه، فأسرها في نفسه إلى أن وصل إلى القاهرة وقبض عليهم واعتقلهم، ثم أفرج بعد ذلك عن بعضهم.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٥.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٥، س ٦ - ٧.
(٣) في الأصل: «بيغان». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٩٥، س ١٠.
(٤) في الأصل: «طردح». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٩٥، س ١٠.

وفيها: في سابع عشر ذي الحجة تقدم أمر السلطان بإراقة الخمور[١] في سائر بلاده، والوعيد لمن يعصرها بعد ذلك بالقتل والنهب. فأهريقت بأعمال بالديار المصرية وأبطل ضمانها، وكان في كل يوم بالديار المصرية خاصة يزيد على ألف دينار، وكتب بذلك توقيع قرىء على الناس بالقاهرة ومصر.

وفي هذه السنة: أمر السلطان بإنشاء جامع بمنشاة المهراني، وهي التي على نهر النيل، والخليج الحاكمي فارق بينهما وبين مصر، فَعُمِّرَ.

وفيها: توفي قاضي القضاة الشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي المالكي، قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية[٢]. وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأحد الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وستين وستمائة. ودفن من الغد بمقابر باب النصر. ومولده بالصالحية من الأعمال القليوبية في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وخمسمائة. وكان رحمه الله تعالى عالماً، وكان قد ولي الحسبة بالقاهرة مدة وعقود الأنكحة، ثم ولي نيابة الحكم بالقاهرة عن قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز. ثم فوض إليه القضاء أحد الأربعة كما تقدم ذكر ذلك، رحمه الله تعالى. وولي بعده قضاء المالكية القاضي نفيس الدين أبو البركات محمد بن القاضي المخلص هبة الله بن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر.

وفيها: أيضاً توفي القاضي شمس الدين أبو إسحاق إبراهيم بن المسلم بن هبة الله ابن البارزي قاضي حماه الشافعي، رحمه الله، وولي قضاء حماه في سنة اثنتين وخمسين وستمائة، واستمر إلى أن توفي الآن.

وفيها: كانت وفاة الملك الأمجد تقي الدين أبي الفضائل عباس ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. وهو آخر من مات من أولاد الملك العادل، وكان محترماً عند الملوك الأيوبية، معظماً عند السلطان الملك الظاهر، لا يرتفع عليه أحد في المجلس ولا الموكب. وكان رحمه الله دمث الأخلاق سمحاً كريماً عاقلاً حازماً. وكانت وفاته بدمشق في يوم الجمعة ثاني عشرين جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون، وليس له عقب.

وفيها: توفي القاضي كمال الدين أبو السعادات أحمد ابن الوزير فخر الدين الأعز أبي الحمايل مقدام بن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر. كان أحد الأكابر المشهورين بالديار المصرية متأهل للوزارة وغيرها. وهو خال قاضي

---

(١) انظر السلوك، ج ١، ص ٥٩٥، س ١٣ ـ ١٤.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٦.

القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، رحمهما الله تعالى، وكانت وفاته بالقاهرة في السادس والعشرين من شهر رمضان. ودفن من الغد من يوم وفاته بسفح المقطم، وكان يومئذٍ ناظر بيت المال، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الأمير علم الدين سنجر الصيرفي[١] وكان من أعيان الأمراء بالديار المصرية، فلما تمكن السلطان الملك الظاهر أخرجه إلى الشام وأقطعه إقطاعاً جيداً وزاده عدة قرى ببعلبك، فتوجه إليها، فمات في يوم الأربعاء سادس صفر وهو في عشر الستين رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الشيخ العارف قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين المرسي الزقوطي[٢]، أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم، وله تصانيف عدة وجماعة كثيرة ينسبون إليه، وأقام بمكة سنين كثيرة إلى أن توفي بها في الثامن والعشرين من شوال من هذه السنة، ومولده في سنة أربع عشرة وستمائة. والزقوطي نسبة إلى حصن من عمل مرسية يسمى زقوطة، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي العدل الرئيس زين القضاء أبو المكارم عبد الوهاب ابن[٣] القاضي الرئيس فخر القضاء أبي الفضائل أحمد بن المرتضى بن عبد الله محمد بن الجليس أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين بن عبد الله بن الحباب التميمي السعدي الأغلبي، سمع وحدّث، وهو من بيت الرياسة والعدالة والفضل بالديار المصرية منذ سكنوها، وهم من ذرية زيادة الله بن الأغلب آخر ملوك بني الأغلب بأفريقية.

وكانت وفاته بمصر في التاسع والعشرين من جمادى الأول من السنة. ومولده في غرة المحرم سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفيها: توفي الطواشي الأمير شجاع الدين مرشد الخادم المظفّري عتيق صاحب حماه ومقدم جيشها، وكان من الشجعان الأبطال، وكان إذا حمل في جيش العدو يقول: أين أصحاب الخِصَى. وكان السلطان الملك الظاهر يعتمد عليه لأمانته وشجاعته. وكان يتصرف في المملكة الحموية تصرف ملوكها للوثوق به.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٦، س ١١.

(٢) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ابن سبعين الإشبيلي، أبو محمد. من زهاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٢٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٣٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٦١.

(٣) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

واستهلت سنة سبعين وستمائة[١]

ذكر توجه السلطان إلى الكرك ثم إلى الشام وعزل الأمير جمال الدين النجيبي عن نيابة دمشق وتولية الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك نيابة السلطنة بالشام واستنابة الأمير علاء الدين أيدكن أستادالدار بالكرك

وفي سنة سبعين وستمائة: بلغ السلطان أن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وغيره من العربان تغيرت نياتهم وعزموا على الانضمام إلى التتار. فعلم أنه إن استدعاهم لا يحضرون وينكشف الحال، وإن قصد الشام تسحبوا، فنزل إلى الميدان في سابع المحرم وفرق على خواصه أربعمائة ألف درهم، واثني عشر ألف دينار عيناً، وستين حياصة ذهباً، وأمر بتجهيز العساكر إلى عكا بعد الربيع. وتوجه السلطان من قلعته بعد المغرب من ليلة تسفر عن سابع وعشرين المحرم في جماعة يسيرة من خواصه، وخرج من الزعقة[٢] في البرية إلى الكرك وأخفى مقصده، فوصل في سادس صفر، وطلع إلى قلعة الكرك، وكتب تقليد الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك بنيابة الشام، ولم يعلمه بذلك [حتى تسلم أيدكين نيابة الكرك][٣] بل أفهمه أنه يستنيبه بحصن الأكراد، وتوجه إلى دمشق فوصل إليها في ثالث عشر الشهر وسير للأمير جمال الدين النجيبي [نائب دمشق][٤] تشريفاً وأمره أن يتوجه إلى الديار المصرية، وولي الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نيابة السلطنة بالشام. وركب السلطان في ليلة سادس عشر صفر وتوجه إلى حماة ونزل بظاهرها بالجوسق، ونزل صاحب حماة في خيمة أسوة الناس، ورتب استاد داره وأمير جانداره وحواشيه في خدمة السلطان لأنه كان جريدة. فكان أول ما شرع فيه أمر العربان. وكان سبب نفورهم أشياء من جملتها أخذ أولادهم رهائن.

ولما وصل إلى حماه وجد عثمان بن مانع وعمرو بن مخلول وجماعة من أكابر العربان بغتة فأكرمهم، وما أظهر لهم شيئاً، وكتب إلى الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا يطلب منه فرس فلان، والفرس الفلاني تسكيناً له، وكان عيسى قد كتب إلى السلطان قبل خروجه من الديار المصرية يستأذن في الحضور خديعة، فخدعه السلطان

---

(١) يوافق أولها يوم الأحد ٩ أغسطس/آب ١٢٧١ م.

(٢) الزعقة: بلدة واقعة قرب الحدود بين مصر والشام، يمر بها القاصد من مصر إلى الكرك . Demombynes: La Syrie, p 6, N0" 2

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٨.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٨.

ورسم أن لا يحضر حتى يطلب. فكتب إليه الآن: «إنك كنت طلبت الحضور، ونحن الآن بحماه، فإن أردت الحضور فاحضر». فحضر فسأله السلطان عما نقل عنه العربان، فاعترف به، فرعى له حق الصدق. وأحسن إليه وإلى أمراء العربان، وأطلق رهائنهم، وأطلق لعيسى نصف خبزه الذي كان أخذه منه في سنة ثمان وستين من سلمية وغيرها، وهو مائة ألف وثلاثون ألف درهم، وأطلق له من حلب ألف مكوك غلة إنعاماً، وأطلق لغيره من العربان من خمسمائة مكوك إلى ما دونها.

وفي مستهل شهر ربيع الأول، ركب السلطان من حماه بعد العشاء الآخرة ولم يعلم بقصده، وسار على طريق حلب، ثم عرج [من شيزر][١] فأصبح بظاهر حمص، وتوجه إلى حصني الأكراد وعكار فكشفهما[٢]، وتوجه إلى دمشق.

وورد الخبر أن جماعة من التتار أغاروا على عين تاب[٣]، وتوجهوا إلى عمق حارم[٤] في نصف شهر ربيع الأول، فكتب [السلطان][٥] إلى الديار المصرية بتجريد الأمير بدر الدين بيسري بثلاثة آلاف فارس، وتوجه بذلك صارم الدين المشرقي، وخرج من دمشق الثالثة من نهار الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأول، ودخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادي عشرينه، فخرج الأمير بدر الدين بيسري والعسكر بكرة نهار الأربعاء المذكور.

ووصل الأمير شمس الدين استاد الدار بالعسكر المجرد وكانوا على جينين وهم خمسمائة فارس. وكان التتار قد أغاروا على حارم والمروج وقتلوا جماعة، وتأخر ابن مجلي والعسكر الحلبي إلى حماه، وجفل أهل دمشق، وبلغت قيمة الجمل ألف درهم، وأجرته إلى مصر مائتي درهم.

ووصل الأمير بدر الدين بيسري والعسكر إلى دمشق في رابع شهر ربيع الآخر، وتوجه السلطان بالعسكر إلى حلب، وجرد الأمير شمس الدين أستادالدار وجماعة معه إلى مرعش[٦]، وجرد الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري والأمير شرف الدين

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٩، س ١٣.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٩، س ١٤: «وكشف أمورهما».

(٣) عين تاب: قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٦.

(٤) عمق حارم: حصن حصين تجاه أنطاكية. وهي الآن من أعمال حلب. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٦٠٠.

(٦) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٠٧.

عيسى بن مهنا إلى حران[١] والرها[٢]، فتوجها ووصلا إلى حران، فاتصل الخبر بمن فيها من نواب التتار فخرجوا فالتقاهم الأمير شرف الدين عيسى وطاردهم وطاردوه، ثم وصل العسكر فخرج عليهم كمينه، فلما رأوه نزلوا عن خيولهم، وقبلوا الأرض، وألقوا سلاحهم، فقبضوا عن آخرهم، فكانوا ستين رجلاً. ثم سار الأمير علاء الدين طيبرس إلى حران، فلما أشرف عليها أغلق من فيها أبوابها وتركوا باباً واحداً، فخرج منه الشيخ محاسن أحد أصحاب الشيخ حياة ومعه جماعة كثيرة، وذلك في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الآخر، وأخرج لهم طعاماً قليلاً لأجل البركة، فتلقاه الأمير علاء الدين وترجل له. فلما اجتمع به أخرج له الشيخ مفاتيح حران وقال له: «هذا بلد السلطان فتسلمه». فقال له: «طيب قلوب الجماعة ويكونون[٣] على ما هم عليه إلى أن يصل السلطان». وعصى برج باب يزيد وفيه شحنة التتار فطلبه فامتنع، وقال: «إذا جاء السلطان خرجت إليه»، فعاد الأمير علاء الدين طيبرس ولم يدخل حران، وعبر الفرات سباحة.

وبعد توجهه فارق أكابر أهل حران البلد ووصلوا إلى دمشق مثل: أمين الدين بن شقير، وخطيبها الشيخ شهاب الدين بن تيمية، وأولاد بشر، وابن علوان وغيرهم. وأقام جماعة كثيرة من أهل حران بحلب وحماه وحمص، وتفرقوا في البلاد، وبقي جماعة بحران.

فلما كان في الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة، وصل جماعة من التتار إلى حران، فأخربوا أسوارها وأكثر أسواقها ودورها ونقضوا جامعها وأخذوا أخشاب سقوفه، واستصحبوا معهم من بقي فيها، فخرجت وأخليت ودثرت إلى الآن. وكان من المدن الجليلة.

ذكر عود السلطان من حلب ورجوعه إلى الديار المصرية وعوده إلى الشام[٤]

وفي آخر شهر ربيع الآخر بلغ السلطان أن الفرنج أغاروا على قاقون[٥]، وقتل الأمير حسام الدين استاد الدار، وجرح الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق وجرح

(١) مدينة على طريق الموصل والشام. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٢) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٦.

(٣) في الأصل: «ويكون».

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١.

(٥) قاقون: حصن بفلسطين قرب الرملة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٩٩.

[بجكا العلائي][(١)] والي قاقون. فرحل السلطان من حلب، ودخل دمشق وبين يديه التتار الذين أسروا من حران. وأما الفرنج لما قصدهم العسكر المجرد بقاقون تأخروا عنها، ووصل الأمير جمال الدين أقش الشمسي بعسكر عين جالوت، فولوا مدبرين، ولحقهم العسكر واسترجع منهم تركماناً، وقتل من رجالتهم وعرقب من خيولهم [خمسمائة رأس][(٢)]. وخرج السلطان من دمشق في ثالث جمادى الأول وصحبته العساكر بنية الغارة على الفرنج، وقصد عكا فتوالت الأمطار وهو على مرج برغوث حتى كاد الناس يهلكون [لعدم ما يستظلون به][(٣)]. فانثنى عزمه عن الإغارة. ورد العسكر الشامي وصار إلى الديار المصرية. فوصل إلى قلعة الجبل في الثالث والعشرين من جمادى الأول وأقام بقلعته أياماً.

ثم توجه إلى الجيزية للتنزه في يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة في جماعة من أمرائه وخواصه، فحضر إليه مطالبيه، وأخبروه أن بناحية بوصير السدر من الجيزية مغارة بها مطلب. فتوجه إليها وأمر بحفرها. فجمع متولي الجيزية جماعة، فحفروا وأعمقوا، فأخرجوا قطاطاً ميتة، وكلاب صيد، وطيوراً وغير ذلك من الحيوانات، وهي ملفوفة في خرق، فإذا حلت اللفائف عنها وأصابها الهواء صارت تراباً تذروه الرياح، ولم يوجد فيها خلاف ذلك. وعاد السلطان من الجيزية في يوم الثلاثاء العشرين من الشهر.

ذكر إيقاع الحوطة على القاضي شمس الدين الحنبلي واعتقاله[(٤)]

وفي سنة سبعين وستمائة: أمر السلطان بإيقاع الحوطة على منزل قاضي القضاة شمس الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسي الحنبلي.

وسبب ذلك أن تقي الدين شبيب الحراني كان أخوه ينوب عن قاضي القضاة المشار إليه بالمحلة[(٥)] فعزله، فغضب أخوه المذكور لذلك، وكتب رقعة إلى السلطان يقول: «إن القاضي شمس الدين عنده ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام وغيرهم جملة كثيرة، وقد مات بعض أهلها واستولى عليها». فاستدعاه السلطان وسأله

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٢، س ١٨.
(٥) المحلة: مدينة مشهورة بالديار المصرية. وهي عدة مواضع، منها محلة دَقَلا وهي أكبرها وأشهرها، وهي بين القاهرة ودمياط. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٦٣ ـ ٦٤.

عن ذلك فأنكره وجحد، فطلب منه اليمين فحلف وتأول يمينه. فعند ذلك أمر السلطان بهجم داره، فهجمت ووجد فيها كثير مما ادعاه شبيب، بعضه قد مات أربابه، فأخذت زكاة ما وجد مدة سنتين. وسلم ما بقي لأصحابه. فغضب السلطان عند ذلك على قاضي القضاة، وأمر باعتقاله، وتوجه السلطان إلى الشام وهو في الاعتقال، فتسلط شبيب عليه حينئذٍ وادعى أنه حشوي وأنه يقدح في الدولة. وكتب بذلك محضراً، فأمر الأمير بدر الدين الخزندار نائب السلطنة بعقد مجلس، فعقد له يوم الاثنين حادي عشر شعبان من السنة واستدعى من شهد في المحضر، فنكل بعضهم عن الشهادة فأطلقوا، وشهد الباقون، فأخرق بهم وجرسوا. ثم تبين للأمير بدر الدين الخزندار تحامل شبيب لما ظهر له من إساءته على القاضي شمس الدين والقدح فيه، فأمر باعتقاله والحوطة على موجوده. وأعاد القاضي إلى الاعتقال فاستمر به إلى أن أفرج عنه في النصف من شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة، [ولم يول السلطان بعده قضاء الحنابلة أحداً][١].

ذكر توجه السلطان إلى الصيد ثم إلى الشام[٢]

قال: ولما عاد السلطان من الجيزية، أقام بقلعة الجبل إلى شهر رجب من هذه السنة، وخرج متصيداً إلى جهة الصالحية، فبلغه حركة التتار فرجع إلى القلعة وتجهز.

وخرج إلى الشام في ثالث شعبان من السنة، ونزل بمرج قيسارية وحصلت الهدنة مع الفرنج.

ونزل السلطان بمنزلة الروحاء[٣] وعيّد بها عيد الفطر، ورحل منها في ثاني شوال إلى خربة اللصوص، ثم توجه إلى دمشق.

ووردت رسل التتار، وهم رسل صمغار مقدم عسكر التتار بالروم، ورسل البرواناه، فحضروا بين يدي السلطان وسمع مشافهتهم، وتضمن الكتاب الذي على أيديهم الرغبة في الصلح وطلب رسل من السلطان. فجهز إليهم الأمير مبارز الدين الطوري أمير طير، والأمير فخر الدين المقري الحاجب، فتوجها هما والرسل في نصف شوال سنة سبعين، واجتمعا بصمغار، بين سيواس والجسر، فأكرمهم وأوصلوه ما كان معهم من الهدية، وهي: قسي تسعة، دبابيس تسعة. واعتذروا عن قلتها كونهم حضروا على خيل البريد. وفي اليوم الثاني اجتمعا بالبرواناه وأعطاه قماشاً فاخراً، كان

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٣.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١ ـ ٦٠٢.
(٣) الروحاء: قرية من قرى بغداد على نهر عيسى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٦.

السلطان قد سيره إليه خفية، وسير معهما هدية لأبغا بن هولاكو، وهي جوشن ريش قنفد، وخوذة كذلك، وسيف، وقوس، ودركاش[١]، وتسع فردات نشاباً، وتوجهوا صحبة البرواناه إلى الأردو، وأوصلوا إلى أبغا هديته، وقال له الأمير مبارز الدين الطوري: «السلطان يسلم عليك ويقول: إن رسل منكوتمر وردوا إليه مراراً، أن السلطان يركب من جهته. ويركب الملك منكوتمر من جهته، وأين وصلت خيل سلطاننا كان له، وأين وصلت خيل منكوتمر كان له» فانزعج أبغا انزعاجاً عظيماً، وقام وركب وخرجت الرسل إلى خيامهم، ثم طلب أمراءه للمشورة[٢]، وبعد ذلك خلع على الرسل وأذن لهم في السفر فعادوا.

وأما السلطان فإنه أقام بدمشق حتى ضحى بها، وأحسن إلى صاحب حماه، وأمر بجلوسه معه بطراحة ومسند وكرسي في رأس السماط مسامتاً للسلطان.

ثم توجه بعد ذلك إلى حصني الأكراد وعكار[٣] وشاهد العمارة بهما، وعمل بيده، وخلع على من بحصن الأكراد من الأمراء وأرباب الوظائف.

وعاد فتصيّد في الطريق وخلع مقدار خمسمائة تشريف على من أحضر صيداً، ورجع إلى دمشق فدخلها في خامس المحرم سنة إحدى وسبعين.

وفي سنة سبعين وستمائة: كانت وفاة الملك الأمجد أبي الحسن ابن[٤] الملك الناصر صلاح الدين داود ابن[٥] الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، رحمهم الله تعالى، بدمشق فجأة في يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى، ودفن بسفح قاسيون وله من العمر ما ينيف على خمسين سنة تقريباً. وكان من الفضلاء، وله مشاركة في العلوم ومعرفة بالأدب، وتنقلت به الأحوال في عمره، وصحب الفقراء والمشايخ، وانتفع بهم وأخذ عنهم. وكان كثير البرّ لمن يصحبه من المشايخ، وكانت همته عالية ونفسه ملوكية، وله صبر على المكاره. وكان جميع أهل بيته يعظمونه ويعترفون له بالتقدمة، حتى عم أبيه الملك الأمجد تقي الدين الذي قدمنا ذكر وفاته. وكان حسن الخط والترسل، وكان واسطة عقد هذا البيت. فإن أمه ابنة الملك الأمجد مجد الدين حسن ابن السلطان

---

(١) هكذا في الأصل، والمؤلف يختار الدال دائماً بدل التاء.

(٢) في الأصل: «المشهور»، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٢، س ١١.

(٤) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) من أمراء الدولة الأيوبية. كان من الفضلاء، له معرفة بالأدب، ومشاركة في كثير من العلوم. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٦٧٠.

الملك العادل الكبير، تسمى باسم جده. وإلى جده لأمه المذكور ابن الملك العادل ينسب الغور الأمجدي وهو الخميلة، والنويعمة[١]، ودامية، والحمام، وورثة أولاد الملك الناصر عن أمهم. وتزوج الملك الأمجد هذا ابن الملك الناصر داود، ابنة الملك العزيز غياث الدين ابن الملك الظاهر أخت الملك الناصر صاحب الشام وأولدها ولداً سماه صلاح الدين محمود.

وفيها: توفي الصدر الكبير وجيه الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن سويد بن معالي بن محمد بن أبي بكر الربعي التغلبي التكريتي التاجر[٢] المشهور بسعة المال والثروة والجاه ونفوذ الكلمة، بلغ ما لم يبلغه أحد من أمثاله. وكانت كتبه تنفذ عند سائر الملوك، حتى عند ملوك الفرنج بالساحل. وكانت النجابون تأتيه من بغداد إلى دمشق في مهمات تتعلق بالخلافة. وكانت متاجره لا يتعرض إليها. وكان خصيصاً بالملك الناصر صاحب الشام لا يخرج عن إشارته ورأيه. وانبسطت يده في دولته. وكان عنده فضة كثيرة، مراود وجسراً[٣]، فاستأذن الملك الناصر على ضربها دراهم فأذن له، وجعل دار الضرب بدمشق بيده، فضرب منها شيئاً كثيراً، وكانت مغشوشة، فخسر الناس فيها أموالهم. ولما ملك هولاكو البلاد وصل إليه فرسان من جهته يتضمن تأمينه على نفسه وماله فما وثق به. وفارق دمشق إلى الديار المصرية. وغرم جملة مقارب ألف ألف درهم بسبب الدراهم المغشوشة وغيرها. ثم تمكن في الدولة الظاهرية تمكناً كبيراً، ووكله السلطان الملك الظاهر، وجعله وصيّه على أولاده من بعده وناظر أوقافه، وخوطب في مكاتباته بالمجلس السامي المولوي. وكان مع تمكنه من الملك الناصر لا يكتب له عنه إلا الصدر الأجل. وكان سبب تمكنه من السلطان الملك الظاهر ما حكاه شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري في تاريخه عن والده، رحمه الله تعالى، قال: كنت عند وجيه الدين في داره في أيام الملك الناصر، وقد جاء إليه الملك الظاهر وهو يومئذٍ في خدمة الملك الناصر من أمرائه، وشكى إليه ضعف إقطاعه، وأنه قد ركبه دين كثير، وليس عنده كسوة لصغاره، وسأله أن يتحدث له مع الملك الناصر، وكان قد وصل إلى وجيه الدين في تلك الساعة من عكا جوخ سقلاط وغيره، فأعطاه منه كفاية عشرة أقبية وخرق كتان فرنجي مائتي دراع، وخمس تقاطيع سكندري، وتفصيلتين حرير، وألف درهم. وقال له: «يا خوند[٤] مهما

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ٣٣٨، س ٢ ـ ٣.

(٣) هكذا في الأصل كأنه جمع «مرود» وجمع «جسر».

(٤) في الأصل: «باخوند».

كان لك من حاجة أو خدمة أطلب ذلك مني، ولا حاجة بقول السلطان». قال: والله لقد رأيت الملك الظاهر وقد أهوى إلى أقدام وجيه الدين ليقبلها، فرعى له السلطان الملك الظاهر حق هذا الإحسان. وملك وجيه الدين المذكور عدة من ضياع دمشق وأملاكها. وكان مع ذلك كله فيما حكى عنه شحيحاً على طعامه، لكنه كان يتكرم بماله. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شوال سنة سبعين وستمائة. ومولده بتكريت في ذي القعدة سنة تسع وستمائة، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة إحدى وسبعين وستمائة(١)

ذكر توجه السلطان إلى الديار المصرية على خيل البريد وعوده إلى الشام

قال: لما عاد السلطان من كشف الحصون في خامس المحرم من هذه السنة، استشار خواص الأمراء في أن التتار تواترت الأخبار بحركتهم، وأنهم متى قصدوا البلاد والعساكر والخزائن غير حاضرة صعب الأمر، وعرفهم أنه يتوجه إلى الديار المصرية على البريد.

وركب ليلة السادس من المحرم بعد عشاء الآخرة، وصحبته الأمير بدر الدين بيسري، والأمير جمال الدين أقش الرومي، وجرمك(٢) السلاح دار، وجرمك الناصري، وسنقر الألفي السلاح دار، وعلم الدين شقير مقدّم البريدية. فدخل قلعته يوم السبت ثالث عشر المحرم، ولم يشعر الناس إلا وهو داخل من باب القلعة، فدخل وتوجه إلى الميدان ولعب الكرة، وكتب إلى الأمراء المقيمين بالشام أنه سطرها من البيرة، وسير علائم بخطه ليكتب عليها أجوبة البريد من دمشق إلى الأطراف. وكان الأمير سيف الدين الدوادار بقلعة دمشق لتجهيز الكتب والبريد. وفي يوم الاثنين توجه إلى مصر وركب في البحر ولعبت الشواني. وفي ليلة الأربعاء سابع عشرين المحرم جهز العسكر المجرد إلى الشام، وتوجه هو إلى الشام في ليلة التاسع والعشرين من الشهر هو ومن كان معه من الأمراء. ووصل إلى دمشق في ثالث صفر، ودخل قلعتها ليلاً.

وحضر إليه رسل أبغا وكان مضمون مشافهتهم طلب الاتفاق.

ثم توجه السلطان إلى قلعة البيرة عندما نازلها التتار. وكان من انهزامهم ما نذكره إن شاء الله تعالى في الغزوات والفتوحات.

---

(١) يوافق أولها يوم الجمعة ٢٩ يوليه/ تموز ١٢٧٢ م.

(٢) في الأصل: «جربك» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٤، س ١٧.

ثم عاد السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعته في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وفي السابع والعشرين من الشهر: أفرج عن الأمير عز الدين الدمياطي[١] وأنزله بدار الوزارة ورتب له الرواتب، وكان في الاعتقال من شهر رجب سنة إحدى وستين وستمائة.

وفي شهر رجب: خلع السلطان على الأمراء والوزراء والقضاة[٢] والمقدمين، وعم بذلك المسافرين والمقيمين.

وفي هذه السنة: نجزت عمارة قبة الصخرة الشريفة[٣]، وذلك في يوم عرفة، وكان السلطان قد توجه إليها وجميع الصناع لعمارتها كما قدمناه.

ذكر اعتقال الشيخ خضر[٤] والأسباب التي أوجبت ذلك

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة إحدى وسبعين: أحضر الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى العدوي المهراني شيخ السلطان إلى قلعة الجبل، وأحضر جماعة خانقوه على أشياء كثيرة منها اللواط والزنا وغيره فتقدم أمر السلطان باعتقاله. وكان سبب ذلك أنه تعاطى أموراً منكرة وأفحش، ثم شرع يغض من الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة، والصاحب بهاء الدين، وانتقل إلى حد المهاجرة لهما بالقول بحضرة السلطان، وهو أن السلطان أطلق له شيئاً فتوقف الأمير بدر الدين في إمضائه، فقال له بين يدي السلطان: «كأنك تشفق على السلطان وعلى أولاده، كما فعل قطز بأولاد الملك المعز». فخشي عاقبة ذلك. فاتفق هو والصاحب بهاء الدين على التدبير عليه وإطلاع السلطان على ما خفي عنه من حقيقة حاله، ووافقهما على ذلك الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام، ورتبه، وذلك أنه طلب إسماعيل ومظفر نائبه بدمشق وآخر من أتباعه اسمه محمد بن بطيخ وتهددهم أولاً، ثم وعدهم أنهم متى اعترفوا على شيخهم بما يعتمده أحسن إليهم وجعل لهم الرواتب، فذكروا عنه أشياء كثيرة وأشهدوا على أنفسهم بذلك. فكاتب السلطان في أمره، فأمر بإرسالهم على خيل البريد فأرسلوا. ولما حضروا بين يدي السلطان سمع كلامهم. ثم أحضره وقال له: «هؤلاء نوابك بالشام، ما تقول فيهم؟» فذكر من خبرهم وصدقهم وأنه رضي بما يقولونه فيه.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٧، س ١١.
(٢) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٠٧، س ١٤.
(٣) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٠٨، س ١٢.
(٤) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٠٨، س ١.

فذكروا عنه القبائح والمنكرات وارتكاب المحرمات شيئاً كثيراً، وخانقوه على ذلك. فأطلقهم السلطان وأمر بإيقاع الحوطة على موجوده[١].

وحكى الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه: أنه لما حضر أولئك لمخانقته كان ذلك بحضور الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الأتابك، والأمير سيف الدين قلاون، والأمير بدر الدين بيسري، والأمير سيف الدين قشتمر العجمي، فخانقه أصحابه على كل عظيمة لا تصدر من مسلم. فقال: «ما أعرف ما تقولون، ومع هذا، أنا ما قلت إني رجل صالح، أنتم قلتم هذا. فإن كان الذي تقولون صحيح فأنتم كذبتم». فقام السلطان وقال للأمراء: «قوموا بنا لئلا نحترق بمجاورته». فقاموا وانتقلوا إلى طرف الإيوان. فاستشار السلطان الأمراء في أمره، فقال له الأتابك: «هذا مطلع على أسرار الدولة وبواطن أحوالها وما ينبغي إبقاؤه»، ووافقه من حضر من الأمراء على هذا الرأي، وقالوا: ببعض ما قيل عنه يباح دمه. ففهم ما هم فيه، فقال للسلطان: «اسمع ما أقول لك، أنا أجلي قريب من أجلك، وما بيني وبينك إلا مدة أيام يسيرة، من مات منا لحقه الآخر عن قريب». فلما سمع السلطان كلامه وجم، وقال للأمراء: «ما تشيرون في هذا»؟ فسكتوا. فقال السلطان: «أرى أن يحبس في مكان لا يصل إليه أحد ولا يسمع كلامه، فيكون كمن قبر وهو حي». ثم أمر به فحبس في مكان منفرد بقلعة الجبل، ولم يدخل إليه إلا من يثق السلطان به غاية الوثوق. وكان يرسل إليه الأطعمة الفاخرة والفواكه والملابس، واستمر في الاعتقال إلى أن توفي في سنة ست وسبعين وستمائة قبل وفاة السلطان بأحد وعشرين يوماً. وسنذكر إن شاء الله تعالى، مبدأ أمره وسياقه أخباره عند ذكر وفاته.

وفيها: هرب الأمير عمرو بن مخلول من آل فضل من قلعة عجلون هو وحامد رفيقه. وكان السلطان قد اعتقلهما في برج من أبراج القلعة، فحفر حفيرة ملاصقة للسور ووقدوا النار حتى تكلس حجر السور، فنقباه وخرجا منه، وقد كانت أعدت لهما خيل سوابق فركباها وتوجها إلى بلاد التتار، ثم ندما على ما فعلاه، فكتبا إلى السلطان يسألان مراحمه، فحلف أنه لا يرضى عنهما إلا أن يعودا إلى قلعة عجلون ويضعا أرجلهما في القيود على ما كانا عليه، ففعلا ذلك. وكان عودهما من بلاد التتار في ذي الحجة سنة اثنين وسبعين وستمائة. ولما رجعا إلى الطاعة وفعلا ما أمر السلطان به عفا عنهما وأطلقهما وأحسن إليهما.

وفي هذه السنة في رابع عشرين ذي الحجة: توفي الملك المغيث فتح الدين عمر

---

(١) انظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢١٧.

ابن الملك الفائز إبراهيم ابن الملك السلطان العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، رحمهم الله تعالى، في معتقله بجب خزانة البنود، ودفن بتربتهم بالقرافة بجوار الإمام الشافعي. ومولده في صفر سنة ست وستمائة، رحمه الله تعالى[١].

وفيها: كانت وفاة الأمير سيف الدين محمد ابن الأمير مظفر الدين عثمان ابن الأمير ناصر الدين منكورس بن بدر الدين جُمردكين[٢] صاحب صهيون وبرزية في شهر ربيع الأول. وكانت وفاته بصهيون وقد ناف على ستين سنة، ودفن بتربة والده، وتسلم صهيون وبرزية بعده ولده الأمير سابق الدين سليمان، ثم أخذهما السلطان منه في هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها: كانت وفاة الحافظ الخطيب فخر الدين أبي محمد وأبي الفرج عبد القاهر ابن الشيخ علاء الدين عبد الغني بن محمد بن تيمية الحراني. وكانت وفاته بدمشق في ثاني عشر شوال من هذه السنة. ودفن بمقابر الصوفية. ومولده في سنة ثنتي عشرة وستمائة، سمع الحديث من جده ومن ابن اللتي، وخطب بجامع حران وكان فاضلاً ديناً، وهو من بيت معروف بالعلم والفضيلة، رحمه الله تعالى[٣].

واستهلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة[٤]

ذكر الطلسم الذي وجد بباب القصر بالقاهرة

قال المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، رحمه الله تعالى، في السيرة الظاهرية: لما كان يوم عاشوراء من هذه السنة وجد ما سنذكره، وذلك أنه كان قد رسم بنقض علو أحد أبواب[٥] القصر المسمى بباب البحر قبالة دار الحديث الكاملية، لأجل نقل عمد منه لبعض العمائر السلطانية، فظهر صندوق في حائط مبني عليه، وللوقت أحضرت الشهود وجماعة كثيرة وفتح الصندوق. فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ على كرسي شكل الهرم، ارتفاعه قدر شبر له أربعة أرجل تحمل الكرسي، والصنم جالس عليه متوركاً، وله يدان مرفوعتان ارتفاعاً جيداً، يحمل صفيحة يكون دورها قريب الثلاثة أشبار، وفي هذه الصفيحة أشكال بايتة[٦]، الأوسط صورة رأس

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٩.
(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٣٥.
(٣) ابن العماد الحنبلي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٣٤.
(٤) يوافق أولها يوم الثلاثاء ١٨ يوليه/ تموز ١٢٧٣ م.
(٥) في الأصل: «باب» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٦) هكذا في الأصل. ومن الممكن قراءتها «ناتئة» مع افتراض وجود تصحيف.

بغير جسد، وعليه دوائر مكتوب عليها كتابة بالقبطي بالقَلَفْطِرِيّات[١]، وإلى جانبها في الصفيحة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة، وإلى الجانب الآخر شكل على رأسه صليب، وآخر في يده عكاز وعلى رأسه صليب وتحت أرجلهما أشكال طيور. وفوق رؤوس الأشكال كتابة كثيرة أكثر من نصف الصفيحة. وعلى الأشكال كتابة. ووجد مع هذا الصنم في الصندوق لوح من ألواح الصبيان التي يكتبون فيها في المكاتب مدهون وجهه الواحد[٢] أبيض، ووجهه الآخر أحمر، وفيه كتابة قد تَكَشَّط أكثرها من طول المدة وقد بلي اللوح وما بقيت الكتابة تلتئم ولا الخط يفهم.

قال: والوجه الأبيض مكتوب بقلم الصفيحة القبطيّ. وذكر ما ظهر من الكتابة على الوجه الأحمر وهي ثلاثة عشر سطراً، ذكر ألفاظاً غير ملتئمة، إلا أن المفهوم منها على غير التئامه: «الإسكندر ذو الملك يزجر». وذكر ما ظهر في كل سطر، وأخلي لما تكشط منه مما لا فائدة في ذكره، والذي شرحه من السطر الثاني عشر ما صورته: «شد أيضاً كل امار[٣] أشد به». قال: وقيل إن هذا اللوح بخط الحاكم خليفة مصر. وأعجبُ ما فيه اسم السلطان وهو بيبرس. قال: ولما شاهد السلطان ذلك أمر بقراءته، فعرض على قراء الأقلام، فقرىء، وهو بالقلم القبطي، ومضمونه طلسم عمل للظاهر ابن الحاكم، وفيه أسماء ملائكة وعزائم وَرُقى وأسماء روحانية وصور ملائكة، وأكثره حرسٌ للديار المصرية وثغورها وصرف الأعداء وكفهم عن طروقهم إليها، وابتهالٌ إلى الله بأقسام كثيرة بحماية الديار المصرية، وصونها من الأعداء، وحفظها من كل طارق ومن جميع الأجناس.

قال: وتضمن هذا الطلسم كتابة بالقلفطريات وأوفاقٌ وصورٌ وخواصٌ لا يعلمها إلا الله تعالى. وحمل هذا الطلسم إلى السلطان فبقي في ذخائره.

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: رأيت في كتاب عتيق رث[٤] سماه مصنفه: وصية الإمام العزيز والد الإمام الحاكم لولده المذكور، وقد ذكر فيه الطلسمات التي على أبواب القصر. وقال: إن أول الكواكب الحمل، وهو قلب المريخ، وشرف الشمس، وله القوة على جميع سلطان الفلك، لأنه صاحب السيف، وله الأمر والحرب والسلطان والقوة، والمستولي لقوة روحانيته على مدينتنا عندما بنيناها. وقد

---

(١) في الأصل: «بلقد فطريات». ولم أجد معنى لهذه الكلمة.
(٢) في الأصل: «الآخر». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) هكذا في الأصل.
(٤) هكذا في الأصل دون نقط الثاء.

أقمنا لساعته ويومه لقهر الأعداء وذل المنافقين، في مكان أحكمناه على شُرافةِ عليه[١] والحصن الجامع لقصره مجاور لأول باب بنيناه. هذا نص ما في الكتاب، والله أعلم.

ذكر توجه السلطان إلى الشام[٢]

وفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة: وردت الأخبار بحركة أبغا بن هولاكو ملك التتار، فخرج السلطان في ليلة السادس والعشرين من المحرم، وصحبته جماعة من أمرائه الخواص، منهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي، والأمير سيف الدين أوتامش[٣] السعدي. فلما وصل إلى عسقلان بلغه أن أبغا وصل إلى بغداد وقد خرج إلى الزاب متصيداً، فكتب إلى القاهرة يستدعي العساكر. فخرج منها يوم السبت حادي عشر صفر أربعة آلاف فارس مع مقدميهم: الأمير علاء الدين طيبرس الوزير، والأمير جمال الدين أقش الرومي، والأمير شمس الدين أقش المعروف[٤] بقَطْلِيجا، والأمير علم الدين سنجر طردح[٥]. ورحلوا من البركة في يوم الاثنين. ثم قويت الأخبار، وهو في أثناء الطريق بحركة التتار، فكتب السلطان بخروج العساكر جميعها والعربان من الديار المصرية صحبة بدر الدين بيليك الخزندار، ورسم بأن جميع من في مملكته ممن له فرس يركب إلى الغزاة، وأن يُخْرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حال أهل البلد، ويقومون بكلفتهم. ودخل السلطان إلى دمشق في سابع عشر صفر. وكان رحيل العساكر من القاهرة في العشرين من صفر، فوصلوا إلى يافا، وورد المرسوم بنزولهم قريباً منها، وركب السلطان من دمشق في نحو أربعين فارساً جرائد، ولم يستصحبوا ركاب دار السلطان ولا غيره[٦]. فوصل وقد طُلِّبت العساكر وقاربوا المنزلة، فاعترضهم السلطان وجماعته وقد ضرب كل منهم على وجهه لثاماً، فظن الحجاب أنهم من التركمان، فرسموا لهم بالترجل فما ترجلوا[٧]. وساق السلطان منفرداً وجاء من خلف السناجق[٨] وحسر اللثام

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٠.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) هكذا في الأصل. وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢١٨ اسمه «عز الدين قطلبخا».

(٥) هكذا في الأصل. وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢١٨ «طرطج»، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٠ «ططح».

(٦) في الأصل: «لغير» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٧) في الأصل: «بالترحل فارتحلوا» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٠، س ١٣.

(٨) في الأصل: «الصناجق». والتصحيح يقتضيه السياق.

عن وجهه، فعرفه السلاح دارية فأفرجوا له، فدخل وساق في الموكب فنزل الناس وقبلوا الأرض، وساق السلطان ونزل بدهليزه فرتب المصالح. وأصبح في اليوم الثاني وركب في موكبه، ونزل فقضى حوائج الناس وركب عند المساء، هو ومن حضر معه وعاد إلى دمشق.

ذكر وصول الملك شمس الدين بهادر صاحب شميصاط[١] وشيء من أخباره

هذا المذكور هو الملك شمس الدين بهادر ابن[٢] الملك فرج، أمير الطشت[٣] للسلطان جلال الدين خوارزم شاه منكربرتي، وكان والده قد ملك بعد السلطان جلال الدين قلعة كيران[٤] وست قلاع أخرى في ناحية نقجوان[٥]. ووصل إلى بلاد الروم فأقطع أَقْصَرا[٦]، فكاتب شمس الدين هذا السلطان وراسله، وتقرب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار العدو، وذلك في سنة إحدى وسبعين وستمائة. واتفق السلطان معه على نكتة غريبة قتل بسببها الجاثليق النصراني، وكان قد أهان المسلمين ببغداد وسكن[٧] مواطن الخلافة وأفسد أمور المسلمين. فكتب السلطان كتاباً إلى الجاثليق مضمونه: عرفنا محبتك وتوصيتك على النصارى الذين ببلادنا، وقد أكرمناهم لأجلك، وعرفنا أخبار المغل الباطنة التي أشرت إليها. وذكر في الكتاب أموراً موهمة لا أصل لها، منها: الذي التمسته لمن أشرت قد أجبنا إليه، وتسليم الأمكنة لمن عنيت قد حلفنا على تسليمها، والدواء الذي تقرر السعي في استعماله لمن أشرت إليه قد علم، والله يقدر ذلك، والذي طلبته من دهن البلسان والآثار المسيحية[٨] قد سيرناها، وسيرنا قطعة من صلِيب الصلبوت، وسيرنا ذلك إلى الرحبة، وعرفنا الناتب بها الأَمارة التي

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) في الأصل: «بن».

(٣) في الأصل: «الطست». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١، س ٢.

(٤) كَيْرَان: مدينة بأذربيجان بين تبريز وبيلقان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٧.

(٥) نَقْجَوان: بلدة من نواحي أران وتسمى أيضاً نخجوان. ويذكر ياقوت أن النسبة من نقجوان «نشوى». وقد سأل في آذربيجان عن سبب ذلك الاشتقاق الغريب فلم يستطع أحد أن يخبره بعلته. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٨.

(٦) انظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 116.

(٧) هكذا في الأصل.

(٨) هكذا في الأصل.

قررت. فأرسل من تثق إليه بالأمارة ليتسلم ذلك. وسير السلطان هذا الملطف[١] إلى النائب بالبيرة، ورسم له أن يجهزه صحبة أرمني يوصله إلى الجاثليق، وأنه إذا جهزه يرسل إلى الملك شمس الدين بهادر يعرفه بخبره وحِلْيَتِه. ففعل ذلك، وأرسل بهادر من أمسك هذا القاصد وسير به إلى أبغا. فلما وقف أبغا على الملطف كان فيه هلاك الجاثليق، وتقرب شمس الدين بهادر إلى السلطان بأشياء كثيرة مثل ذلك. فشعر التتار به فأمسكوه وتوجهوا به إلى الأردو[٢]، وهربت حاشيته ومماليكه، فوصلوا إلى باب السلطان وهم يزيدون على ألفي نفر من مماليك وأجناد وغيرهم، فأحسن إليهم ورتب لهم الرواتب. وأما الملك شمس الدين بهادر فإنه هرب ونجا بنفسه ووصل البيرة فتلقاه أهلها، وسير إلى السلطان. وذكر أنه أقام سبعة أيام ولم يأكل شيئاً. ولما وصل تلقاه السلطان وأكرمه وأعطاه الإقطاعات بالديار المصرية وأحسن إليه.

ذكر الظفر بملك الكَرْج

وفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة: ظفر السلطان بملك الكرج. وذلك أنه حضر لزيارة بيت المقدس، فاتصل ذلك بالسلطان، فأرسل من يعرف حليته فأمسك هو وثلاثة نفر من أعيان الكرج من بين الزوار، وسيروا][٣] إلى السلطان وهو بدمشق فطيب قلوبهم، وعرفهم أنه متيقظ لمن يدخل إلى بلاده، واحترز عليهم.

ولما سكنت الأخبار عاد السلطان والعساكر فدخل إلى قلعته في رابع عشرين جمادى الآخرة من هذه السنة.

وفي شعبان من هذه السنة: رسم السلطان بعمارة جسرين قناطر بالقرب من الرملة لعبور العساكر، فعمرت.

وفيها: في يوم السبت عاشر ذي القعدة حضر متولي القرافة إلى مستنيبه الأمير سيف الدين أبي بكر بن اسباسلار متولي مصر، وأخبره أن شخصاً دخل إلى تربة الملك المعز وجلس عند القبر يبكي، فسأله من بالمكان عن بكائه. فأخبرهم أنه قاءان ابن الملك المعز، وكان الملك المظفّر قد أرسله مع أخيه الملك المنصور إلى بلاد الأشكري كما تقدم، فأحضر وقيد واعتقل. وطولع السلطان بأمره، فأحضره وسأله عن

(١) الملطف، رسالة، والمعنى اللغوي: ما يبلغ المراد بلطف، الفيروزابادي، القاموس المحيط، وراجع عن الملطفة، السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٢، حاشية رقم (٣).

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

أمره، فذكر أنه عاد إلى الديار المصرية منذ ست سنين، وأنه يتوكل للجند. فطلب منه من يعرفه، فذكر أن رجلاً معتقلاً بالإسكندرية كان يتردد إلى بلاد الأشكري، فأمر السلطان بإحضاره واعتقال قاءان، فحبس في حبس اللصوص بمصر، وأجرى عليه بعض مماليك المعز نفقة.

وفيها: أفرج السلطان عن الأمير سيف الدين الجوكندار، وكان له مدة في الاعتقال.

وفي ثاني عشر شهر رمضان من السنة: توجه الملك السعيد إلى الشام[١]، وجرد السلطان في خدمته الأمير سيف الدين أستاد دار وجماعة من أكابر الأمراء والخواص. ودخل إلى دمشق في سادس عشرين الشهر، ولم يشعر به نائب السلطنة إلا وهو بينهم في سوق الخيل، فنزلوا وقبلوا الأرض، ودخل الملك السعيد القلعة وخلع على الأمراء في ليلة العيد، وخلع أيضاً على المقدمين والمفاردة والأكابر، وخرج متصيداً بالمرج، ثم توجه إلى الشقيف[٢] وصفد، وعاد إلى مصر في حادي عشر شوال منها.

ذكر ختان الملك المسعود نجم الدين خضر ولد السلطان الملك الظاهر[٣]

كان ختانه في يوم عيد الفطر سنة اثنتين وسبعين وستمائة، وحمل السلطان عن الناس كلفة التقادم والهدايا وشملهم بالخلع والإنعام والعطاء.

ذكر نكتة غريبة

وفي هذه السنة: ورد كتاب الغَرْس بن شاور والي الرملة[٤] يذكر أنه في هذه السنة حصل لأهل البلاد مرض وحمايات[٥] من شرب مياه الآبار وزاد ذلك، فحضر إليه رجل نصراني فقال: «هذه الآبار قد حاضت كما جرى في السنة التي جاء التتار فيها إلى الشام، وأن الفرنج أنفذوا إلى قرية تسمى عابود[٦] في الجبل أخذوا من مائها

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٢.

(٢) الشقيف: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٦.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٢.

(٤) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين. كانت رباطاً للمسلمين. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) «عابور»: بالأصل والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٢، س ٢٢.

وسكبوه في الآبار فزال الوخم». فلما سمع ابن شاور ذلك سير إلى الضيعة المذكورة وأخذ من مائها وصبه في الآبار التي بيافا، وكان الماء قد كثر فيها. فلما سكب الماء فيها نقصت إلى حدها المتعارف(١). وقيل: إن هذه الآبار إناث تحيض، وآبار الجبل ذكور.

ذكر ورود كتاب متملك الحبشة(٢)

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: في هذه السنة وصل كتاب متملك الحبشة إلى السلطان عطف كتاب صاحب اليمن. وهو يقول: «إن سلطان الحبشة قد قصدني في حاجة عند السلطان، وقد سيرت كتابه عطف كتابي» فكان مضمون كتاب متملك الحبشة(٣) إلى السلطان(٤): «أقلُّ المماليك، مَخراً(٥) ملاك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر، خلد الله ملكه، أن رسولاً وصل من [جهة](٦) والي قوص بسبب الراهب الذي جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران(٧) وبلادنا بلاد مولانا السلطان ونحن عبيده. فيرسم مولانا يأمر الأب البطرك يعمل لنا مطراناً رجلاً جيداً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة، ويسيره إلى مدينة عَوان(٨) وأقل المماليك يسير إلى نواب(٩) الملك المظفّر صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره إلى أبواب السلطان. وما كان سبب تأخر الرسل عن الحضور إلى السلطان إلا أنني كنت في بيكار. والملك داود(١٠) توفي، وقد ملك ولده، يا مولانا. وعندي في

= وعابود: قرية جبلية بنواحي بيت المقدس، ياقوت الحموي، المصدر السابق: ج ٤، ص ٦٤، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٥.

(١) في الأصل: «المعارف» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٣، س ٣.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٥.

(٣) يعني «الحطّي» وهو الخليفة.

(٤) يوجد في كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل س ٢١٩ ـ ٢٢٢ تفصيلات كثيرة في هذا الصدد، وهي تحت سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م.

(٥) هكذا بالأصل.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٥، س ١١.

(٧) يقابل هذا اللفظ في الفرنسية (metropolitain) ومرادفه في اللغات الأخرى قريب من هذا. وفي صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥، ص ٤٧٣ أن المطران كان في عصره هو القاضي الذي يفصل في الخصومات بين أهل طائفته.

(٨) هكذا في الأصل واضحاً. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ١٣ ـ ١٤. (أسوان أو عدن).

(٩) في الأصل: «بواب». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦١٦، س ١٤.

(١٠) في الأصل: «ذلود». والتصحيح في السلوك، ج ١، ص ٦١٦، س ١٦.

عسكري مائة ألف فارس مسلمين. وإنما النصارى كثير لا تعد. وكلهم غلمانك وتحت أوامرك. والمطران [الكبير][١] هو يدعو لك، وهذا[٢] الخلق كلهم يقولون: آمين بطول بقاء عمر سلطاننا[٣] مالك مصر، ويهلك الله عدوه، ويقول الخلق آمين. وكل من يصل[٤] من المسلمين إلى بلادنا أقل المماليك يحفظهم ويسفرهم كما يحبون[٥]. وإنما الرسول الذي سيره والي قوص فجدر[٦] وهو مريض. وبلادنا بلاد وخمة أي من مرض ما يقدر أحد يدخل إليه، وأي من شم رائحته يمرض ويموت. والراهب قال: ما يروح [بغير][٧] رفيق. ونحن فنحفظ كل من يأتي من المسلمين، وارسموا فسيروا مطراناً يحفظهم» أنهى ذلك.

هذا نص كتابة ومخاطبة ملك اليمن له بالسلطان.

قال: فكتب جوابه عن السلطان:

«ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل في مملكته[٨] حطى ملك امْحَره، أكبر ملوك الحُبْشان، الحاكم على ما لهم من البلدان، نجاشي عصره [وفريد مملكته في دهره][٩] سيف الملة المسيحية، عضد دولة دين النصرانية، صديق الملوك والسلاطين سلطان الأمحرة، حرس الله نفسه، وبنى على الخير أسه. فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه. فأما طلب المطران، فلم يحضر من جهة الملك رسول[١٠] حتى كنا نعرف الغرض المطلوب، وإنما كتاب مولانا السلطان الملك المظفّر ورد مضمونه: أنه وصل من جهته كتاب وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير[١١] إليه الجواب. وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس[١٢] مسلمين، فأخبار البلاد عندنا، ولا تخفى عنا، فالله يكثر عساكر المسلمين. وأما وخم بلاده، فالآجال مقدرة من الله، وما يموت

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ١٧.
(٢) في الأصل: «وهذه». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦١٦، س ١٨.
(٣) في الأصل: «مولانا». إلا أن هذا اللفظ شطب. ووضع بدله «سلطاننا».
(٤) في الأصل: «هيل». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٥) في الأصل: «يحبوا». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٦) في الأصل: «فجور». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ٢٠.
(٨) في الأصل: «مملكة». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ٢١.
(٩) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٦١٦، س ٢٢.
(١٠) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ٢٥: «أحد».
(١١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ٢٦: «يعود».
(١٢) «فارس» غير موجودة في السلوك.

أحد إلا بأجله، ومن فرغ أجله مات، وكم من جريح بالسيف عاش وصحيح مات، والأمر لله في الجميع»[١].

وفي هذه السنة: كانت وفاة الصاحب محيي الدين أبي العباس أحمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد، في ليلة الأحد التاسع والعشرين من شعبان، ودفن من الغد بسفح المقطم؛ سمع من جماعة، وحدّث ودرّس بمدرسة والده التي أنشأها بزقاق القناديل بمصر][٢]، وكان منقطعاً عن المناصب يحب التخلي والإنفراد كثير الصدقة، وبنى رباطاً بمصر، ومولده بالفسطاط[٣] في سنة ست وثلاثين وستمائة، رحمه الله تعالى.

وفيها: في ليلة الثلاثاء رابع عشر الآخر توفي الشيخ العالم الزاهد الورع أبو محمد عبد الله بن عمر بن يوسف الحميدي القَصْري، ودفن من يومه بالقرافة[٤] الصغرى. كان أوحد أهل زمانه في أصول الدين والفقه، وله معرفة بكلام الفقراء وأحوالهم رحمه الله تعالى.

وفيها: في ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر توفي أبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن نهار البكري، خطيب جامع ابن طولون، ودفن بالقرافة. ومولده بالقاهرة في سنة ثلاث وستمائة، رحمه الله تعالى.

وفيها: في يوم الأحد رابع عشر المحرم توفي الصدر الرئيس الأصيل مؤيد الدين أبو المعالي أسعد بن المظفّر بن أسعد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي، المعروف بابن القلانسي[٥] رئيس دمشق وكبيرها والمشار إليه. وكان متواضعاً كريماً سمحاً جواداً متصدقاً[٦] حسن السيرة جميل الطريقة طاهر اللسان. وكان السلطان الملك الظاهر قد عرض عليه نظر الشام فلم يقبل، فألزمه بوكالته الخاصة

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦١٦؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤١.

(٣) الفسطاط: مدينة عظيمة في مصر. فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩ م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٦١ ـ ٢٦٦.

(٤) القرافة: خطة بالفسطاط من مصر، وهي اليوم مقبرة أهل مصر، وبها أبنية جليلة. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٧.

(٥) هو حمزة بن أسعد بن مظفر بن حمزة التميمي الدمشقي. الصاحب عز الدين أبو يعلى، المعروف بابن القلانسي. رئيس الشام في عصره. ولي وكالة السلطان والوزارة بها. النعيمي: المدارس، ج ١، ص ٩٦؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٧٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٤٤.

(٦) في الأصل: «متصعباً».

والنظر في ديوان ولده الملك السعيد، فباشر ذلك. وكانت وفاته بدمشق ودفن بتربته بسفح قاسيون، ومولده بدمشق في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وهو والد الصاحب الرئيس عز الدين حمزة.

وفيها: في ليلة الأربعاء ثالث عشر شعبان توفي الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ النحاة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي[١] الجَيَّاني. وكانت وفاته بالمدرسة العادلية بدمشق، ودفن بقاسيون بتربة بني الصايغ، له التصانيف المفيدة في علم العربية، وشهرته أكثر من أن يؤتى على شرحها، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة[٢]

في هذه السنة: وصل الملك المنصور صاحب حماه إلى خدمة السلطان[٣]، فأحسن إليه وإلى والده وأخيه وعاد إلى بلاده.

وفي ثامن صفر منها: توجه السلطان إلى الكرك على الهجن من الطريق البَدْرِيّة، فوصل إلى الكرك والشوبك. وأقام بالكرك ثلاثة عشر يوماً، وعاد إلى قلعته في ثاني عشرين شهر ربيع الأول.

وفيها: في سادس عشر شهر ربيع الآخر توجه السلطان إلى العباسة، وفي صحبته ولده الملك السعيد، فصرع الملك السعيد أوزة خِبِّية[٤]، وقيل له: «لمن تدعي»؟ فقال: «لمن أدعو بحياته». فقبّله السلطان. وعاد السلطان بعد خمسة أيام.

وكان سبب عوده أنه ظفر بكتب من جماعة من الأمراء إلى التتار، وهم: قَجَمْقاد[٥] الحموي، وتوغان بن مَنْكو، وسريغا، وطَنْغَرى يُوري، وطنغرى يَرْمَس، وأنوك، وبَرْمَش، وبلبان مجلي، والبغلائي المرتد، وبَلاغا، وطغَيني[٦]، وأيبك، وسَنْجر الحواشي[٧]. وقبض عليهم وقررهم فأقروا. وكان آخر العهد بهم.

---

(١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٣.

(٢) يوافق أولها يوم السبت ٧ يوليه/ تموز ١٢٧٤ م.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٤.

(٤) في الأصل: «جنية». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٥، س ١. وانظر زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري، ص ١٢٦.

(٥) هكذا في الأصل. وفي السلوك: «قجقاز».

(٦) هكذا في الأصل. وفي النسخة (س) طعسي.

(٧) هكذا في الأصل. ومن المحتمل أن يكون الطواشي.

وفيها: أقبل السلطان على الأمير شهاب الدين يوسف ابن الأمير حسام الدين الحسن بن أبي الفوارس القَيْمَري، وهو من أعيان الأمراء في الدولة الصالحية النجمية والدولة الناصرية. وكان السلطان قد نقم عليه، فإنه تخيل أنه كان يثبط الملك الناصر عن قتال التتار، فواخذه بذلك وقطع خبزه، وعُطِّل، وأطلق له في كل يوم عشرين درهماً، ودام على ذلك فأعطاه الآن إمرة أربعين.

وفيها: توجه السلطان إلى الشام في شعبان بجميع العساكر واستخلف بقلعة الجبل الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني، والصاحب بهاء الدين، واستصحب معه الصاحب تاج الدين وزير الصحبة، وكان في هذه السفرة غزاة سيس على ما نذكر ذلك.

وفيها: رسم السلطان بعمارة ما كان تداعى من منارة الإسكندرية.

وفيها: في يوم السبت تاسع جمادى الآخرة توفي الأمير فارس الدين آقطاي المستعرب الصالحي الأتابك، ودفن بالقرافة بالقرب من تربة الإمام الشافعي، ومشى السلطان في جنازته، وحضر دفنه، وحزن عليه، وبكى بكاء شديداً. وكان يستحق ذلك منه، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي قاضي القضاة شمس الدين عبد الله بن [محمد بن الحسن بن عطاء ابن الحسن بن][1] عطاء الأذرعي الحنفي بدمشق في يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى. ولما مات عزل قاضي القضاة زين الدين الزَّوَاوي المالكي نفسه من القضاء حال دفنه، فإنه أخذ بيده من تراب القبر وحثاه عليه وقال: «والله لا حكمت بعدك، فإن لك أربعين سنة تحكم، ثم هذه[2] مآلك». وعزل نفسه من الحكم، وبقي نائبه القاضي جمال الدين يوسف الزواوي يحكم على حاله.

وفوض السلطان قضاء الحنفية بعده للقاضي مجد الدين أبي المجد عبد الرحمٰن ابن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحنفي[3] فوصل إلى دمشق في يوم الاثنين سلخ ذي القعدة، وحكم في ذي الحجة من السنة.

وفيها: توفي الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود[4] [بن أحمد][5] الأسدي اليغموري[6] بالمحلة في ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٩.
(٢) انظر السلوك ج ١، ص ٦١٩ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٦.
(٣) هكذا في الأصل.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥١.
(٥) في الأصل: «يحمود» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٩.
(٦) انظر ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٧.

الآخر. كان فقيهاً أصولياً مشاركاً في علوم كثيرة، وصحب الأمير جمال الدين بن يغمور فعرف به. وكان قد توجه لزيارة الأمير شهاب الدين بن يغمور بالمحلة فمات. ومات الأمير شهاب الدين بعده بشهرين ويومين، رحمهما الله تعالى.

وفيها: توفي الأمير سليمان ابن[١] الملك السعيد ابن[٢] الملك الصالح إسماعيل ابن[٣] الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكانت وفاته بدمشق في حادي عشر صفر رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة أربع وسبعين وستمائة[٤]

استهلت سنة أربع وسبعين وستمائة والسلطان بالشام، فرسم بإحضار ولده الملك السعيد، فتوجه الأمير بدر الأمير بيليك الخزندار نائب السلطنة على خيل البريد لذلك، في الرابع والعشرين من المحرم. ووصل إلى قلعة الجبل، فأرسل إليه الملك السعيد ألف دينار وتشريفاً. وكان السلطان أيضاً قد رسم للأمراء بإحضار أولادهم فتجهزوا.

وتوجه الملك السعيد على خيل البريد، في سلخ المحرم ووصل إلى دمشق في سادس صفر، وركب السلطان للقائه، وحضر بعد ذلك طلبه[٥] ومماليكه.

وفي هذه السنة: وصلت رسل برواناه، وأخبر بقصد التتار البيرة، وقال إنه اتفق هو وجماعة على أن العساكر إذا أقبلت من بر الشام وشاهدوا الصناجق السلطانية يضع السيف في التتار، فلم يف بذلك.

ثم بلغ السلطان حركة التتار، وأن قصدهم البيرة، فجمع العساكر من جميع البلاد، وأقام ينتظر خبراً محققاً، فوصل الخبر أن التتار، نازلوا البيرة، في يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة، وأنهم أقاموا في تلك الليلة أحد عشر منجيقاً، واهتموا بالحصار ونصب المجانيق، وكان مقدّمهم إبتاي[٦]، فأنفق السلطان في العساكر وتولى النفقة بنفسه. وخرج بالعساكر، فلما وصل إلى القُطَّيفة بلغه رحيل التتار لانقطاع الميرة عنهم، فوصل إلى حمص، ثم عاد إلى دمشق في مستهل شهر رجب متوجهاً إلى الديار المصرية، فدخل إلى قلعة الجبل في ثامن عشر الشهر.

---

(١)، (٢)، (٣) في الأصل: «بن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) يوافق أولها يوم الخميس ٢٧ يونيه/ حزيران ١٢٧٥ م.

(٥) جمع طُلب، وهو لفظ كردي، معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، وكان أول من استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام السلطان صلاح الدين، ثم عدل مدلوله، فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٦) هكذا في الأصل.

ذكر شنق الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز وغيره

كان هذا الطواشي المذكور قد تمكن في الدولة الظاهرية وكبر شأنه، وتعاظم في نفسه، وصار في غيبة السلطان يركب إلى الميدان ويلعب بالكرة ويعود إلى القلعة، ثم تعاطى بعد ذلك، فيما نقل، إدمان شرب الخمر في دور السلطان، ويجتمع على ذلك مع الخدام، فاتصل ذلك بالسلطان، فلما عاد أحضره بين يديه ليلاً، وقام السلطان إليه بنفسه ولكمه وقصد أن يؤدبه بالضرب والإخراق[1] ليرتدع بذلك. وكان لهذا الخادم على السلطان إدلال كبير، فحمله إدلاله على أن خاطب السلطان بما لا يليق به أن يخاطب به، فكان مما قال له: «هذا الضرب لا يفيدك، ولكن اشنقني». فغضب السلطان وأمر بشنقه، فشنق بالميدان الأسود تحت قلعة الجبل في ليلته، وشنق إلى جانبه خمسة من الأجناد كانوا قد تخلفوا عن العرض بحمص، وشُفع في جماعة أخر من الجند، فحبسوا بخزانة البنود. وأمر السلطان بمن كان يحضر مع صدر الدين من الخدام على الشراب فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وسملت أعينهم.

وقد حكى لي حكاية عجيبة عن هذا الخادم وهي: أن السلطان، قبل وصوله إلى الديار المصرية، كان قد كتب إلى النائب بقلعة الجبل أن يتقدم بنصب مائة خشبة بالميدان الأسود للشنق فنصبت، وما علم لمن هي، فكان الطواشي إذا توجه إلى الميدان يمر على الخشب فينظر إلى خشبة منها، ويقول: أجد قلبي يحن إلى هذه الخشبة، وتكرر ذلك منه، فشنق عليها. وهذا من عجيب الاتفاق في إحساس الخواطر.

ذكر متجددات اتفقت بعد وصول السلطان إلى الديار المصرية غير ما تقدم ذكره

منها: وصول هدية صاحب اليمن[2]، ومن جملتها الفيل والكركدن والحمار الوحشي العتابي وأصناف من التحف والبهار وغير ذلك، فعرض ذلك على السلطان، وجهز [السلطان][3] له هدية سنية وسيرها صحبة رسله.

ومنها: تجهيز رسل الملوك، وهم: رسل الملك منكوتمر ملك البلاد الشمالية،

---

(١) الإخراق: أحداث الدهش من خوف أو حياء. الفيروزابادي: القاموس المحيط. مادة: خرق.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١، س ٩.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١، س ١٠.

ورسل الأشكري، ورسل الفنش[(١)]، ورسل جَنَوَة[(٢)]، وإرسال الرسل إلى أشبيلية.

ذكر توجه رسل السلطان إلى أشبيلية وما كان من خبرهم

كان الْفُنْشُ[(٣)] صاحب أشبيلية قد سير رسولاً إلى سلطان اسمه دينار، وعلى يده هدية سنية ورسالة، مضمونها: استدعاء مودة السلطان، وذلك قبل هذا التاريخ. فسير السلطان إليه الآن رسلاً، وهم: الأمير سيف الدين الجَلْدكي والأمير عز الدين أيبك الكبكي، والفقيه العدل[(٤)] الدين الحسين ابن همام بن مرتضى، وعلى أيديهم هدية سنية وعقاقير. فتوجهوا من القاهرة في العشر الآخر من شوال وتوجهوا إلى الإسكندرية، وتوجهوا منها في البحر في ذي القعدة، فوصلوا إلى سنقريس[(٥)]، فعوقهم صاحب بِرَشْنونة أياماً ثم أفرج عنهم، فساروا حتى وصلوا إلى مرعش[(٦)]، وهي من جملة مملكة الفنش، فأعلم بوصولهم فاستدعاهم، وكان يومئذٍ ببنطورية[(٧)] فتوجهوا إليه، فكانوا كلما مروا ببلد خرج إليهم أهل البلد وتلقوهم بالأفراح، إلى أن وصلوا إلى بنطورية، فخرج جميع من بها من الخيالة والرجالة، والتقوهم بظاهرها، ثم استدعاهم الملك بعد ثلاث وأكرمهم غاية الإكرام، واستحضرهم في اليوم الثاني وأحضروا الهدية، فاستبشر وطابت نفسه وقبلها، ثم جهز لهم مركباً ببرْشنونة[(٨)] فتوجهوا في البر إليها، ثم ركبوا منها في المركب في آخر ذي الحجة، فوصلوا إلى الإسكندرية في صفر سنة خمس وسبعين وستمائة.

ذكر اتصال الملك السعيد بابنة الأمير سيف الدين قلاون

وفي هذه السنة: في يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة، عقد نكاح الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان ابن السلطان الملك الظاهر على [غازية خاتون][(٩)]

---

(١) المقصود هنا: (Alphonso of Seville) ملك إشبيلية. وكان بينه وبين السلطان بيبرس معاهدة تجارية منذ سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ م. انظر: (Lane - Poole: A History of Egypt, p 266).

(٢) ضبط هذا الاسم من صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥، ص ٤٠٥.

(٣) في الأصل: «أدفونش». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١، س ١١.

(٤) بياض في الأصل.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠٧.

(٧) هكذا في الأصل. ولم أجد ترجمة لها.

(٨) برشنونة: تكتب أيضاً برشلونة.

(٩) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٣، س ١١ ـ ١٢. وكان السبب في =

ابنة الأمير سيف الدين قلاون الألفي العلائي الصالحي. وكان العقد بالإيوان بقلعة الجبل على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار، المعجل منه ألفا دينار، ومعاملة صرف الدينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم. وكان الوكيل عن الملك السعيد في قبول النكاح، الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة، والوكيل عن الأمير سيف الدين قلاون، الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار العالية، بعد أن ثبت التوكيل في المجلس عند قاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي.

وجرى العقد بين الوكيلين بحضوره، وحضر السلطان والوزراء والقضاة والأكابر وأعيان الأمراء والمقدمين. وكان الصّداق بخط القاضي محيي الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر، وإنشائه، وقرأه في المجلس، فخلع عليه وأعطى مائة دينار. ونسخه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة، ومصدق الفال لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق الإقبال لمن أصبح بشبيه سلطانه وصهرة مَلِكَه، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطاناً ونصيراً، وميز أقدارهم باصطفاء تأهيله حتى حازوا نعيماً وملكاً كبيراً، وأفرد فخارهم بتقربته حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نوراً، وشرف وَصْلتَهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وأفضاله كثيراً، مهيىء أسباب التوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع كل أملاك من الأفلاك[1] بالشموس والبدور والأهلة أهلة، جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار حتى وصلت لهم النعمة الشاملة، وحلت عندهم البركة الكاملة».

«نحمده على[2] [أن] أحسن عند الأولياء بالنعمة لاستيداع وأجمل لتأميلهم الاستطلاع، وكمّل لاختيارهم الأجناس من الغرر والأنواع[3]، وآتى[4] آمالهم ما لم يكن في حساب أحسابهم من الابتداء بالتخويل والابتداع».

«وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة حسنة الأوضاع ملية بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع».

= استدعاء السلطان ولده الملك السعيد إلى دمشق هو الشروع في تزويجه بغازية خاتون ابنة الأمير سيف الدين قلاون الصالحي. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ص ١٥٥.

(١) هكذا في الأصل.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) هكذا في الأصل بدون نقط.

«ونصلي على سيدنا محمد الذي أعلا الله به الأقدار وشرف به الموالي والأصهار، وجعل كرمه داراً لهم في كل دار، وفخره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار، صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار يانعة الثمار».

«وبعد، فلو كان إفضال[١] كل شيء بحسب المتصل به في تفضيله[٢] لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله، ولكن ليتشرف بيت يحل به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور، ونضار يتجمل باللآلىء والدرر. وكذلك تَجَمَّلت برسول الله ﷺ أصهاره من أصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه، تزوج ﷺ منهم، وتَمَّت لهم به مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضي عنهم. والمرتب على هذه القاعدة إفاضة نور يستمده الوجود، وتقرير أمر يقارن سعد الأجنَّة[٣] منه سعد السعود. وإظهار خطبة يقول الثريا لانتظام عقودها كيف، وإبراز وصلة[٤] يتجمل بترصيع جوهرها متن السيف، الذي يغطيه[٥] [على][٦] إيداع هذا الجوهر به كل سيف، ونسج صهارة يتم بها إن شاء الله تعالى كل أمر شديد، ويتفق بها كل توفيق، تَخْلَقُ الأيام وهو جديد. ويختار لها أبرك طالع، وكيف لا تكون البركة في ذلك الطالع وهو السعيد، وذلك أن المراحم الشّريفة السلطانية أرادت أن تخص المجلس السامي الأمير - وذكر نعوته - بالإحسان المبتكر، وتفرده بالمواهب التي تُزهِفُ بها منه الحد المنتظر، وأن ترفع من قدره بالصِّهارة؛ مثل ما رفعه ﷺ من قدر صاحبيه أبي بكر وعمر، فخطب إليه أسعد البرية وأمنع من تحميها السيوف المشرفية. وأعزَّ من تسبل عليها ستور العيون الخفية، وتضرب دونها خدور[٧] الجلال الرضية، وتتجمل بنعوتها العقود. وكيف لا، وهي الدرة الألفية. فقال والدها الأمير المذكور: هكذا ترفع الأقدار وتزان، وكذا يكون قران السعد وسعد القران. وأما أسعد روضاً أصبحت هذه المراحم الشريفة السلطانية له خميلة[٨]، وأشرف سيفاً غدت منطقة بروج

(١) في الأصل: «إيصال»، والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) هكذا في الأصل، بدون نقطة الضاد المعجمة.
(٣) في الأصل: «الأخية»، والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) وصلة بضم الواو، بمعنى إقامة صلة. الفيروزابادي: القاموس المحيط. مادة: وصل.
(٥) في الأصل: «يعطيه».
(٦) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.
(٧) في الأصل: «ويصرف دونها حدود».
(٨) هكذا في الأصل.

سمائها له خميلة، وما أعظمها معجزة آتت الأولياء من لدنها سلطاناً، وزادتهم مع إيمانهم إيماناً، وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لإبرامها: ليت، وأشرفها عبودية كرمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت. وإذ قد حصلت الاستخارة في رفع قدر المملوك[١]، وخَصَّصْته بهذه المزية التي تقاصرت عنها أمال أكابر الملوك، فالأمر لمليك البسيطة في رفع درجات عبيده كيف يشاء، والتصدق بما يتفوه به هذا الإنشاء، وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب مبارك تحاسدت رماح الخط وأقلام الخَطِّ على تحريره، وتنافست مطالع النّوار ومشارق الأنوار على نظم سطوره، فأضاء نور الجلالة وأشرق، وهطل نوره بالإحسان فأغدق. وتناسبت فيه أجناس من تجنيس لفظ التفضيل، فقال الاعترافُ، هذا ما تصدق، وقال العرفُ، هذا ما أصدق مولانا السلطان ـ وذكر نعوته وألقابه ـ أصدقها ما ملأ خزائن الأحساب فخاراً وشجرة الأنساب ثماراً، ومشكاة الجلالة أنواراً، وأضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصاراً. فبذل لها من العين المصري ما هو باسم والده قد تشرف، وبنعوته قد تعرف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرف».

ثم كان الدخول بها في شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة[٢].

واهتم السلطان بذلك اهتماماً لم يسمع بمثله، وخلع على جميع أكابر دولته من الأمراء والمقدمين والوزراء والقضاة والكتاب. وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون بتشريف كامل بشربوش كان السلطان قد لبسه ثم خلعه عليه.

ذكر توجه السلطان إلى الكرك واستبداله بمن فيها من الرجال وعوده[٣]

وفي يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة: حالة انقضاء العقد، ركب السلطان على الهجن وتوجه إلى الكرك في جمع يسير من جهة البرية، فوصل إلى قلعة الكرك في ثالث وعشرين الشهر. وكان سبب ذلك أنه بلغه عن بعض رجال القلعة أنهم عزموا على إثارة فتنة ونقل دولة، وأنهم عزموا على الوثوب بنواب السلطان

(١) في الأصل: «الملوك».
(٢) الموافق ١٢٧٦ م.
(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٤، س ٢.

بالكرك فيقتلونهم ويسلمون الحصن لأخ كان للملك القاهر ابن الملك المعظم لأمه، كَوْنُه ينسب إلى الملك الناصر، وكان مقيماً بالكرك لا يؤبه له. فدخل السلطان إلى الكرك بغتة، واستدعى الرجالة، وكانوا زهاء ستمائة، وأمر بالقبض عليهم وشنقهم، فشفع ما كان معه فيهم، فأخرجهم من الحصن وقطع أيدي وأرحل ستة نفر منهم من خلاف، كانوا سبب الفتنة. وكان السلطان قد استخدم رجالاً يثق بهم، وسفرهم إلى غزة، ولم يعرف أحداً قصده بهم، فأحضرهم إلى الكرك ورتبهم عوض من كان بها من الرجال. واستدعى السلطان الطواشي شمس الدين صواب السهيلي الصالحي ـ وكان يتولى صناعة الإنشاء بمصر ـ وسلم إليه الحصن، وفوض[١] إليه النظر في أمواله وحواصله وذخائره. وخرج متوجهاً إلى دمشق في يوم الجمعة ثامن عشرين ذي الحجة سنة أربع وسبعين وستمائة.

واتفق للسلطان في هذه السفرة أمور، وشاهد أبنية ومنازل غريبة في مسيره من الديار المصرية إلى الكرك. وقد ذكرها المولى محيي الدين بن عبد الظاهر واعتذر في بسط القول فيها[٢] لغرابتها. فأحببنا أن نذكر ذلك تلخيصاً.

قال: رحل السلطان من قلعته يوم الخميس المذكور فنزل بلبيس[٣]، وأقام إلى قرب وقت العصر، ورحل فنزل رأس الماء بوادي السدير، ورحل منه في نصف ليلة السبت، فنزل الكراع وأقام إلى غروب الشمس، وحمل الماء لكفاية يومين، وتوجه على طريق البدرية، وساق سوقاً عنيفاً إلى وقت الفجر من يوم الاثنين، لم يرح ولم يسترح إلا بقدر ما تشرب الخيل الماء وتستوفي العليق، فنزل جبل بدر، ثم ركب بعد الإسفار لشدة الوعر فوصل إلى بدر، ونزل عند العين.

قال: وهي عين تخرج من جبل أخضر ليس فيه نبات، منبعها من جهة الغرب تحت جبل شاهق، وهي شكل مغارة منقوبة، يدخل الإنسان منها مقدار عشرة خطى، فيجد عيناً تنبع عن بسرة الداخل إليها.

وكان السلطان قبل وصوله إلى العين قد بعث جماعة من العرب وأمرهم أن يجمعوا من ماء العين ما يكون حاصلاً للورود، فصنعوا حول العين حياضاً في الأرض شَكْلَ البرك محوطة بالحجارة، وملأوها من ماء العين، فوردها السلطان ومن معه،

---

(١) في الأصل «فوق». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في الأصل: «بها».

(٣) مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٩.

وارتفقوا بها، ولولا ذلك لهلكوا من الازدحام على الماء. ثم دخل السلطان بنفسه إلى المغارة، وجلس عند العين، وكان يملأ لمن معه قِرَبهم بيده ويناول كل قربة لصاحبها حتى ملأوا ما معهم. ثم رحل من بدر فنزل حسنة، وهي بئر واحدة. ورحل منها حتى انتهى إلى عين تعرف بالمليحة فوردها. ورحل وبات تحت جبل يعرف بنقب الرُّباعي، فلما أسفر الصبح صعد إلى الجبل، وإذا هو جبل عظيم به عقاب صعبة ـ وهي حجارة رخوة تشبه الرمل المتجمد، متغيرة الألوان إلى الحمرة والزرقة والبياض ـ وثم ثقوب في الجبل يعبر الراكب منها، وبها أمكنة تشبه السلالم من حجارة. وبها قبر هارون نبي الله أخي موسى ابن عمران، عليهما السلام، على يسرة السالك المتوجه إلى الشام. وثم قلعة تعرف بالأصوات[١] صعدها السلطان وشاهدها، فوجدها من أعجب الحصون وأمنعها لا يكون أحصن منها. ونزل من نقوب الرباعي إلى مدائن بني إسرائيل، وهي ثقوب في الجبال من أحسن الأشكال ذات بيوت بالعمد وأبواب، وظواهر البيوت مصوقة[٢] بالنقوش في الحجارة بالإزميل، وكلها مخربة، بها صور أشكال وهي على قدر دور الناس المبنية الآن، وداخل هذه البيوت الأواوين المنورة المعقودة والصفف المتقابلة والخزائن والدهاليز والحرميات[٣]. وليس ذلك مبنياً بل جميعه منحوت بالحديد أشكال المغاير[٤].

قال: وقد خلق الله تعالى جبلين متقابلين، بينهما طريق، وكل جبل منهما كأنه شكل سور مرتفع، والدور متصلة يميناً وشمالاً. ثم خرج السلطان من تلك الأمكنة إلى وادي المدرة، ثم منه إلى قرية تعرف بالعذبا، عرفت بذلك لأن بها العين التي يحمها موسى بن عمران عليه السلام بعصاه، وكانت تجري دماً، فقال: «عد بأمر الله ماء عذباً» فعادت العين ماء حلواً رائقاً بارداً، فبات السلطان بها، ورحل منها ليلة السبت حادي عشرين الشهر، فوصل قلعة الشوبك نصف نهار الأحد، وخيم هناك، وحضر أمراء بني عقبة وغيرهم من أمراء العربان، وقدموا الخيول والهجن وغير ذلك، ثم رحل من الشوبك نصف نهار الاثنين على طريق الحسا، فوصل إلى الكرك نصف نهار الثلاثاء ثالث عشرين الشهر.

قال: ولما كان في سابع وعشرين الشهر يوم الجمعة خرج السلطان إلى باب قلعة الكرك، وأحضر رجالها، وذُكر من خبر إخراجهم نحو ما تقدم.

---

(١) لم أقف على ترجمة لها.

(٢) لعل المعنى مُزوقة بالنقوش.

(٣) الحرميات: هي أجنحة متكاملة من الدرر. انظر القاموس المحيط للفيروزابادي (حرم).

(٤) المغاير هي المغايرات.

وفي هذه السنة: توفي الملك المسعود جلال الدين عبد الله ابن[١] الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وكانت وفاته بدمشق في خامس عشر جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون. وكان من أجمل الناس صورة وألطفهم خلقاً وأكثرهم أدباً، كثير المكارم وحسن العشرة، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الصاحب موفق الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد المَذْحجي الآمدي، وكان من أعيان الأكابر ممن يرشح للوزارة، وولي نظر الدواوين ثم رُتب آخراً ناظر الكرك والشوبك، فباشر ذلك مكرهاً، واستمر على ذلك إلى أن مات بالكرك. وكانت وفاته في ثامن عشر ذي الحجة، ودفن قريباً من مشهد جعفر التيار[٢] رضي الله عنه.

وفيها: في يوم الأحد ثالث عشر شهر ربيع الأول كانت وفاة الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير بدمشق ودفن بقاسيون[٣].

وفيها: في العشرين من شهر رمضان توفي الشيخ الإمام الفاضل تاج الدين أبو الحسن علي بن الأنجب البغدادي ـ المعروف بابن الساعي ـ المؤرخ خازن كتب المدرسة المستنصرية[٤]. كان فاضلاً، وله تاريخ مذيل على تاريخ ابن الأثير الجزري، رحمهما الله تعالى.

واستهلت سنة خمس وسبعين وستمائة[٥]

ذكر وصول جماعة من أمراء الروم إلى خدمة السلطان وطاعتهم له

قال: ووصلت الأخبار أن جماعة من أمراء الروم أظهروا طاعة السلطان وتجاهروا بذلك. وأن البرواناه[٦] انفرد عنهم وتقرب إلى التتار ورجع عما كان مشتركاً

---

(١) في الأصل: «بن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب. صحابي هاشمي، وهو أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وهو من السابقين إلى الإسلام. حضر وقعة مؤتة حيث مات شهيداً سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م. ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ١، ص ٢٠٥، ابن سعد: الطبقات، ج ٤، ص ٢٢.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٤.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٥) يوافق أولها يوم الاثنين ١٥ يونيه/ حزيران ١٢٧٦ م.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١، س ٣.

معهم فيه من طاعة السلطان، وتوجه إلى الأردو وطلب من أكابر أمراء الروم النجاة بأنفسهم [١]. وأخذ[٢] الأمير شرف الدين مسعود بن الخطير وأخوه ضياء الدين محمود: السلطانَ غياث الدين صاحب الروم وتوجها به إلى قلعة نكيدة[٣]، وكاتبوا السلطان. وكذلك الأمير حسام الدين بَيَنْجَار[٤] [الرومي][٥] وولده الأمير بهاء وأولاده، وجماعة من الأمراء وهم إثنا عشر أميراً، وطلبوا من السلطان أنه[٦] يتداركهم بعسكره. فركب [السلطان][٧] من الكرك كما تقدم، ووصل إلى دمشق في رابع عشر المحرم، فوصل الأمير حسام الدين بينجار والأمير بهاء الدين بهادر وولده [أحمد][٨]، ثم وصل بعدهما الأمير سيف الدين جندر[٩] بك صاحب الأبُلُسْتين[١٠]، والأمير مبارز الدين [سوار بن][١١] الجاشنكير وجماعة من أمراء الروم، فتلقاهم السلطان بنفسه وأحسن إليهم ووصل حريمهم وأولادهم، فجهزهم[١٢] إلى الديار المصرية، وكتب السلطان إلى الأمير بدر الدين بيسري والأمير شمس الدين أقش البرلي، وقَطْليجا، فحضرا إلى دمشق على خيل البريد، فطلب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر. وتوجه السلطان إلى حلب، وجهز الأمير سيف الدين بلبان الزيني الصالحي وصحبته جماعة من العسكر، فوصلوا إلى عين تاب، وقرر معهم التوجه إلى القلعة التي بها السلطان غياث الدين وابن الخطير. فورد كتاب الزيني أنه وصل إلى كرصُو[١٣]، فبلغه أن التتار وصلوا إليها

---

(١) في الأصل: «لأنفسهم». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩: «وقتل».

(٣) نكيدة: مدينة قديمة صغيرة. بينها وبين قيسارية ثلاثة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٣.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٥، س ٦، وكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٣٩.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٥، س ٦.

(٦) هكذا في الأصل.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٥.

(٨) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٥.

(٩) في الأصل: «حيدر» والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦٢٥.

(١٠) أَبُلُسْتين: مدينة مشهورة ببلاد الروم. وهي قريبة من أَبَسُس مدينة أصحاب الفيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٧٥.

(١١) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٦٢٥، وانظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل ص ٢٤٣.

(١٢) هكذا في الأصل.

(١٣) هكذا في الأصل.

أيضاً، وبقي بينه وبين العدو النهر، وجالوا بين العسكر وبين قلعة نكيدة، فرجع العسكر إلى عين تاب، وهرب شرف الدين بن الخطير[١] إلى بعض القلاع فتقرب إلى العدو بتسليمه السلطان إليهم. وبقي أخوه ضياء الدين في خدمة السلطان الظاهر بيبرس لأنه كان حضر إليه مستنجداً وسير هذا العسكر بسبب حضوره. وأما السلطان غياث الدين فعلم التتار أنه محكوم عليه فعفوا عنه، وسلموه إلى الصاحب والبرواناه.

وعاد السلطان إلى دمشق ومنها إلى الديار المصرية، فدخل قلعة الجبل في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة، فأقام إلى شهر رمضان من السنة وتوجه إلى الشام في العشرين من الشهر، فكانت غزوة الروم، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى، في الغزوات.

ذكر ظهور المسجد بجوار دير البغل وإقامة شعائر الإسلام به

وفي التاسع عشر من شوال من هذه السنة: خرج جماعة إلى دير القصير، المعروف بدير البغل ظاهر مصر، فرأوا أثر باب بجوار الدير، فدخلوا المكان فرأوا آثار محاريب المسلمين، فأنهوا ذلك إلى الصاحب بهاء الدين، فتقدم إلى القاضي بهاء الدين ناظر الأخباس أن يتوجه وصحبته نواب الحكم والعدول والمهندسون ومن يعتبر حضوره في مثل ذلك. فتوجه وصحبته القضاة والمشايخ: وجيه الدين البهنسي، وظهير الدين التَّزمنْتَيْ، وعلم الدين السمنودي نائب الحكم، ونظام الدين الخليلي، وجماعة من المهندسين، فشاهدوا المكان ورأوا به من الأثار ما يدل على أنه مسجد، وشهدوا بذلك عند القاضي علم الدين السمنودي فأثبته، ونقل الحكم إلى قاضي القضاة محيي الدين بن عين الدولة. وطولع الملك السعيد بذلك، فأمر الصاحب بهاء الدين بعمارته وإقامة من يحتاج إليه من إمام ومؤذن وزيت وفرش، فرتب ذلك له، وهو باق إلى يومنا هذا.

وفي هذه السنة في رابع شوال: كانت وفاة الصاحب بدر الدين جعفر ابن محمد بن علي بن محمد المذحجي الآمدي بدمشق وهو يومئذٍ ناظر النظار بها، ودفن بقاسيون. ومولده في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكان هو وأخوه موفق الدين من أمناء المباشرين وأرباب الستر على الكتاب، ولقب كل منهما بالصاحب، ولم يليا وزارة. ولما حضرا من بلاد آمد في سنة ثلاثين وستمائة هما وابن أختهما شمس الدين، لما نقل الملك الكامل أهل آمد منها. فلما عبرا الفرات قال موفق الدين لهما: «اعلما أننا نقدم على بلاد لا نعرف فيها أحداً، وليس لنا فيها معين إلا الله تعالى،

---

(١) في الأصل: «ابن الخطيب» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩.

فتعاهِدانِي والله تعالى، على الأمانة وألا نخون السلطان ولا الناس». فتعاهدوا على ذلك ودخلوا إلى الديار المصرية. وولوا المناصب فَوَفَيَا بما عاهدا عليه، ونكث ابن أختهما شمس الدين، فسلما في مباشراتهما. وكان شمس الدين كثير النكبات والمصادرات.

وفيها: كانت وفاة الشيخ الصالح برهان الدين أبي إسحاق بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة الكناني الحموي بالقدس الشريف يوم عيد الفطر، رحمه الله تعالى.

وفيها: كانت وفاة القاضي شرف الدين محمد بن يشكور المصري الكاتب، ولي مناصب جليلة، منها: نظر الجيش ونظر الدواوين بالديار المصرية. وكان بينه وبين الصاحب بهاء الدين مصاهرة ووحشة. وكانت وفاته بداره على الخليج بالقرب من مصر في ليلة الأحد خامس عشرين جمادى الأولى. ودفن يوم الأحد بالقرافة الصغرى. ومولده سنة ست عشرة وستمائة.

وفيها: توفي الأمير عز الدين إيغان ولادمر[1] الركني المعروف بسم الموت في محبسه بقلعة الجبل، وسلم إلى أهله في يوم الخميس ثامن عشر جمادى الآخرة، فدفن من يومه بمقابر باب النصر. وكان من الأمراء الأكابر، وقد تقدم ذكر اعتقاله.

هذا آخر ما لخصناه من الحوادث في الأيام الظاهرية، فلنذكر الغزوات والفتوحات الظاهرية.

ذكر غزوات السلطان الملك الظاهر وفتوحاته وما استولى عليه من البلاد الإسلامية

ولنبدأ من ذلك بذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية مما كان بيد غيره من الملوك وأصحاب الحصون. ثم نذكر الغزوات والفتوحات على مساقها بمقتضى ما يقدمه التاريخ ويؤخره توفية للشرط الذي شرطناه.

ذكر ما استولى عليه من القلاع والحصون والبلاد الإسلامية وأضافه إلى ممالكه

كان مما استولى عليه السلطان الملك الظاهر من القلاع والحصون والبلاد بعد أن استقر في الملك: الشوبك، والكرك، وقلعة البيرة، وحمص، والرحبة. وقد تقدم ذكر

(١) هكذا في الأصل. ولم ترد كلمة (ولا دمر) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٣، ولا في كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٤٣.

ذلك في أثناء أخباره فلا فائدة في إعادته. واستولى على خلاف ذلك مما نذكره الآن وهو: سواكن من بلاد اليمن، وخيبر من بلاد الحجاز، وقرقيسيا، وبَلاَطُنس، وصَهْيون، وبرزية، وحصون الدعوة من الشام وما والاه.

ذكر فتوح سواكن

كان فتحها في سنة أربع وستين وستمائة. وسبب ذلك أن صاحبها الشريف علم الدين أَسْبَغاني كان قد تعرض للتجار[١]، وأخذ ميراث من مات منهم في البحر ومنع أولادهم منه، وكوتب في ذلك وحذر من العود إليه، فلم تغن المكاتبات شيئاً، فَرُسم الأمير علاء الدين الخزندار متولي الأعمال القوصية والأعمال الإخميمية، فقصده، فورد كتابه أنه وصل إلى ثغر عيذاب وسير عسكراً إلى سواكن فهرب صاحبها، ثم توجه علاء الدين المذكور إليها من عيذاب في عشرة أيام، وكان معه من المراكب الكبار والصغار نيف وأربعون مركباً، ووصل إليه من القصير[٢] كلالين[٣] مُوَسَّقة بالمقاتلة، ودخل سواكن[٤] وأقام بها ومهدها وقرر أحوالها، ثم رجع إلى مدينة قوص[٥]. ولما فارق سواكن عاد صاحبها إليها فقاتله من بها أشد قتال، وعاد منها.

ذكر فتوح خيبر[٦]

كان فتحها في سنة اثنتين وستين وستمائة، وذلك أن أصحابها عبيد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وصلت كتبهم إلى السلطان يبذلون الطاعة والخدمة، فسير نجابين تستصح[٧] الأخبار، وندب الأمير أمين الدين موسى بن التركماني، وجهز الرماة والمقاتلة، وأنفق فيهم الأموال وجهز الخلع للمقدمين والمشايخ وكتب إلى نائب الكرك بتجهيز أمراء العربان وجماعة من البحرية صحبته، وجهز الغلال والذخائر لهذه القلعة، فتوجه الأمير أمين الدولة وافتتحها.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٦، ص ٥٥٠ ص ٥٥٨، س ٢، ص ٧٠٠.
(٢) القُصير: موضع قرب عيذاب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٦.
(٣) مدينة كبيرة في صعيد مصر، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤١٣.
(٤) نوع من السفن. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.
(٥) بلد على سواحل بحر الجار قرب عيذاب. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٦.
(٦) ناحية من المدينة لمن يريد الشام. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٩ ـ ٤١١.
(٧) هكذا في الأصل. ويعتقد أنها تستطلع.

ذكر فتوح قرقيسيا[(١)]

وقرقيسيا هذه من أقدم المدن، وكانت تعرف بالزبَّاء[(٢)] الملكة. وفيها يقول ابن دريد:

فاستنزل الزباء قسراً وهي في ... عقاب لوح الجو أعلا منتما

وكان السلطان قد راسل أهلها، وسير إليها الأمير كمال الدين الطوري وملكها وأقام بها مدة، فقصدها التتار، فعاد كمال الدين إلى السلطان وتركها. وفي شهر رمضان سنة ثلاث وستين وستمائة، أرسل مقدموها إلى عز الدين السكندري النائب بالرحبة، وسألوه عفو السلطان وسيروا رهائنهم، فتوجه إليها جماعة من الخيالة والأقحية، وساقوا من أول الليل إلى نصفه وباتوا على ما كسين[(٣)]، فلما أصبح الصبح أحاط بها المسلمون والعسكر وقتلوا من كان بها من عسكر التتار والكرج، وأسروا من المرتدة نيفاً وثمانين نفراً، وتسلموا الجسر ومراكبه والسلسلة، في نصف الشهر.

ذكر أخذ بَلَاطُنُس[(٤)] وخبرها

كانت بلاطنس جارية في مملكة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، فلما دخل التتار البلاد استولى عليها الأمير مظفر الدين عثمان صاحب صهيون[(٥)]، فطلب السلطان منه رد هذا الحصن، فصار يدافع ويقول: «أنا من جملة النواب». فلما توجه السلطان إلى أنطاكية سير إليه هدية ردها السلطان عليه، وسيّر جماعة من عسكر حلب أغاروا عليها. فتوالت رسله بالإذعان بالتسليم ويطلب قرية توقف عليه، فعين السلطان له قرية الحلمة[(٦)] من بلد شيزر، ووقفها عليه وعلى أولاده، وقرر أن يعطي صاحب بلاطنس شيئاً من بلد صهيون فقرر له السلطان منها

(١) قرقيسيا: بلد على مصب الخابور في الفرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) هي الزباء بنت عمرو بن حسان بن أذينة. الملكة المشهورة في العصر الجاهلي. صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة. الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٤١.

(٣) ماكسين: بلد بالخابور قريب من الرحبة. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٣.

(٤) بلاطُنُس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٨.

(٥) صهيون: موضع معروف بالبيت المقدس. وصهيون: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٦) لم أقف عليها.

بلاداً تغل[١] ثلاثين ألف درهم، وتُسُلمت بلاطنس منه في سادس عشر شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة.

وهذا الحصن من جملة معاقل الإسلام الحصينة لأنه بري بحري سهلي، ما أخذ بالسيف قط، بناه رجال يعرفون ببني الأحمر من أهل الجبال وحصنوه، فلما سمع بهم قطبان أنطاكية المسمى ببقيطا عاجلهم قبل إتمامه فملكه بالأمان، وأخذ في تحصينه وإتمام بنائه، وذلك في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة. فلما كان في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، خرج روجار صاحب أنطاكية فدوخ بلاد الإسلام، وقصد حصن بلاطنس وفيه بنو ضليعة أولاد أخي القاضي شرف الدين، فنزل على بلاطنس في يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذي الحجة من السنة، وأجلب عليه فتسلمه في يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة ثنتي عشرة، وعوضهم عنه بأنطاكية ثلاث قرى. فلما كان في يوم السبت سابع وعشرين شعبان سنة ثلاثين وخمسمائة وثب أهل بلاطنس على من فيه من الفرنج فقتلوهم، فاحتمت عليهم القَلّة. فأرسل أهل الجبال إلى منكجك التركماني صاحب بكسرائيل[٢] يستنجدونه فأتاهم وأقام يحاصرها مدة. فعمل الفرنج الذين بها حيلة عليه، وراسلوه وبذلوا له تسليمها على شرط أن يخفر نساءهم وأولادهم حتى يصلوا إلى جبلة أو إلى صهيون. فإذا جاءت لهم العلامة بوصولهم سالمين سلموها له، فلما وصلهم امتنعوا من التسليم. وكان ذلك حيلة منهم، فإن الأقوات ضاقت عندهم وضاقت الغلة عليهم، فاستراحوا بخروجهم عنهم وقويت نفوسهم. واتصل الخبر بأنطاكية فسيروا إليها عسكراً دفعة عنها. واستقرت بأيديهم إلى أن ملكها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على ما قدمناه.

ذكر تسليم صِهيون وبرزية[٣]

وفي سنة إحدى وسبعين وستمائة: تسلم السلطان صهيون[٤] وبرزية، وذلك أن صاحبها الأمير سيف الدين محمد ابن الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس بن بدر الدين خمردكين توفي في هذه السنة كما تقدم، وكان السلطان يومئذٍ

(١) في الأصل: «تعمل». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) بِكِسْرائيل: حصن من سواحل حمص مقابل جبلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٥.

(٣) برزية: حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٣.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٦، س ١.

بدمشق فاستدعى ولده الأمير سابق الدين سليمان فحضر، وأقطعه إمرة بأربعين فارساً، فكتب إلى عمه جلال الدين بتسليم القلعة إلى نواب السلطان بذخائرها، فتسلموا ذلك في ثاني عشر شهر ربيع الأول منها. وأقطع السلطان عميه جلال الدين مسعود ومجاهد الدين إبراهيم، كل منهما إمرة عشرة طواشية، ووصل أهل صاحب صهيون إلى دمشق.

ذكر أخبار الإسماعيلية وابتداء أمرهم والاستيلاء على حصونهم

أول من قام بدعوتهم الحسن بن الصباح(١) المعروف بالكيال، وهو من تلامذة ابن عطاش الطبيب(٢). قدم مصر في زمن المستنصر العبيدي في زي تاجر في سنة ثمانين وأربعمائة، ودخل عليه وخاطبه في إقامة الدعوة ببلاد العجم فأذن له. وكان الحسن كاتباً للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالرّي(٣). وادعى أنه قال للمستنصر: «من إمامي بعدك»؟ فأشار إلى نزار: فمن هنا سموا بالنزارية. وقال ابن السمعاني في تاريخه: إنما سموا بالإسماعيلية لأن جماعة من الباطنية ينسبون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق لانتساب زعيمهم المصري إلى محمد بن إسماعيل المذكور، وكان أول إظهار دعوتهم بالألموت، وطلوع أعلامه في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة. وجرى لنزار ما قدمناه بعد وفاة أبيه ومسك من الإسكندرية وجيء به إلى القصر فكان آخر العهد به. وانفصل أهل الألموت من العبيديين من ذلك الوقت. وشرع الإسماعيلية في افتتاح الحصون، فأخذوا قلعة وبنوا أخرى وأظهروا شغل السكين. وأول عملهم بالسكين، أن ابن الصباح كان ذا دين في الظاهر، وله جماعة من نسبته يتبعونه، فلما حضر من مصر إلى الألموت وهي حصينة وكان أصحابها ضعفاء، فقالوا لأصحابها: «نحن قوم زهاد نعبد الله ونشتري منكم نصف هذه القلعة ونقيم معكم نعبد الله». فاشترى نصفها بتسعة آلاف دينار. ثم قوي واستولى عليها وصاروا جماعة، فبلغ خبرهم ملك تلك البلاد فقصدهم بعساكره. فقال رجل منهم يعرف بعلي اليعقوبي: «أي شي يكون لي عندكم إن كفيتكم أمر هذا الجيش»؟ قالوا:

---

(١) هو الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي. داهية، شجاع، عالم بالهندسة والحساب والنجوم. كان مقدم الإسماعيلية بأصبهان ورحل عنها وطاف البلاد. توفي سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ/١١٠٦ م. غالب الطويل: تاريخ العلويين، ص ٢٧٣.

(٢) هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش. زعيم باطني من أهل أصبهان. قتل سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٧ م. ابن الأثير: المصدر السابق، حوادث سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠١ م.

(٣) الري: مدينة مشهورة، أكبر من أصبهان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١١٦ ـ ١١٨.

«نذكرك في تسابيحنا» فقال: «رضيت». فنزل بهم وقسمهم أرباعاً في أرباع العسكر وجعل معهم طبولاً. وقال: «إذا سمعتم الصايح فاضربوا الطبول وقولوا يا آل علي» بم هجم بهم على الملك فقتله فصاح أصحابه، فضرب أولئك الطبول، فامتلأت قلوبهم خوفاً وهربوا لا يلوي منهم أحد على أحد، وأصبحت خيامهم خالية، فنقلوا ما فيها إلى القلعة. وسنوا السكين من ذلك الوقت.

ثم بعثوا داعياً من دعاتهم يعرف بأبي محمد إلى الشام فملك قلاعاً من بلاد الناصرية.

ثم ملك بعده سنان: وهو سنان بن سلمان(١) بن محمد البصري(٢)، وأصله من قرية من قرى البصرة تعرف بعقر السدن(٣). وأقام في الشام نيفاً وثلاثين سنة، وكان يلبس الخشن، ولا يراه أحد يأكل ولا يشرب ولا يبول ولا يبصق، بل يجلس على صخرة، فاعتقدوا فيه التأله.

ثم ولي مكانه أبو منصور بن محمد وكان ابن الصباح، الذي قدمنا ذكره. [و](٤) لما قتل نزار طالبوه به، فقال: «إنه بين أعداء كثيرة والبلاد بعيدة ولا يمكنه الحضور، وقد عزم على أن يختفي في بطن امرأة ويجيء سالماً ويستأنف الولادة». فقنعوا بذلك، وأحضر لهم جارية قد أحبلها وقال: «إنه قد اختفى في هذه» فعظموها فولدت ابناً سماه حسناً. وقال: «نغير الاسم لتغيير الصورة». ومات حسن في سنة خمس عشرة وخمسمائة، وخلف ولده محمداً. ولمحمد ولد اسمه حسن خلف أباه بعد موته. ولما سمع ملك خوارزم شاه قصد بلادهم. فأظهر محمد بن حسن هذا أنه رأى علي بن أبي طالب في المنام يقول له: «تعيد شعار الإسلام وفرائضه وسننه» فعرف جماعته بذلك. ثم قال لهم: «الدين لنا، نتصرف تارة بوضع التكاليف عنكم، وتارة نأخذها منكم». فقالوا: «السمع والطاعة» فكتب إلى بغداد وسائر البلاد بذلك، واستدعى القراء والفقهاء واستخدم أهل قزوين(٥) في ركابه. وسير الخليفة رسولاً صحبة رسوله إلى حلب بتقوية

---

(١) في الأصل: «سليمان». والتصحيح من شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٩٤.

(٢) مقدم الإسماعيلية وصاحب دعوتهم في قلاع الشام. له مع صلاح الدين الأيوبي وقائع وقصص، ولم يذعن بالطاعة له. استمر في استقلاله حتى وفاته سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م. انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٩٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٧، ومرآة الزمان لليونيني، ج ٨، ص ٤١٩.

(٣) عقر السدن: من قرى الشرطة بين واسط والبصرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٧.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) قزوين: مدينة مشهورة غربي الري. بينها وبين الديلم في الشمال جبل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

يد نوابه وأن يقتل النائب القديم، ويولي هذا الواصل، فخلصوا بذلك من صولة خوارزم شاه.

هذا ابتداء أمر هذه الطائفة. وقد ذكرنا طرفاً من أخبارهم فيما تقدم، فلنذكر سبب الاستيلاء على بلادهم، وكيف انتزعها السلطان الملك الظاهر منهم.

ذكر استيلاء السلطان على بلاد الإسماعيلية وشيء من أخبارها[١]

وهي مصياف[٢] والعليقة والرصافة والكهف والمنيقة والقُدموس والخوابي.

وكان السلطان الملك الظاهر، رحمه الله، قد كسر شوكة هذه الطائفة الإسماعيلية، وأبطل رسومهم التي كانت مقررة لهم على ملوك الديار المصرية، وقرر عليهم قطيعة[٣] يحملونها إلى بيت المال. ثم لم يرضه ذلك إلى أن استولى على حصونهم وانتزعها من أيديهم.

وأول ما استولى عليه من حصونهم مصياف[٤]: استولى عليها في العشر الأوسط من شهر رجب سنة ثمان وستين وستمائة. وذلك أن السلطان كان قد حضر في جمادى الآخرة من هذه السنة إلى حصن الأكراد[٥] وأغار على البلاد الساحلية، ونزل بالقرب من البلاد الإسماعيلية، وحضر إلى خدمته صاحب حماه وصاحب صهيون، ولم يحضر نجم الدين [حسن][٦] ابن صاحب الإسماعيلية، ولا ولده شمس الدين. وسيروا يطلبون أن ينقصوا من القطيعة التي كانوا يقدمون بها للفرنج وأبطلها السلطان وتقررت لبيت المال. وكان السلطان قبل ذلك قد غضب على صارم الدين ابن [مبارك][٧] الرضي صاحب العُلَيْقَة[٨] لأجلهم، فتوصل صاحب صهيون في إصلاح أمره، فحضر إلى السلطان فرضي عنه وقلده بلاد الدعوة استقلالاً، وأعطاه طبخاناه، وعزل نجم

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧.

(٢) حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٤.

(٣) القطيعة: الضريبة. انظر القاموس المحيط: للفيروزابادي، مادة: قطع. وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٤) مصياف: حصن حصين للإسماعيلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤.

(٥) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٤.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٦، س ١٠.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٦، س ١٢.

(٨) العُلَيْقَة: إحدى حصون الإسماعيلية بالشام. انظر: Le Strange: op. cit. pp 352, 507.

الدين [حسن بن الشعراني][(١)] وولده من نيابة الدعوة. ونعت صارم الدين بالصحوبية على عادة نواب الدعوة، وتوجه في سابع عشر جمادى الآخرة وصحبته عز الدين العديمي أحد مفاردة الشام لتقرير أمره، وجرد صحبته جماعة من شيزر وغبرها، فوصلوا إلى مصياف وتحدثوا مع أهلها، فامتنعوا، فسير السلطان إليهم، فسلموها في العشر الأوسط من شهر رجب.

ومصياف هذه كرسي مملكة الدعوة، وبها أكابرهم، ومنها رسلهم إلى الملوك، فلما علم نجم الدين وولده سرعة هذا الاستيلاء سألوا الحضور. وحضر الصاحب نجم الدين حسن[(٢)] وعمره تسعون سنة، فرحمه السلطان وعفا عنه وولاه النيابة شريكاً لابن الرضي لأنه صهره، وكان أبوه هو المشار إليه. وقرر حمل مائة وعشرين ألف درهم في كل سنة. وتوجه نجم الدين وبقي ولده ملازماً باب السلطان، وتقرر على صارم الدين ابن الرضي حمل ألفي دينار في كل سنة.

[وكانت مصياف قديماً بيد الأمير وثاب بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس من أمراء بني كلاب في سنة خمس وتسعين وأربعمائة[(٣)]، فملكها ولده ناصر الدين سابق، فباعها لعز الدين أبي العساكر سلطان بن منقذ في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة[(٤)]، وجعل فيها الحاجب سنقر، فقتله الباطنية وملكوا الحصن في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة[(٥)]، وبقي في أيديهم إلى الآن].

ذكر فتوح العليقة والرّصافة

هذا الحصن من أمنع الحصون، وكان مختصاً بالرضى، ثم بولده صارم الدين، فجرت من المذكور أمور أوجبت اعتقاله بمصر، ورسم للعسكر المقيم ببلاطنس بمنازلتها، وسير إلى عبد الظاهر النائب بها وإلى جماعة من أهلها بالترغيب والترهيب، فتسلمها نواب السلطان في يوم السبت حادي عشر شوال سنة تسع وستين وستمائة[(٦)]، واستخدم بها الرجالة، ثم هجم نواب السلطان على الرصافة، وملكت في آخر الشهر المذكور.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٧، س ٢.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٨٦، س ١٠.

(٣) الموافق ١١٠١ م.

(٤) الموافق ١١٢٧ م.

(٥) الموافق ١١٤٠ م.

(٦) الموافق: ١٢٩٩ م.

ذكر فتوح بقية حصون الدعوة

كان قد تقرر على الصاحب نجم الدين عند وصوله إلى السلطان مائة ألف وعشرين ألف درهم في كل سنة، واستقر أن يكون هو وولده في خدمة السلطان، واستقر شمس الدين في صحبة ركاب السلطان، فنسب إليه أنه كاتب الفرنج. فحضر والده نجم الدين في سنة تسع وستين وستمائة عند فتوح حصن الأكراد فاعتذر عنه، وتحدث هو وولده المذكور مع الأتابك في تسليم القلاع، وأنهما يحضران إلى باب السلطان، فأجابهم إلى ذلك. وتوجه شمس الدين إلى الكهف لتدبير أمور أهله في عشرين يوماً ويعود، وسافر أبوه في الخدمة إلى القرين[١] ثم إلى الديار المصرية، فما حضر ولده وصار يعتذر عن الحضور. فكتب إليه السلطان: «أن الذي كنتم سألتموه من تسليم القلاع كأنكم رجعتم عنه، والوعد الذي وعدناكم نحن ما نخلفه، من أننا نعطيك إمرة بأربعين فارساً، وقد تسلم والدك الإقطاع». فورد جوابه يعتذر عن الحضور ويطلب حصن العليقة، وأنه يسلم بقية الحصون. فأجيب إلى ذلك. وسير السلطان الأمير علم الدين سنجر الدواداري وقاضي حمص فَخَلَّفا شمس الدين بحصن الكهف، ثم طالبوه بالتسليم[٢] فامتنع أهل الكهف عن ذلك باتفاق منه، فعادت الرسل بذلك. ثم أعيد إليه الأمير علم الدين الدواداري وعلم الدين شقير مقدم البريدية، فمنعا من الدخول إلى الكهف، ولم تؤخذ منهم الكتب. فأمر السلطان بمضايقتهم، فندم شمس الدين ونزل من الكهف، وجاء إلى السلطان بظاهر حماه في سادس وعشرين صفر سنة تسع وستين [وستمائة][٣]، فأكرمه السلطان، فسير ورقة إلى السلطان يقول: «إن أهل الكهف كانوا جهزوا فداوية إلى الأمراء»، فغضب السلطان وأمر بإمساكه في الوقت وإمساك أصحابه، وسيروا إلى مصر. واستمرت مضايقة حصونهم، وأُمْسِك والي الدعوة والناظر بسرمين[٤]، وكان لهم أقارب بالخوابي، فأشار عليهم الأمير سيف الدين بلبان الدوادار بمكاتبة أقاربهم بالتسليم. فحضر منهم جماعة، وأعطاهم السلطان الخلع والنفقات وأجراهم على رسومهم، فسلموا حصن الخوابي في سنة تسع وستين وستمائة. واستمر امتناع أهل الكهف والمنيقة[٥] والقدموس من التسليم، فرسم السلطان

---

(١) القُرين: حصن قرب صفد. انظر: Le strange: op. cit. p 495.

(٢) في الأصل: «من التسليم». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) سَرْمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٥.

(٥) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٧، س ٧، «المَيْنَقة».

للملك المنصور بمضايقة الكهف. واستمر ذلك إلى أواخر سنة إحدى وسبعين وستمائة.

فأما المنيقة: فتسلمها نواب السلطان في ثالث ذي القعدة من السنة.

والقُدْمُوس: حضر جماعة من أكابر أهلها وبذلوا الطاعة وتُسُلِّمت في ذي القعدة.

وأما الكهف: فتسلمه الأمير جمال الدين أقش الشهابي أحد أمراء الشام في ثاني وعشرين ذي الحجة من السنة، وسيرت مفاتيحه صحبة رسلهم ورسل صاحب حماه، وتكمل بذلك قلاع الدعوة.

وأقيمت بها الجمع وترضى عن الصحابة رضي الله عنهم، وأظهرت شعائر الإسلام بها.

ذكر أخبار هذه الحصون

فأما حصن الكهف: فقد ذكر في الكتب أنه الكف بغير هاء، وسمعت أكثر أهل تلك البلاد لا ينطقون في اسمه بالهاء. وكان هذا الحصن في يد نواب العبيديين ملوك مصر، فانتزعه الأمير ليث الدولة بن عمرون وأخذه، وبقي إلى ولاية سيف الدولة بن عمرون، فذبح على فراشه في سنة تسع وعشرين وخمسمائة[١]. وتولى ولده الحسن وهو خائف مما جرى على أبيه، فالتجأ إلى الإسماعيلية، واستدعى قوماً منهم وأسكنهم معه في الحصن ليتقوى بهم على بني عمه الذين يقصدونه. فأخرجوه من الحصن وملكوه إلى هذا الوقت.

وأما القدموس: فإنه كان في يد بني محرز بعد ولاية العبيديين، وكان آخر بني محرز، منير الدولة حمدان بن حسن بن محرز، فتوفي وملكه بعده ولده علم الدولة يوسف، فضعف عن حفظه، فسلمه للإسماعيلية في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة[٢].

وأما حصن المنيقة: وهو في جبل الرواديف، وبانيه رجل اسمه نصر بن مشرف الروادفي كان قد استولى على جميع المسلمين الساكنين بجبل الرواديف وما يليه، واستفحل أمره، فأخذ وحمل إلى أنطاكية، فاستتيب وأطلق، فعاد إلى أذية المسلمين والروم، فأخذ وطلب العفو، وأعطى ولده رهينة، وتنصح للروم وقال: «إن في آخر عمل الروم من آخر جبل الرواديف ضيعة تعرف بالمنيقة، ومكانها يصلح أن يكون به حصن ليحفظ على جميع الأعمال». فأجابوه إلى ذلك. فقال: «إن المسلمين لا

(١) الموافق: ١١٣٤ م.

(٢) الموافق: ١١٢٨ م.

يمكنونكم من بنائه، وإنما أنا أدفع المسلمين عنه، وأفهمهم أنني أبنيه لنفسي، فإذا بنيته سلمته لكم» فاغتر الروم بقوله وأعانوه، فلما بناه استعصى به، وشرع في بناء حصن آخر أمنع منه. ثم إن نقيطاً قطبان أنطاكية أتى إلى الحصن وحاصره في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، فلم يظفر به، ثم عاد إليه ومكله وخرب أبرجته إلى الأرض، ثم عمرت وصارت بعد ذلك للإسماعيلية.

وأما حصن الخوابي: وهو من جبل بهراء، فإن محمد بن علي بن حامد سلمه للروم في سنة إحدى عشرة وأربعمائة[١]، ثم صار للإسماعيلية.

هذا ما أمكن إيراده من أخبار هذه الفتوحات وابتداء أمر هذه الطائفة. فلنذكر خلاف ذلك من الغزوات الظاهرية والفتوحات، وما يتخلل ذلك ويناسبه من الصلح والمهادنات إن شاء الله تعالى.

ذكر غزوات السلطان وفتوحاته وما وقع من المصالحات والمهادنات

ولنبدأ من ذلك بالأمور التي أوجبت انحراف السلطان عن الفرنج بالبلاد الساحلية[٢] وأخذ بلادهم.

قد ذكرنا ما كان قد تقرر من الهدنة عند وصول السلطان إلى الشام في سنة تسع وخمسين وستمائة، وأن الفرنج لم يفوا بما تقرر من إطلاق الأسرى. فلما وصل السلطان إلى جهة الطور[٣] على ما قدمناه في سنة إحدى وستين [وستمائة][٤] عند القبض على الملك المغيث صاحب الكرك، وكان الفرنج قد شرعوا يحيدون عن الحق ويطلبون زرعين، والسلطان يجاوبهم «إنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية ضياعاً من مرج عيون[٥]، وقايضتم[٦] بها صاحب تبنين[٧]». ثم وردت رسلهم الآن يهنئون بالسلامة ويقولون: «ما عرفنا بوصول السلطان». فأجابهم: «إن من يريد يتولى

---

(١) الموافق: ١٠٢٠ م.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤، ٤٨٣.

(٣) الطُّور: جبل مطل على طبرية في الأردن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) مرج عيون: بسواحل الشام. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٠١.

(٦) في الأصل: «وقايضتوا». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٧) تبنين: بلدة في جبال بني عاملة، مطلة على بانياس. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤.

أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه هذه العساكر وجهل ما علمه الوحوش في الفلاة والحيتان في المياه من كثرة هذه العساكر، التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنابكها قد أصمّ سماع من وراء البحر من الفرنج وفي موقان[1] من التتار. فإذا كانت هذه العساكر تصل إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون بها فأي شيء تعلمون». وانفصل الرسل على هذا الحال.

ووصلت نواب يافا، ونواب أرسوف[2] بهدية أخذت منهم [تطميناً لقلوبهم، وتسكيناً لهم][3]. وكانت كتبهم وردت قبل ذلك مضمونها: طلب فسخ الهدنة والندم عليها، فصارت ترد الآن ببقائهم عليها وتمسكهم بالمواثيق.

وجرت أمور ومراسلات يطول شرحها اقتضت تغير السلطان، ثم كاتبهم السلطان يقول: «أنتم في أيام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنكم تنجدونه على السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخرجتم جميعاً خدمته ونجدته، وجرى ما جرى من خذلانه، وقتلكم وأسركم وأسر ملوككم ومقدميكم. وقد نقضت تلك الدولة ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد وأحسن إليكم، فقابلتم ذلك بأنكم رحتم لى الريذافرانس وأتيتم صحبته إلى مصر وساعدتموه حتى حوى عليكم ما جرى من القتل والأسر، فأي مرة وفيتم فيها لمملكة مصر. وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام وطاعة ملكها ونصرته، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي وأنا لا أحتاج إلى نصرتكم، فتردّون ما أخذتموه بهذا الطريق، وتفكون جميع أسرى المسلمين، وغير ذلك لا أقبله». فلما سمعوا هذه المقالة قالوا: «نحن لا ننقض الهدنة ونطلب مراحم السلطان في استدامتها، ونفك الأسرى». فقال السلطان: «كان هذا قبل خروجي في هذا الشتاء ووصول هذه العساكر»، وانفصلوا على هذه الصورة، وأمر أنهم لا يبيتون في الوطاق[4]. ورسم بهدم كنيسة الناصرة وهي أكبر مواطن عبادات النصرانية. فتوجه

---

(١) في الأصل: «موغان». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨٣، وموقان: إحدى أقسام آذربيجان. وبها مروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٢٥.

(٢) أرسون: مدينة على ساحل بحر الشام بين قَيسارية ويافا. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨٤، س ٣.

(٤) الوطاق: جمعه وطاقات. وهو لفظ تركي معناه الخيمة. انظر محيط المحيط للبستاني، مادة: وطق.

الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إليها وهدمها إلى الأرض، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجية أن يخرج من باب عكا. ثم جرد السلطان الأمير بدر الدين الأيدمري وصحبته جماعة فتوجهوا إلى جهة عكا وهجموا إلى أبوابها، ثم توجه الأمير المذكور مرة أخرى فأغار على المواشي واستباح منها شيئاً كثيراً، وأحضر ذلك إلى المخيم المنصور.

ذكر مسير السلطان إلى عكا

وفي ليلة السبت رابع جمادى الآخرة سنة إحدى وستين: ركب السلطان وجرد من كل عشرة فارساً صحبته، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلي أمير مهمندار في الدهليز، وساق من منزلة الطور نصف الليل. فلما أصبح وقف قريب عكا في الوادي الذي بقربها، ومنه يشرف عليها. وأمر الناس بلبس السلاح ورتب العساكر وساق وطاف بعكا من جهة البر، وسير جماعة إلى برج كان قريباً منها فيه جماعة فحاصروه، وللوقت عملت فيه الثقوب إلى قرب وقت المغرب والفرنج ينظرون من أبواب المدينة وتل الفضول. ثم رجع السلطان إلى الدهليز قريب البرج المذكور عند الماء. ولما أصبح ركب وساق إليها، وكان الفرنج قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر[١] في الطريق. ووقف الفرنج صفوفاً على التل، ورتب السلطان العساكر للقتال بنفسه، وردمت تلك الخنادق بحوافر الخيل وأيدي الغلمان والفقراء المجاهدين. وطلع الناس إلى تل الفضول وانهزم الفرنج إلى المدينة. وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار وقطعوا الأشجار. وساق العسكر إلى أبواب عكا يقتلون ويأسرون، فقتل جماعة كثيرة من الفرنج في ساعة واحدة، وأسرت جماعة بخيولهم، وجرح أكابرهم ووقعوا في الخندق بخيولهم، وهرب من بقي من الفرنج إلى الأبواب. ثم ساق السلطان وقت العصر إلى البرج الذي كان النقابون علقوه، ووقف حتى رمى وأخرج منه بالأمان أربعة خيالة أخوة، ونيف وثلاثين راجلاً [وبات السلطان على ذلك][٢] وأصبح السلطان وكشف بلاد الفرنج مكاناً مكاناً، وعبر على كنيسة الناصرة[٣]، ثم رجع وجلس على مسطبة كان قد أمر ببنائها قبالة الطور، وأوقد الشموع

(١) المعاثر: جمع العاثور. وهو ما يعد في الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيه أحد. وتأتي أيضاً بمعنى المهلكة من الأرض، وبمعنى البئر. انظر: Quatremère: op. cit, V 1, p 200, Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨٩.

(٣) في الأصل: «الناصرية». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٤٨٩، س ٧.

وأحضر الصاحب فخر الدين وزير الصحبة(١)، وجماعة كتاب الدرج(٢)، وكتاب الجيش، والسديد المعز(٣) مستوفي الصحبة(٤). وجعل الأمير سيف الدين بلبان الزيني أمير علم(٥) جالساً عند ديوان الجيش لكتابة المناشير(٦) وتجهيز الطلبخاناه، والأتابك بين يدي السلطان. واستدعى من جشاراته(٧) خمسمائة فرس برسم الطلبخاناه وخيول

---

(١) وزير الصحبة: يكون صاحب هذا المنصب وزيراً متنقلاً، يرافق السلطان في أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف شؤونها معه، وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله. انظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 139 N⁰" 171.

(٢) كتاب الدرج: كان كتاب الدرج من موظفي ديوان الإنشاء، وكذلك كتاب الدست. وقد شرح القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ عمل كل من هاتين الطبقتين من الكتاب وعددهما في زمنه وقبله. وكتاب الدرج، هم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر، أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير. وسموا: كتاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق. والمراد بالدرج في العرف العام: الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، وهو في عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير... انظر أيضاً القلقشندي، المصدر السابق ج ٥، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ وانظر: Demombynes: op. cit. index.

(٣) في الأصل: «الماعز». والتصحيح يقتضيه السياق. لأن «المعز» لقب من ألقاب مستوفي الصحبة.

(٤) مستوفي الصحبة. والمستوفي: من كتاب الأموال بالدواوين، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله. وسُمي لأهميته باسم «قطب الديوان». لأنه كان يقوم بضبط سير الأعمال اليومية بالديوان ومراقبة الموظفين. ومستوفي الصحبة: كان يشارك الوزير ويوصي بإلزام الكتاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها، وعمل المكلفات وتقدير المساحات، وتمييز قيم بعضها على بعض ومستجد الجرائد وما يقابل عليه من ديوان الإقطاعات والأحباش وغير ذلك. القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦٦، ج ١١، ص ٩٤؛ ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠١، وانظر: Morier: the Adventure of Hajji Baba of Isphahan, pp 17, 210.

(٥) أمير علم: صاحب هذه الوظيفة هو الذي يتولى أمر الأعلام السلطانية والطلبخاناه يكون المتحدث عليها من طبقة أمير. وجرت العادة في أيام المماليك أن يكون المتحدث عليها من طبقة أمير عشرة. للقلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢، ج ٥، ٤٥٦، ٤٦١، ٤٦٣.

(٦) في الأصل: «الأمثلة». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٠، س ٣. والمناشير جمع منشور. ومعنى المنشور هنا ما يكتب في الإقطاعات خاصة. وقد جرى الاصطلاح بهذا التخصيص في عهد دولة المماليك بمصر. وقبلها كان المكتوب بالإقطاع معروفاً **بالتوقيع** أيام الأيوبيين، **وبالسجل** أيام الفاطميين، **وبالمقاطعة** زمن العباسيين. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ١٣، ص ١٥٨.

(٧) الجشارات: جمع جشار، وهو مكان رعي الماشية من خيل وغيرها. وذكرها (دوزي) في عبارة: «ويعجم على جشارهم، فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ومائة من البقر». القلقشندي: المصدر السابق، ج ١١، ص ١٧١، وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar..

الأمراء، وأحضرت الخلع الكثيرة، ولم تزل المثالات والمناشير تكتب والسلطان يعلم، وكتب بين يديه في تلك الليلة ستة وخمسون منشوراً كباراً بخطب وهو يعلم، والنائب يكتب، وكتاب[١] ديوان الجيش يثبتون، ومستوفي الصحبة ينزل حتى كملت بين يديه. وأصبح السلطان فخلا بنفسه وجهز الطلبخاناه والصناجق والخيل والخلع للأمراء، وجعل الأمير ناصر الدين القميري نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية، ورحل من الطور وتوجه إلى الكرك وفتحها على ما قدمنا ذكره[٢].

ذكر قصد متملك الأرمن حلب المحروسة

وفي سنة اثنتين وستين وستمائة: وصل هيتوم بن قسطنطين متملك الأرمن من جهة هولاكو، وتوجه قبل دخوله إلى بلاده إلى السلطان ركن الدين صاحب الروم، فعزم صاحب الروم على الإيقاع به على غرة، ثم ينسب ذلك إلى التركمان، فشعر هيتوم[٣] بذلك، وكان قد استصحب معه قاضي بلاد هولاكو ليصلح بينه وبين صاحب الروم، وأعطاه عطاء كثيراً واستماله، فقال له هيتوم: «لا أقدر على دخول بلاد الروم حتى تحضر جماعة من التتار يخفرونني[٤]». فكتب القاضي إلى التتار الذين بالروم، فحضر منهم أربعمائة فارس، فتوجه بهم إلى السلطان ركن الدين، فخرج إليه وتلقاه مترجلاً لأجل القاضي، والأرمني لم يترجل، وقدم كل منهما للآخر تقدمة، لكن كانت تقدمة صاحب الروم لهيتوم أكثر، ثم جاءوا جميعهم إلى هرقلة[٥] وتحالفا واتفقا، واهتم هيتوم بجمع العساكر لقصد البلاد الإسلامية. وكان في عسكره من بني كلاب ألف فارس فقصد عين تاب. وكان السلطان قد اطلع على هذا الأمر لاهتمامه بالاستطلاع على الأخبار، فسير إلى عسكر حماه وعسكر حمص بالتوجه إلى حلب، فتوجهوا، وتوجه جماعة من العسكر المصري، فأغاروا على الأرمن وأسر أمير من أمراء هيتوم، وأخذ له مائة جمل من البخاتي فولوا منهزمين، وقتل منهم جماعة، وجرح صاحب حموص[٦] قرابة هيتوم الملك جراحة شديدة، فكتب الأرمني إلى التتار

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩١.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩١.
(٣) هيتوم: صاحب أرمينيا الصغرى، كان قد انضم إلى هولاكو رغبة منه في حماية مملكته من سلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب. وصارت تلك المملكة بذلك ولاية تابعة لدولة التتر بفارس. انظر: Enc. ist. Art: Armenia.
(٤) في الأصل: «يخفروني». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٥) هرقلة: مدينة ببلاد الروم. غزاها الرشيد بنفسه ثم افتتحها عنوة بعد حصار وحرب شديد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.
(٦) هكذا في الأصل. وحموص: قلعة شرقي تل حمدون. انظر: Le strange: op. cit. p 543.

الذين بالروم، وهم سبعمائة، فحضروا إليه لقصد الشام؛ فلما وصلوا إلى مرج[١] حارم وقعت ثلوج شديدة، وكان الأرمني قد كتب إلى أنطاكية يطلب نجدة، فأنجد منها بمائة وخمسين فارساً، ولبسوا كلهم السراقوجات تشبهاً بالتتار، واجتمعوا كلهم بالقرب من مرج حارم فكادوا يهلكون من كثرة الثلوج والأمطار، وخرج العسكر المنصور لقصدهم، وانقطعت عنهم الميرة فتأخروا راجعين، فعدم من أصحاب الأرمني مائة وعشرون فارساً، وثلاثون تترياً، وستة من خيالة أنطاكية وجماعة من رجالتهم.

ثم اهتم هيتوم بعد ذلك وجمع العساكر وفَصَّل ألف قباء تتري وألف سراقوج ألبسها أصحابه، ليوهم أنهم نجدة من التتار. فجرد السلطان عسكراً من دمشق إلى حمص وجماعة من حماه، وتوجه الأمير حسام الدين العين تابي فأغار على مرزبان وقتل وأسر وعاد سالماً. وتوالت الغارات من جميع الجهات، فتفرق جمع هيتوم، وعدل العسكر الإسلامي إلى أنطاكية فغنم وقتل وأسر.

وفي جمادى الآخرة منها: أغارت العساكر التي بالساحل صحبة الأمير ناصر الدين القيمري ووصلت إلى أبواب عكا.

وفي شهر رمضان من السنة: وصل كتاب الأمير ناصر الدين المذكور، يذكر أنه بلغه أن الفرنج توجهوا إلى جهة يافا، فأمره السلطان بالغارة على قيسارية وعثليث، فساق إلى باب عثليث فنهب وقتل وأسر، ثم ساق إلى قيسارية واعتمد فيها مثل ذلك. فرجع الذين بيافا.

ذكر محاصرة التتار البيرة[٢] وتجريد العساكر وانهزام العدو

كان السلطان قد توجه إلى جهة العباسة[٣]، في أوائل سنة ثلاث وستين وستمائة، للصيد ورمى البندق كما قدمناه، فأتته الأخبار أن التتار قد جمعوا ونازلوا البيرة، وللوقت أمر الأمير بدر الدين الخزندار بالركوب على الخيل السوابق إلى القلعة، وأنه ساعة وصوله يجرد أربعة آلاف فارس من العسكر الخفيف. ورجع السلطان إلى القلعة فبات ليلة واحدة، وجهز الأمير عز الدين إيغان، ورسم له بتقدمة العساكر وصحبته الأمير فخر الدين الحمصي، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، والأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي وجماعة من الأمراء والحلقة[٤]، وتوجهت هذه

---

(١) مرج حارم: حصن كبير بين حلب وأنطاكية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٩٩.

(٢) البيرة: بلد قرب سُمَيْسَاط بين حلب والثغور الرومية. وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٦.

(٣) بلدة على طريق الشام ومصر. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٥.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٩.

العساكر في رابع عشر ربيع الأول، وأمر الأمير جمال الدين أيدغدي الحاجبي بالسفر في أربعة آلاف فارس آخر، فخرجوا بعد العسكر الأول بأربعة أيام، وشرع السلطان في التجهيز، وخرج في خامس شهر ربيع الآخر، ورحل في سابع الشهر، ووصل إلى غزة في العشرين منه، فوصلت كتب النواب: إن العدو نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقاً. فكتب إلى الأمير عز الدين أيغان يستحثه على سرعة الحركة، ويقول: «متى لم تدركوا هذه القلعة؟ وإلا سقت إليها بنفسي جريدة». فساق العسكر وحث السير، فلما كان في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر، ورد البريد من جهة الأمير جمال الدين النجيبي نائب السلطنة بالشام وعطف كتابه بطاقة[١] من الملك المنصور صاحب حماه مضمونها: أنه وصل إلى البيرة بالعساكر المنصورة صحبة الأمير عز الدين إيغان، وأن التتار عندما شاهدوهم هربوا، ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم، وانهزموا لا يلوي أحد منهم على أحد. ثم وصلت أربعة من مماليك الأمراء بالبشارة. وورد كتاب الأمير جمال الدين أقوش المغيثي النائب بالبيرة يذكر صورة الحال، وأنه لما كثر العدو على القلعة وطم الخندق، حفر أهل البيرة حفيراً قدر قامة، وعملوا منه سرداباً نافذاً إلى الأحطاب التي كان العدو رماها في الخندق فأضرموا فيها النار، فاحترقت جميعها، ثم سد المسلمون السِّرب المحفور. وذكر مصابرة أهل الثغر، وأن نساءهم فعلن من حسن البلاء في مصابرة الأعداء ما لم يفعله الرجال. ومن جملة ما وصف أن برجاً واحداً كان عليه خمسة عشر منجنيقاً وثبت شهرين. فكتب السلطان بإطابة قلوب من بالثغر، وعينت أمثلة بالإقطاعات لمن جاهد من البحرية وغيرهم بالبيرة، واستشهد صارم الدين بكتاش الزاهدي أحد الأمراء المجردين بها بحجر منجنيق، وترك موجوداً كثيراً وبنتاً واحدة، فرسم السلطان بجميع ميراثه لابنته[٢]. واهتم السلطان بأمر القلعة، وكتب إلى جميع القلاع والولايات[٣] بما يحملونه إلى هذا الثغر من الأموال والغلال والأسلحة والعدد وغير ذلك، مما يحتاج أهل هذه القلعة إليه لمدة عشر سنين. وكتب إلى الأمراء والملك المنصور صاحبَ حماه أنهم لا يتحركون[٤] من مكانهم حتى ينظفوا الخندق وينقلوا الحجارة التي فيه، ففعلوا ذلك وأقاموا مدة بسببه. ووردت كتب الأمراء يخبرون أنه لما كانت نوبة الأمير عز الدين إيغان والأمير فخر الدين الحمصي والأمير

---

(١) البطاقة: أي الرسالة. ولفظ بطاقة، وجمعه بطائق معرب عن اليونانية «بتاكيون». انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ١٤، ص ١٢٢. محيط المحيط للبستاني. مادة: بطق، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى للبقلي، ص ٦٥.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٣) في الأصل: «والولاية». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) في الأصل: «لا يتحركوا». والتصحيح يقتضيه السياق.

بدر الدين الأيدمري، وجماعة من البحرية، وكانت خيلهم ترعى في الجانب الشامي وهم يعملون، فأحاط بهم فرقة من التتار المغل مُلَبسين، فأجمعوا ورموهم بالنشاب وأنكرهم بالجراحات، فولوا منهزمين، وساق العسكر خلفهم فوجد منهم جماعة قد هلكوا في الطريق من الجراحات، وقتل جماعة في ذلك اليوم. فاستدعى السلطان من الديار المصرية مائتي ألف درهم ومائتي تشريف، وكتب إلى دمشق بتجهيز مائة تشريف ودراهم، وجهز ذلك إلى البيرة، وكتب إلى الأمير عز الدين إيغان بأن يحضر أهل القلعة جميعهم من الأمراء والجند والعوام ويخلع عليهم وينفق فيهم المال حتى الحراس والضوية[١]. ثم عاد الأمراء بعد أن نظفوا الخندق ونقلوا إلى القلعة زلطاً كثيراً. ولما وصلوا رسم السلطان أن يكون الأمير جمال الدين المحمدي مقدماً على العساكر المصرية والشامية لكبر سنه، والأمير عز الدين إيغان يتحدث في المهمات وإطلاق الأموال وترتيب أمور البلاد.

هذا ما اتفق من أمر البيرة. فلنذكر ما افتتحه السلطان من البلاد الساحلية في هذه السفرة.

ذكر الفتوحات بالبلاد الفرنجية في هذه السفرة

قال: لما وصلت الأخبار إلى السلطان وهو بالساحل بانهزام التتار، واستقر خاطره من تلك الجهة، ثني أعنته إلى جهة الفرنج وجرد العزائم نحوهم. وركب من العوجاء بعد رحيل الأطلاب للصيد في غابة أرسوف. ورتب الحلقة ودخل الغابة وتصيد. ثم ساق إلى أرسوف وقيسارية وشاهدهما وعاد إلى دهليزه[٢]، فوجد أخشاب المجانيق قد وصلت صحبة زرد خاناه. فأمر الأمير عز الدين أمير جاندار أن ينصب عدة مجانيق مغربية وفرنجية، فعمل في ذلك اليوم أربع منجنيقات كباراً وعدة من الصغار. وكتب إلى القلاع يطلب المجانيق والصناع والحجارين ورسم للعسكر بعمل سلاليم وعين لكل أمير عدة منها، ورحل إلى قريب عيون الأساور[٣] [من وادي عارة

(١) الضوية: هم الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة. ويقال لهم الضوية والمشاعلية. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٢، ص ١٣٧. وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 4. N⁰ 5, Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) الدهليز هنا الخيمة، التي ترافق السلطان في الحرب. وتختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه، بكونها خيمة قائمة بذاتها، ليس بجوانبها خيم صغيرة، كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم. Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) عين الأساور: منزلة قرب الرملة من أعمال فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

وعرعرة][1] وأمر العسكر بعد العشاء الآخرة بلبس السلاح وأخذ أهبة الحرب، وركب قريب وقت الصبح وساق إلى قيسارية على حين غفلة من أهلها.

ذكر فتوح قيسارية

نزل السلطان عليها في يوم الخميس تاسع جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمائة، وللوقت طاف بها وهاجمها الناس، وألقوا نفوسهم في خنادقها، وعمدوا إلى سكك[2] الخيل الحديد[3] والشُبُح[4] والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب، ونصبت عليها الصناجق، وحرقت أبوابها، فهرب أهلها إلى قلعتها، فنصبت المجانيق على القلعة وهي من أحصن القلاع وأحسنها، وتعرف بالخضراء. وكان الريدافرانس حمل إليها العمد الصوان وأتقنها، ولم ير في الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع، لأن البحر حافٌ بها، وجايزٌ في خنادقها، والنقوب لا تعمل فيها للعمد الصوان المصلبة في بنائها، حتى إذا علقت لا تقع. فاستمر الزحف عليها ورمى المنجنيقات[5] وعملت دبابات[6] وزحافات[7]. وكان السلطان يركب في بعض الدبابات وتجر من

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٦، س ٥. وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 6 وقد ضبط هذين الاسمين على منطوقهما: (Arah et Ararah).

(٢) السكك: جمع سكة، وهي الوتد الذي يربط به مقود الحصان. انظر محيط المحيط للبستاني. مادة: سكة. وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) في السلوك للمقريزي قال: «وأخذوا السكك الحديد التي برسم الخيول مع المقاود والشُبُح. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٢٦، س ٨.

(٤) الشُبُح: جمع شبحة، وهي السلسلة التي يربط بها قدم الحصان، في أحد طرفيها عروة تزرر في القدم، وفي طرفها الآخر رزة تدق في الأرض. البستاني: محيط المحيط. مادة: شبح.

(٥) المنجنيق: هي من أسلحة الحصار، وقد عرفها المماليك وتقدمت صناعتها على أيديهم. وهي آلات يقذف بها على بعد، الأحجار واللهب وحتى الزرنيخ والأفيون. والقصد من ذلك خنق العدو. وكان المنجنيق يحمل على مائة عجلة. انظر صبح الأعشى: للقلقشندي، ج ٢، ص ١٤٣، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ج ٤، ص ٢٥ ـ ٢٦ والمماليك البحرية لعلي إبراهيم حسن، ص ٣٠٩.

(٦) الدبابات: جمع دبابة، وكانت عبارة عن شبه برج متحرك، له أحياناً أربعة أدوار، أولها من الخشب، وثانيها من الرصاص، وثالثها من الحديد، ورابعها من النحاس الأصفر، ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات، وتصعد إلى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٧) الزحافات: مشروحة ضمناً في: Dozy: Supp. Dict. Ar. في العبارة التالية: «. . . برج الزحف أو آلـــة الـــزحـــف: Est une sorte de toure dans laquelle se trouvent des soldats munis d'arbaléte et de machines de guerre, et qui est placée sur un chariot que L'on pousse contre les murailles d'une place forte, que l'on assiege.

تحته بالعجل حتى يصل إلى الأسوار ويرى الثقوب. وأخذ في بعض الأيام بيده ترساً وقاتل. وما رجع إلا وفي ترسه عدة سهام. وفي ليلة الخميس منتصف الشهر حضر الفرنج وسلموا القلعة بما فيها، وتسلق المسلمون إليها من الأسوار وحرقوا الأبواب ودخلوا من أعلاها وأسفلها، وأذن بالصبح عليها. وطلع السلطان إلى القلعة وقسم المدينة على أمرائه وخواصه ومماليكه وحلقته، وشرع في الهدم وأخذ بيده قطاعة وهدم بنفسه ويده.

وقيسارية هذه من المدن القديمة فتحت في صدر الإسلام في سنة تسع عشرة للهجرة[١]، على يد معاوية بن أبي سفيان، بعد قتال عظيم، ولم يكن معاوية أمير الجيش، إنما كان من قبل أخيه يزيد بن معاوية.

وفي جماد الأول: جرد السلطان الأمير شهاب الدين القيمري بجماعة من عسكر الساحل لجهة بيسان[٢]، فسير جماعة من العربان والتركمان للإغارة على عكا، فأغاروا ووصلوا إلى أبوابها وغنموا وعادوا.

ذكر التوجه إلى عثليث[٣] وأخذ حصن الملوحة[٤] وحيفا

قال: ولما قارب السلطان الفراغ من هدم قيسارية سير الأمير شمس سنقر الألفي الظاهري، والأمير سيف الدين المستعربي. وجماعة فهدموا قلعة للفرنج عند الملوحة وكانت عاصية فدكوها إلى الأرض.

وفي سادس وعشرين جمادى الأولى: توجه السلطان إلى عثليث جريدة، وسير الأمير شمس الدين سنقر السلاح دار الظاهري والأمير عز الدين الحموي، والأمير شمس الدين سنقر الألفي الظاهري إلى حيفا، فساروا إليها ودخلوا قلعتها، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب بعد أن قتل منهم وأسر. وأحضرت الأسرى والرؤوس، وأخربوا المدينة وقلعتها، وأحرقوا أبوابها، وذلك جميعه في يوم واحد.

وأما السلطان فإنه وصل إلى عثليث وأمر بتشعيثها وقطع أشجارها، فقطعت جميعها وخربت أبنيتها في ذلك النهار، وعاد السلطان إلى قيسارية وكمل هدمها.

---

(١) الموافق: ٦٤٠ م.

(٢) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(٣) عثليث: حصن بساحل الشام بين حيفا وقيسارية، وكان يعرف بالحصن الأحمر. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٥.

(٤) الملوحة: قرية كبيرة من قرى حلب. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩٥.

[حتى لم يدع لها أثراً، وقدمت منجنيقات من الصبيبة وزدخاناه[١] من دمشق. وورد عدّة من الفرنج للخدمة، فأكرمهم السلطان وأقطعهم الإقطاعات][٢].

ذكر فتوح أرسوف

وفي تاسع وعشرين جمادى الأولى من السنة: رحل السلطان من قيسارية وسار إلى أرسوف، فنازلها في مستهل جمادى الآخرة، وأمر بنقل الأحطاب فصارت حولها كالجبال الشاهقة، فعملت منها الستائر، وأمر بحفر سربين[٣] من خندق المدينة إلى خندق القلعة، وأسقفت بالأخشاب وسلمها لأكابر الأمراء، وعمل طريق من الخندقين إلى القلعة، فخرج الفرنج لإحراق الأحطاب فطلبهم الأمير سيف الدين قلاون الألفي وغيره، وقلب على الأحطاب المياه فطفئت[٤] النيران. ولما تكامل ردم الخندق بالأحطاب، تحيل الفرنج ونقبوا من داخل القلعة إلى أن وصلوا إلى تحت الردم، وعملوا بتاتي ملآنة أدهاناً وشحوماً وأضرموا النيران وعملوا في النقوب المفاتح، ولم يعلم العسكر بذلك إلا بعد تمكن النيران، فاحترقت تلك الأحطاب جميعها وكان ذلك في الليل. وجاء السلطان بنفسه وسكب المياه بالروايا، فلم تقد شيئاً. فعنذ ذلك تقدم السلطان إلى الأمير شمس الدين سنقر الرومي والأمير بدر الدين بيسري، والأمير بدر الدين الخزندار، والأمير شمس الدين الدكز الكركي، وجماعة من الأمراء، وهم نصف الأمراء الصنجقية، وميمنة الأمراء البحرية، وميمنة الأمراء الظاهرية، وميمنة الحلقة، بأن يأخذوا من مكانهم في باب السرب من حافات الخندق من جهة سوره حفراً إلى البحر الملح. وتقدم الأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير علم الدين الحلبي، والأمير سيف الدين كرمون وجماعة الأمراء، وهم نصف الأمراء الصنجقية من جهة الميسرة وميسرة الحلقة والبحرية، بأن يحفروا من الجهة الأخرى، وأن يحفروا[٥] من كل ناحية من هذه النواحي سرباً يكون حائط خندق وساتراً له. وتحفر في هذا الحائط

---

(١) الزردخاناه: دار السلاح. وهي تشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر. وتعني أيضاً السجن المخصص للمجرمين من الأمراء، وأصحاب الرتب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١. وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar..

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٢٨.

(٣) السرب: ما يحتفر في حصار المدن والحصون، ليتوصل به إليها من غير أن يصيب السالكين فيه ما يرشقهم به أهلها. البستاني: محيط المحيط مادة: ذنب.

(٤) في الأصل: «فطفت النيران». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) في الأصل: «يحفر». والتصحيح يقتضيه السياق.

أبواب يرمى التراب فيها وتترك في هذه السروب حتى يساوي أرضها بأرض الخندق، وعذق[١] هذا الأمر بعز الدين أيبك الفخري أحد أصحاب الأتابك، فاستمر العمل في هذه الخنادق والسلطان طائف فيها بنفسه ويعمل بيده، وهو تارة في السروب، وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر، ويرامى مراكب الفرنج ويجر في المنجنيق ويرمى من الستائر[٢].

وحكى عنه الأمير جمال الدين بن نهار، رحمه الله، قال: «رأيت السلطان في هذا النهار رمى بثلثمائة سهم نشاباً». واتفق أن السلطان حضر إلى السرب وقعد في رأسه خلف طاقة يرمى فيها، فخرج جماعة من الفرنج الفرسان ومعهم الرماح بالخطاطيف فلم يشعر إلا وهم على باب السرب، فقام وقاتلهم يداً بيد، وكان معه الأمير شمس الدين سنقر الرومي والأمير بدر الدين بيسري والأمير بدر الدين الخزندار وغيرهم. وصار سنقر الرومي يناوله الحجارة، فقتل بها فارسين، وقطع الأمير حسام الدين الدوادار أحد الخطاطيف بسيفه وجرح في عضده، ورجع الفرنج على أسوأ حال.

وحضر في هذه الغزاة جمع كبير من [العباد والزهاد والفقهاء والفقراء وأصناف العباد، ولم يعهد فيها خمر ولا شيء من الفواحش، بل كانت][٣] النساء الصالحات يسقين الماء ويجررن في المجانيق. وأطلق السلطان لجماعة من الصالحين الرواتب مثل: الشيخ علي المجنون والشيخ إلياس، وأطلق للشيخ علي البكا جملة من المال.

قال: وأهتم بأمر المجانيق وأحضرها من دمشق، وعمل كرمون أغا منجنيقاً بسبعة سهام وأثر أثراً حسناً. وكان للأمير عز الدين أيبك الأقرم أمير جاندار في هذه الغزاة أوفر نصيب، وهو الذي تولى أمر المجانيق.

قال: ولما أثرت المجانيق في هذه الأسوار ونجزت الأسربة التي إلى جانب الخندق من الجهتين وفتحت فيها أبواب متسعة حصل الزحف على أرسوف في يوم الاثنين ثامن شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة، وافتتحت في يوم الخميس. وذلك أن الباشورة[٤] سقطت في الساعة الرابعة من النهار، وطلع المسلمون إليها

---

(١) هكذا في الأصل. وقد تكون الكلمة «علق» بمعنى أسند.

(٢) الستائر: جمع ستارة، وهي حائط خارجي مبني من الخشب أو غيره. يحتمي وراءه المدافعون عن حصن أو سور. ويستخدم المهاجمون الستائر أيضاً للوقاية من قذائف العدو. ويقابل هذا اللفظ في الفرنسية: (Courtine) وفي الإنكليزية: (Curtain). انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٩، س ٧ - ٨.

(٤) الباشورة هنا سد من التراب، لمنع وصول الخيالة والسهام إلى مواضع المحاربين. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

تسلقاً[١]، وما أحس الفرنج بالمسلمين إلا وقد خالطوهم من كل باب. ورفعت الأعلام على الباشورة، وحفت بها المقاتلة، وطرحت النيران في أبوابها. وأعطى السلطان صنجقة للأمير شمس الدين الرومي، وأمره أن يؤمن الفرنج به من القتل عندما طلبوا الأمان. فلما رآه الفرنج بطلوا[٢] القتال، وسلم الصنجق للأمير علم الدين سنجر المسروري الحاجب المعروف بالخياط، ودليت[٣] له الحبال من قلعة أرسوف فربطها في وسطه والصنجق معه، ونشله[٤] الفرنج إلى القلعة فأخذ سيوفهم، وأحضروا في الحبال [إلى السلطان][٥].

ولما خلت القلعة من الفرنج أباحها السلطان للمسلمين بجميع ما فيها من أموال وغلال وذخائر. وكان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض [السلطان لشيء][٦] منها إلا لما اشتراه بالمال. وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا في تلك الساعة وأخذت قيودهم وقيد بها الفرنج. وجرد جماعة من المقدمين يتوجهون مع الأسرى. وسير لكل أمير جماعة، ولكل مقدم جماعة. وشرع السلطان في تقسيم أبراج أرسوف على الأمراء، وجعل هدمها دستورهم، ورسم بإحضار الأسارى لإخرابها، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿. . . يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ. . .﴾[٧] [الحشر: ٢].

ورحل السلطان عن أرسوف بعد استكمال هدمها في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة[٨].

ذكر ما ملكه السلطان لأمرائه من النواحي التي فتحها الله على يده

قال: لما فتح الله تعالى على السلطان قيسارية أمر الأمير سيف الدين الدوادار الرومي بكشف بلادها وتحقيق متحصلاتها، وعملت أوراق بذلك. ولما فتح الله أرسوف طلب [السلطان][٩] قاضي القضاة بدمشق وجماعة من العدول ووكيل بيت

---

(١) في الأصل: «تسليقاً». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) كلمة عامية بمعنى توقفوا عن القتال، أو تركوا القتال.
(٣) دليت أي أُنزلت.
(٤) نشله أي رفعه. ونرى هنا الكاتب يتكلم بالعامية.
(٥)، (٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٠.
(٧) سورة الحشر من الآية ٢ وتتمتها: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.
(٨) الموافق: ١٢٦٤ م.
(٩) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٠.

المال، وتقدم بأن يُملك الأمراء [المجاهدون][١] من البلاد التي فتحها الله على يديه ما يأتي ذكره. وكتبت التواقيع[٢] لكل منهم ولم يطلعوا عليها، ولما كملت قرئت[٣] على أربابها، وكتب بذلك مكتوب جامع بالتمليك:

ونسخته بعد البسملة:

أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود، وتمكينه الذي[٤] رفلت الملة الإسلامية منه في أصفى البرود، وفتحه الذي إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه علمت أنه الأمر ما يسود من يسود.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاهد الكفار، وجاهرهم بأعمال السيف البتار، وأعلمهم لمن عقبى الدار، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتواصل بالعشي والإبكار.

فإن خير النعم نعمة وردت بعد اليأس، وجاءت بعد توحشها وهي حسَنة الإيناس، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس، وصرعت أبواب الجهاد وقد غلقت في الوجوه، وأنطقت السنة المنابر وشفاة المحابر بالبشائر التي ما اعتقد أحد أنه بها يفوه، فأكرم بها نعمة على الإسلام وصلت للملة المحمدية أسباباً، وفتحت للفتوحات أبواباً، وهزمت من التتار والفرنج العدوين، ورابطت بين الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين، وجعلت عساكر الإسلام تذل الفرنج بغزوهم في عقر الدار، وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والأمصار، وتملأ خنادقهم بشاهق الأسوار، وتقود مَنْ فَضَلَ عن شِبَع[٥] السيف الساغب في قبضة القيد إلى حلقات الإسار. ففرقةٌ منها تقتلع للفرنج قلاعاً وتهدم حصوناً، وفرقةٌ تبني ما هدم التتار بالمشرق وتعليه تحصيناً. وفرقةٌ تتسلم بالحجاز قلاعاً شاهقة وتتسنّم هضاباً سامقة، فهي بحمد الله البانية الهادمة والمفيدة العادمة والقاسمة الراحمة. كل ذلك بمن أقامه الله للأمة الإسلامية راحماً، وجرد به سيفاً قد شحذت التجارب حديه ففرى، وحملت رياح النصرة ركابه تسخيراً فسار إلى مواطن الظفر وسرى، وكونته السعادة ملكاً إذا رأته في دستها قالت تعظيماً: «هذا ملك ما هذا بشراً». وهو مولانا السلطان الأجل العالم

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٠، س ١٠.

(٢) التواقيع: جمع توقيع، ومعناه هنا نسخة الأمر بتعيين شخص على إقطاع. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٤٤. وانظر: Demombynes: op. cit. Introd. p L VIII.

(٣) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٠: «فرقت».

(٤) في الأصل: «الذي». وكذلك في السلوك، ج ١، ص ٥٣٠، س ١٣.

(٥) الضبط من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٠، س ٢١.

العادل المؤيد المنصور، ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، محيي العدل في العالمين، قاتل الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، سلطان بلاد الله، حافظ عباد الله، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك، اسكندر الزمان، صاحب القرآن، ملك البحرين صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، الآمر ببيعة الخليفتين صلاح الجمهور صاحب البلاد والأقاليم والثغور، فاتح الأمصار، مبيد التتار، ناصر الشريعة المحمدية، رافع علم الملة الإسلامية، مقتلع القلاع من الكافرين، القائم بفرض الجهاد في العالمين أبو[١] الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين، جعل الله سيوفه مفاتيح[٢] البلاد وأعلامه أعلاماً من الأسنة، على رأسها نار لهداية العباد، فإنه آخذ البلاد ومعطيها، وواهبها بما فيها، وإذا عامله الله بلطفه شكر، وإذا قدر عفا وأصلح، فكم وافقه قدر، وإذا أهدت إليه النصرة فتوحاً بسيفه قسمها في حاضريها لديه متكرماً، وقال الهدية لمن حضر، وإذا خوله الله تخويلاً من بلاد الكفر وفتح على يديه قلاعاً جعل الهدم للأسوار، والدماء للسيف البتار، والرقاب للإسار، والنواحي المزروعة للأولياء والأنصار، ولم يجعل لنفسه إلا ما تسطره الأملاك في الصحائف لصِفَاحِه[٣] من الأجور، وتطوى عليه طويات السِّيَر التي غدت بما فتحه الله من الثغور باسمِه باسمةَ الثغور:

فتى جعل البلاد من العطايا ... فأعطى المدن واحتقر الضياعا

سمعنا بالكرام وقد رأينا ... عياناً ضعف ما فعلوا سماعا

إذا فعل الكرام على قياس ... جميلاً كان ما فعل ابتداعا

ولما كان ـ خلد الله سلطانه ـ بهذه المثابة، وفتح الفتوحات التي أجزل الله بها أجره وثوابه، وله أولياء كالنجوم إنارةً وضياء، وكالأقدار نفاذاً ومضاءً، وكالعقود تناسقاً، وكالوبل تلاحقاً إلى الطاعة وتسابقاً، وكالنفس الواحدة عبودية له وتصادقاً، رأى ـ خلد الله سلطانه ـ أن لا ينفرد عنهم بنعمة، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ، وبعزائمهم تستخلص، وأن يؤثرهم على نفسه، ويقسم[٤] عليهم الأشعة من أنوار شمسه، ويبقى للولد منهم وولد الولد ما يدوم إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد، ويعيش الأبناء في نعمته كما عاش الآباء. وخير الإحسان ما شمل،

---

(١) في الأصل: «أبي». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣١: «مفاتح».

(٣) الصفاح: جمع صفح، عرض السيف، وربما أريد هنا به السيف كله. ويقال للسيف أيضاً الصفيحة، وهي السيف العريض. البستاني: محيط المحيط. مادة: صفح.

(٤) في الأصل: «نفسهم». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣١، س ٢٠.

وأحسنه ما خلد، فخرج الأمر العالي لا زال يشمل الأعقاب والذراري، وينير إنارة الأنجم الدراري، أن يُمَلِّك جماعة أمرائه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذا المكتوب الشريف يسطرون، ما يعين من البلاد والقرى والضياع على ما يشرح ويبين من الأوضاع وهو:

المولى الأتابك فارس الدين أقطاي الصالحي	عَتِّيل[1] بكمالها
الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي	النصف من زِيْتَا
الأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي	نصف طُوركرم
الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري	نصف طوركرم
الأمير شمس الدين الدكز الكركي	ربع زيتا
الأمير سيف الدين قليج البغدادي	ربع زيتا
الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحي	أَفْراسِين[2] بكمالها
الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي	باقة الشرقية بكمالها
الأمير عز الدين أيدمر الحلي الصالحي	نصف قَلَنْسُوَه
الأمير شمس الدين سنقر الرومي الصالحي	نصف قلنسوه
الأمير سيف الدين قلاون الألفي الصالحي	نصف طَيِّبة الاسم
الأمير عز الدين إيغان الركني سم الموت	نصف طَيِّبة الاسم
الأمير جمال الدين أقش النجيبي نائب سلطنة الشام	أم الفحم بكمالها من قيسارية
الأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحي	بَتَان[3] بكمالها

(١) ضبط هذا الاسم من ابن أبي الفضائل في كتابه النهج السديد، ص ١٣٩. وستلي هنا جملة أسماء الجهات التي أقطعها السلطان بيبرس لأمرائه، وهي قرى وضياع حول قيسارية وأرسوف، وليس لأحدها تعريف في معجم البلدان لياقوت. وقد قوبلت جميعها. وضبطت حسبما جاء في ابن أبي الفضائل، ص ١٣٩. كما صححت منه أيضاً أسماء الأشخاص الواردة في النص.

(٢) في الأصل: «أقراصين». والتصحيح والضبط من كتاب النهج السديد، ص ١٣٩.

(٣) في الأصل: «بثان». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٢، س ١٣، ومن النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٣٩.

الأمير جمال الدين أقش المحمدي الصالحي	نصف بُورِين
الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي	نصف بورين
الأمير جمال الدين أيدغدي الحاجبي الناصري	نصف بيّزين
الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري الصالحي	نصف بيزين
الأمير فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث	ثلث حَلَمة[(١)]
الأمير شمس الدين سلار البغدادي	ثلث حلمة
الأمير صارم الدين صُراغان[(٢)] التتري	ثلث حلمة
الأمير ناصر الدين القيمري	نصف البرج الأحمر
الأمير سيف الدين بلبان الزيني الصالحي	نصف البرج الأحمر
الأمير سيف الدين إيتامش السعدي	نصف يمّا
الأمير شمس الدين آقسنقر السلحدار الظاهري	نصف يمّا
الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة	نصف دَيَّابة[(٣)]
الملك المظفّر علاء الدين أخوه صاحب سنجار	نصف ديابة
الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان	دير الغصون[(٤)] بكمالها
الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار	نصف الشُّوَيْكَة
الأمير سيف الدين كرمون أغا [التتري][(٥)]	نصف الشويكة
الأمير بدر الدين بيليك الوزيري	نصف طُبَرْس
الأمير ركن الدين منكورس الدواداري	نصف طبرس

(١) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٣، س ١: «حَلَبَة».
(٢) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٣، س ٢ «صُراغان».
(٣) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٣، س ٥، «دَنَّابة».
(٤) هكذا في الأصل. وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٣٩: «القُصُون».
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٣.

الأمير سيف الدين قشتمر العجمي	عَلّار بكمالها
الأمير علاء الدين أخو الدوادار	نصف عَرْعَرَا
الأمير سيف الدين سنجق[١] البغدادي	نصف عرعرا
الأمير سيف الدين دكاجك[٢] البغدادي	نصف فَرْعُوْن
الأمير علم الدين سنجر الأزكشي	نصف فرعون
الأمير علم الدين سنجر طردح الآمدي	أَسْتَابَا[٣] بكمالها
الأمير حسام الدين إيتمش بن أطلس خان	سِيدا بكمالها
الأمير علاء الدين كندغدي الظاهري أمير مجلس	الصَّبر[٤] الفوقا
الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري	نصف أرتاح
الأمير شمس الدين سنقر الألفي	نصف أرتاح
الأمير علاء الدين[٥] طيبرس الظاهري	نصف باقة الغربية
الأمير علاء الدين علي سكز[٦]	نصف باقة الغربية
الأمير عز الدين أيدمر الفخري الأتابكي	القصير بكمالها
الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري	أَخْصَاص بكمالها
الأمير ركن الدين بيبرس المعزي	نصف قَفّين
الأمير شجاع الدين طغريل الشبلي أمير مهمندار	نصف كفر راعي
الأمير علاء الدين كندغدي الحبيشي مقدم الأمراء البحرية	نصف كفر راعي

---

(١) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٣، س ١١: «قَفْجَق».
(٢) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «دكجل».
(٣) في السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «أَقْتَابَة».
(٤) في السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «الصُّفرا».
(٥) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «علم الدين».
(٦) في السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «تنكز».

الأمير شرف الدين يعقوب بن أبي القاسم	نصف كسفا(١)
الأمير بهاء الدين يعقوب بن الشهرزوري	نصف كسفا
الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستادالدار العالية	نصف برويكة(٢)
الأمير علم الدين سنجر الحلبي الغزاوي	نصف برويكة
الأمير علم الدين سنجر [نائب](٣) أمير جاندار	نصف حانوتاً من أرسوف
الأمير سيف الدين بيدغان الركني	فرديسيا بكمالها من قيسارية
الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الكرك	ثلث جبلة من أرسوف
الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري	ثلث جبلة من أرسوف
[الأمير جمال الدين أقوش السلاح دار الرومي	ثلث جبلة من أرسوف](٤)
الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح	ثلث جلجولية
الأمير بدر الدين بكتوت بجكا الرومي	ثلث جُلْجُولِيَّة
الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي الصالحي	ثلث جلجولية

وكتب من كتاب التمليك الشرعي الجامع نسخ، وفرقت لكل أمير نسخة بمكانه، وخلع على قاضي القضاة، وتوجه [السلطان](٥) إلى دمشق.

ذكر قصد البرنس صاحب طرابلس حمص وانهزامه

وفي ثامن صفر سنة أربع وستين وستمائة(٦)، جمع البرنس بيمند بن بيمند جموعه، واستنصر بالدواية والإسبتار، وقصد جهة حمص. وكانت النائب بها الأمير

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٤: «كَنْتَ».
(٢) في السلوك، ج ١، ص ٥٣٤: «بَرْنِيكِيَّة».
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٣٤، س ٤.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٤، س ٦.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٦) الموافق: ١٢٦٥ م.

علاء الدين سنجر الباقشردي[١] قد اطلع على حركته، فاحترز وجعل الطلائع على المخائض. فقصد البرنس مخاضة بلالة فسبقه الباقشردي إليها وملكها. فلما جاء البرنس ورآها قد ملكت عدل إلى غيرها فقويت نفوس المسلمين، وعدّوا الماء إليه وتبعوه فانهزم، وساقوا خلفه يقتلون ويأسرون وينهبون إلى أن توغل في بلاده.

ذكر إغارة العساكر على طرابلس بالشام وفتح قلعة حلبا وقلعة عرقا[٢]

وفي سنة أربع وستين وستمائة[٣] في شهر رجب، اهتم السلطان بأمر الغزاة، وطلب الأجناد من إقطاعاتهم من سائر أعمال الديار المصرية، فحضروا بأجمعهم. وخرج السلطان في مستهل شعبان ورحل في ثالثه. ولما وصل إلى غزة جرد الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي والأمير سيف الدين قلاون الألفي وجماعة من العسكر المنصور. وتوجه السلطان لزيارة البيت المقدس والخليل، صلوات الله عليه، فزار وكشف المظالم ومد سماط الخليل، عليه الصلاة والسلام، وأكل منه وأكل الناس، وفرق جملة من المال على الأئمة والفقراء والمؤذنين والعوام وغيرهم. وبلغه أن اليهود والنصارى يؤخذ منهم حقوق زيارة الخليل، والنزول في المغارة، فأنكر ذلك، وكتب مرسوماً بمنع أهل الذمة من دخول المقام الشريف. ثم رحل إلى عين جالوت.

وأما العسكر المجرد: فوصلوا إلى حمص فورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس، فركبوا على غرة من العدو، فأصبحوا على حصن الأكراد، وأغاروا إلى ساحل البحر من جهة طرابلس، ونزلوا على حصن ثيب من عمل حصن الأكراد فأقاموا عليه يوماً واحداً، فأخذوه وأسروا منه جماعة وهرب من كان بحلبا من الفرنج وأخلوها، فدخلها العسكر وكسبوا منها شيئاً كثيراً من نحاس وصناديق وسكر وغيره، ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم، فقتلوهم وأخذوا نساءهم. ولما شاهد[٤] أهل عرقا ما حل بحلبا نجوا بأنفسهم، فأخرب العسكر القلعتين ونزلوا على حصن القليعات فتسلموه في رابع شهر رمضان بالأمان وهدموه، وعادت العساكر. فنزل الأمير سيف الدين قلاون بالقرب من القليعات، وسير بالليل بعض المقدمين ليترقب من يخرج من

(١) هكذا بالأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٣، س ١٠: «الباشقردي».
(٢) عِرْقا: بلدة في شرقي طرابلس. وهي آخر عمل دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠٩ ـ ١١٠.
(٣) الموافق: ١٢٦٥ م.
(٤) في الأصل: «شاهدوا». والتصحيح يقتضيه السياق.

الفرنج، فوجد خمسين نفراً متوجهين من صافيتا إلى حصن الأكراد أقجية وجرخية فقتلهم جميعاً، وأحضرت رؤوسهم. وخرج جماعة من الداوية للغارة على الغلمان الذين يحشون لخيل العسكر، وكان الأمير سيف الدين قلاون قد رتب مع الغلمان جماعة من العسكر، فلما جاءهم الداوية خرج عليهم العسكر فقتلوا بعض الفرنج وأسروا البعض. وسير صاحب صافيتا جاسوساً فأمسك وشنق. وكان في جملة هذا العسكر من العربان ألفا[١] فارس وجاهدوا أتم جهاد، وجرح الأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا جرحين. ورسم السلطان أنه من عدم له فرس يعوض عنه رأسين من البقر، ورسم بتجريد جماعة حمص وعود العسكر.

ذكر إغارة العسكر على صور

قال: ولما نزل السلطان على عين جالوت رحل منها إلى جهة عكا، وجرد الأمير علاء الدين البندقدار والأمير عز الدين إيغان الركني بجماعة من العسكر إلى جهة صور، فأغاروا عليها وغنموا كثيراً من الجمال والبقر والغنم. وأسر كمندور[٢] صاحب سيس ونفران معه كانوا انحازوا إلى برج فأخذوا بالأمان، وأخذ وزير صور وجماعة من الفرنج. وتوجه الأمير سيف الدين أوتامش إلى جهة صيدا؛ ورسم لهم السلطان بالحضور إلى جهة صفد. وتوجه السلطان إلى عكا، وجرد الأمير بدر الأيدمري، والأمير بدر الدين بيسري[٣] إلى جهة القرين[٤]، وجرد الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عاملة[٥]، فأغارت العساكر [على الفرنج][٦] من كل جهة، وحاصر الأمراء القرين، وأخذت قلعة بالقرب من عكا، وتوالت المكاسب حتى لم يوجد من يشتري الأبقار والجواميس لكثرتها.

---

(١) في الأصل: «ألفي». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) كمندور: هذا اللفظ تعريب حرفي لكلمة (Commander) باللغة الإنكليزية. والراجح أن مرادفها في اللغة العربية الصحيحة لفظ (المقدم). وهو الذي يلي الرئيس العام في ترتيب الوظائف الكبرى عند الاسبتارية والداوية. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٥، حاشية رقم (٣).

(٣) في الأصل: «سيبري». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٥، س ٥.

(٤) في السلوك، ج ١، ص ٥٤٥، س ٦: «القرن». والقرن لعله قرن الحامرة من إحدى قرى دمشق، انظر: Le strange: op. cit. p 481.

(٥) جبل عاملة: يطلق هذا الاسم على جهة جبلية قرب الساحل، في إقليم صفد. ويوجد بها حصن الشقيف. انظر: Le strange: Ibid. pp 75 - 76.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٥، س ٧.

ذكر فتوح صفد

كان السلطان، قبيل توجهه إلى عكا، قد رسم للأمير علاء الدين أيدكين الشهابي أحد الأمراء بالشام ولجماعة من العسكر أن يتوجهوا إلى بلاد الفرنج، ولم يُعْلم إلى أي جهة. ثم كتب كتاباً وأمره أن لا يقرأه إلا إذا ركب هو والعساكر، وكان مضمونه أن يتوجه إلى صفد، ويتوجه الأمير فخر الدين الفايزي إلى الشقيف. فتوجه الأمير علاء الدين إليها وأحاط بها إحاطة حافظ لا مقاتل، ثم جرد الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح ومعه دهليز إلى صفد، ثم حضر إليها الأمير علاء الدين البندقدار والأمير عز الدين إيغان الركني بعد إغارتهم على صور فنزلوا إليها وضايقوها، وأقام السلطان على عكا. ثم حضرت عساكر الغارات، وعمل [السلطان][١] عدة مجانيق وفرقها على الأمراء ليحملوها، ثم رحل والعساكر لابسة وساق إلى قريب باب عكا ووقف على تل الفضول، ثم دخل إلى عين جالوت، وكان الأمير سيف الدين الزيني قد توجه إلى دمشق لإحضار المجانيق، فأحضرها وحملت على الرقاب، وسار السلطان ونزل على صفد في يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة أربع وستين وستمائة[٢]. وأنفق السلطان والعساكر، واتفق أن الناس تناوشوا القتال فساق الأمير عز الدين خاص ترك الظاهري وحمل وواصل[٣] الطعن. فتقدم الحجارون وأخذوا في النقوب ورمي الزراقون[٤] بالنفط فاحترق الباب. وأنعم السلطان على خاص ترك بعشرة آلاف درهم وفرس وجوشن[٥] وخلعة. ثم أقيمت المجانيق ورمت في سادس وعشرين الشهر، وكان وصولها في الحادي والعشرين منه، ولما وصلت إلى جسر يعقوب[٦] عجز الجمال عن نقلها، فندب السلطان الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب، وخرج السلطان بنفسه وخواصه وجر أخشابها بيده. ووصلت العساكر التي كانت في الغارة ببلاد طرابلس، واستمر الحصار وشرع الناس في الزحف في شوال، وأمر السلطان بتحريك الطلبخاناه في نصف الليل، وركب وهجم خندق الباشورة، فقاتل الفرنج قتالاً شديداً، وأبلى المؤمنون بلاء حسناً واستشهد جماعة من المجاهدين، وصار الإنسان

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الموافق: ١٢٦٥ م.

(٣) في الأصل: «ووصل». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) الزراقون: جمع زراق. ومعناه هنا رامي النفط من الزراقة. ويقابل لفظ الزراقة في: Dozy: Supp. Dict. Ar. Le tube avec lequelle on Lancait le naphte أي الأنبوبة التي يزرق بها النفط.

(٥) الجوشن: نوع من الدروع. انظر محيط المحيط للبستاني. مادة: جوشن.

(٦) جسر يعقوب: منزلة من صفد. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٦، س ٣.

يرى رفيقه قد قتل فيجره ويقف مكانه، وتكاثرت النقوب ودخلت[١] النقابون إليها، وأعطاهم السلطان ثلاثمائة دينار، وصار كل من عمل شيئاً جزاه السلطان لوقته عنه بالخلع والمال. وفي أثناء ذلك نظر السلطان إلى الناس وقد تعبوا في وقت القائلة من القتال، وتفرق بعضهم وهو راكب ملازم، فأمر خواصه بالسّوق إلى الصواوين وإقامة الأمراء والجند منها بالدبابيس، وسبَّ الأمراء. وقال: «المسلمون على هذه الصورة وأنتم تستريحون»، ورسم بأمساك الأمراء وكانوا نيفاً وأربعين أميراً فقيدهم ونقلهم إلى الزردخاناه، فوقعت الشفاعة فيهم فأطلقهم وأمرهم بملازمة مواضعهم. ووسعت النقوب وشرطت الأسوار، فحرق الفرنج الستائر التي كانت على الباشورة ليحموها[٢] من التسلق[٣]. فأمر السلطان بضرب الطلبخاناه، وقام كل أحد إلى جهته، فضرب المسلمون سكك الخيل في سفح الباشورة، فلما أصبح الصبح إلا والصناجق على أسوار الباشورة من كل جهة، واندفع الفرنج إلى القلعة وسلموا الباشورة في يوم الثلاثاء نصف شوال. وفي هذا اليوم أخذت النقوب في برج اليتيم وغيره من أبراج القلعة. فعند ذلك أتت رسل الفرنج إلى السلطان يسألون الأمان، فاشترط عليهم ألا يستصحبوا[٤] سلاحاً ولا لامة حرب ولا شيئاً من الفضيات، ولا يتلفوا ذخائر القلعة بنار ولا هدم، فعادوا لأصحابهم على ذلك. وبقي السلطان يعطي الأمانات من المرامي ويسير المناديل، وتقرر مع جماعة أنهم يفتحون الأبواب. فتسامع الفرنج بذلك، ووقع بينهم الاختلاف، وحضر خمسة عشر نفراً من القلعة منفردين في وقت واحد فخلع عليهم، ونودي في العسكر بأن لا يرموا أحداً من الفرنج غير الديوية. فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال، وردوا الأمان وقالوا: «ما ندخل في شرط»، ورمى الرسل الخلع والمال المنعم عليهم من الأسوار. ثم أيقنوا بالهلاك، فسيروا رسلهم في يوم الجمعة ثامن عشر الشهر يطلبون ما كانوا طلبوه أولاً، فامتنع السلطان من ذلك. فأخذ الأتابك منديل جمال الدين أقش القليجي مقدم الجمدارية وأعطاه لهم على أنهم لا يخرجون شيئاً[٥] مما ذكرناه. فتوجه الرسل وصاح الفرنج بعد صلاة الجمعة: «يا مسلمين! الأمان» وفتحت أبواب القلعة وقت العصر، وطلعت الصناجق. ووقف السلطان راكباً على باب صفد، ونزل الفرنج أولاً فأولاً وصاروا جميعهم بين يديه،

(١) هكذا في الأصل.
(٢) في الأصل: «ليحملوها». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) في الأصل: «التسليق». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) في الأصل: «ألا يستصحبون». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٥) في الأصل: «شيء». والتصحيح يقتضيه السياق.

وأخرجوا معهم الأسلحة والفضيات[١] وأخفوها في قماشهم[٢]، وأخذوا جماعة من أسرى المسلمين وصغارهم على أنهم نصارى. فلم يخف الله ذلك، ورُسم بتفتيشهم فوجد ذلك معهم فأخذ منهم، وأنزلوا عن خيولهم، وجعلوا في خيمة، وقد حصل منهم ما ينقض العهد أن لو كان، فكيف ولم يكن حقيقة. وأمر السلطان بضرب أعناقهم، فضربت رقابهم على تل بالقرب من صفد كانوا يضربون رقاب المسلمين فيه. ولم يسلم منهم غير نفرين، أحدهما الرسول بحكم أن السلطان كان قد شرب قمزاً في النقب[٣] وخرج إليه الرسول فسقاه منه، فعفا السلطان عنه وخيّره في التوجه إلى قومه أو الإقامة عنده، فاختار المقام في خدمة السلطان وأسلم[٤]، فأعطاه السلطان إقطاعاً، وأما الآخر فإن الأتابك شفع فيه فأطلقه السلطان. ودخل السلطان القلعة وفرق على الأمراء ما فيها من العدد الفرنجية والجواري والمماليك، واستناب في القلعة الأمير عز الدين العلائي، وولي الأمير مجد الدين الطوري ومقدم العسكر الأمير علاء الدين أيدغدي السلاح دار، ونقلت إليها الزردخاناه التي كانت صحبة السلطان، وصار يحمل النشاب على كتفه، فنقلت في أسرع وقت، وطلب لها الرجال من دمشق، وتقررت نفقة رجالها في كل شهر ثمانين ألف درهم. واستخدم على جميع بلادها الأمراء، وعمل بها جامع بالقلعة وجامع في الربض، ووقف على الشيخ علي المجنون نصف وربع الحباب[٥] والربع منها على الشيخ إلياس، ووقف على قبر خالد بن الوليد قرية منها.

ورحل منها إلى دمشق في سابع وعشرين شوال، فنزل بالجسورة، وأمر أن العساكر لا تدخل دمشق بل تتوجه إلى سيس[٦].

---

(١) يفهم من كلمة «الفضيات» أن المقصود في هذا الصدد هو المال. انظر: Quatremere: op. cit, V2, p 30.

(٢) أي في أمتعتهم أو ثيابهم.

(٣) النقب: موضع قرب بيت المقدس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٩٨.

(٤) كان الشخص الذي أسلم فارساً من الداوية، وكان الثاني من فرسان الإسبتار. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٤٨ حاشية رقم (١).

(٥) في الأصل: «الحفاف». والتصحيح في معجم البلدان لياقوت، ج ٤، ص ٨١. وهي إحدى بلاد وادي القرى بين دمشق والمدينة.

(٦) في الأصل: «حبيس» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٩، س ٢. وسيس: عاصمة أرمينيا الصغرى (قليقية) وموقعها بين أنطاكية وطرسوس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٧. انظر: سِيْسِية.

ذكر غزوة سيس وأسر ملكها وقتل أخيه وعمه وأسر ولد عمه

قال: وجهز السلطان الملك المنصور صاحب حماه، وجرد معه الأمير عز الدين إيغان، والأمير سيف الدين قلاون، ورسم للأمراء بتعظيمه. وتوجهوا في خامس ذي القعدة من سنة أربع وستين وستمائة[١]. فوصلوا إلى الدرب ساك[٢] ودخلوا الدربند[٣]، وكان الملك المجير هيتوم بن قسطنطين بن باساك قد ملّك ولده ليفون وانقطع هو مترهباً، فلما طَلّب[٤] المسلمون وقف ليفون في عسكره وطلّب، وتوهم أن المسلمين لا يقدرون على الطلوع في الجبال لأن التكفور كان قد بنى على رؤوس الجبال أبراجاً، فكانت كقول الشاعر:

وإن يبن حيطانا عليه فإنما أولئك عقالاته لا معاقله

فطلعت العساكر في رؤوس الجبال، فلما وقعت العين في العين أسر الملك ليفون، وقتل أخوه وعمه، وانهزم كندا سطبل عمه الآخر، وأسر ولده، وهرب صاحب حموص. وكان فيهم اثنا عشر ملكاً تمزقوا كل ممزق، وقتلت أبطالهم. وساقت العساكر في هذا النهار وأقامت على كونجيد من عمل سرفندكار، ونزلت في اليوم الثاني بأعمال تل حمدون، وهي تقتل وتأسر وتحرق. وأحرقوا حموص، ثم توجهوا إلى نهر جهان فخاضته العساكر ونزلوا بقرب العمودين، وهي قلعة حصينة شاهقة للداوية. فلما طافت بها العساكر أذعن أهلها لتسليمها وكان فيها ألفان ومائتان نفراً، فقتل الرجال، وفرقت السبايا على العساكر، وأحرقت هذه القلعة وما فيها من الحواصل والذخائر. ورحلوا إلى سيس فأخربوها وأقامت العساكر أياماً تحرق وتقتل وتأسر. وأقام الملك المنصور صاحب حماه بها. وتوجه الأمير عز الدين إيغان إلى جهة الروم، والأمير سيف الدين قلاون إلى المصيصة وأدنة وإياس وطرسوس فقتلوا وأسروا وأحرقوا. وهدمت قلعة الداوية[٥] المعروفة بالبنية، وحرقت لهم أماكن كثيرة من حصون وبلاد وهدمت.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. وتوافق ١٢٦٥ م.

(٢) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥١: دير بسّاك. وهو قرب أنطاكية، من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٠٠.

(٣) الدربند: جمع دربندات. ومن معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة. والمراد هنا الطرقات المؤدية إلى بلدة سيس. انظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٤) طلّب: أي جمع ما حوله واستعد للقتال. البستاني: محيط المحيط، مادة: طلب.

(٥) لعلها العامدين: وهي حصن بأرمينيا الصغرى. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص ١٥١.

ثم عادت العساكر إلى سيس بعد أن غنمت غنائم كثيرة، حتى بيع الرأس البقر بدرهمين ولم يجد من يشتريه، واستاقت العساكر الغنائم.

ووردت هذه الأخبار إلى السلطان وهو يتصيد بجرود، فأعطى المبشر ألف دينار، ودخل دمشق فتجهز وخرج لتلقي عساكره.

ذكر قتل أهل قارا وسبي ذراريهم

لما توجه السلطان من دمشق ليلقى عساكره الواردة من سيس مر بقارا في سادس ذي الحجة فأمر بنهبها وقتل من بها.

وكان سبب ذلك أن بعض الركابية كان قد خدم الطواشي مرشد مقدم العسكر بحماه لما عاد من الخدمة السلطانية كما تقدم، ووصل إلى منزلة العيون مرض بها وبات ولم يشعر به الطواشي. فأتاه رجلان من أهل قارا وتوجها به إليها ليضيفاه، فأقام عندهما ثلاثة أيام حتى عوفي، ثم أخذاه بالليل وتوجها به إلى حصن الأكراد فأباعاه[١] بها بأربعين ديناراً صورية. واتفق في تلك السنة تَوَجُّه بعض تجار دمشق إلى حصن الأكراد لابتياع أسرى، فاشترى ذلك الركابي في جملة ما اشتراه وحمله إلى دمشق وأطلقه، فخدم بعض الجند وخرج فيمن خرج مع السلطان. فلما وصل إلى قارا حضر الركابي إلى مجلس الأمير فارس الدين الأتابك وأنهى إليه صورة الحال، فسأله هل يعرف الذي باعه؟ قال: «نعم». فسير معه جاندارية، فتوجه ووجد أحد الرجلين فقبض عليه وأحضره. فأنهى الأتابك ذلك إلى السلطان فأحضرهما بين يديه، وتقابلا فأنكر القاري. فقال الركابي: «فأنا أعرف بيته وما فيه»، فعند ذلك اعترف القاري، وقال: «ما أنا أفعل هذا جميع من بقارا يفعله». وكان قد حضر من قارا رهبان بضيافة إلى باب الدهليز، فأمر السلطان بالقبض عليهم، وركب بنفسه وقصد الديرة التي خارج قارا، فقتل من بها ونهبها، ثم عاد وأمر العسكر بالركوب، وقصد التل الذي بظاهر قارا من جهة الشمال، واستدعى أبا العز الريس بها، وقال له: «نحن بقصد الصيد، فمر أهل قارا بالخروج بأجمعهم». فخرج منهم جماعة إلى ظاهر القرية، فلما أبعدوا عنها، أمر بضرب رقابهم فضربت ولم يسلم منهم إلا من هرب واختفى بالعمائر والآبار، وعصى بالأبرجة بها جماعة فأمّنوا وأخذوا أسرى، وكانوا ألفاً وسبعين نفراً من رجل وامرأة وصبي. وانتمى جماعة إلى أبي العز ريسها فأطلقهم السلطان له، ثم أمر بتوسيط[٢]

(١) هكذا في الأصل.

(٢) في الأصل: «يتوسط». والتصحيح يقتضيه السياق.

الرهبان الذين حضروا بالضيافة فوسطوا. وتقدم إلى العسكر بنهب قارا فنهبوها[١]، ثم أمر أن يجعل كنيستها جامعاً، ونقل إليها الرعية من التركمان وغيرهم حتى شحنها بالناس، ورتب فيها خطيباً وقاضياً، وكانت قبل ذلك يسكنها النصارى، وكان السبب في إبقاء الرئيس أبي العز أن السلطان الملك الظاهر لما ساق خلف التتار بعد وقعة عين جالوت مر بقارا فخرج إليه هذا الرئيس وأضافه، فرعى السلطان له ذلك وأحسن إليه.

وبيعت أولاد أهل قارا فتربُّوا بين المماليك وتَكَلَّمُوا باللغة التركية، ثم صاروا بعد ذلك أجناداً، وتأمر منهم جماعة وتولوا الأقاليم الكبار والمناصب بالديار المصرية، وتمولوا.

قال: ولما فرغ السلطان من قتل أهل قارا ونهبها توجه إلى حماه، فعيّد بها عيد الأضحى، وسار منها[٢] إلى أفامية[٣]، ورحل للقاء العساكر في ثالث عشر ذي الحجة. وكان قد أُفْرِد نصيب السلطان من الغنائم، ففرق ذلك على عساكره.

وأحسن إلى صاحب سيس ومن معه في الأسر، وعاد إلى دمشق في رابع وعشرين الشهر فدخلها مطلّباً[٤] وصاحب سيس وابن عمه وأصحابه بين يديه، وخلع على الملوك والأمراء والأكابر، وسير لصاحب حماه ولأصحابه الخيول والخلع والأموال، وودعه، وتوجه إلى مملكته.

وخرج السلطان من دمشق في ثاني المحرم على ما قدمناه.

ذكر وقعة مع الفرنج كانت النصرة فيها للمسلمين

وفي المحرم سنة خمس وستين وستمائة[٥]: بلغ العسكر الصفدي[٦] أن العدو أجاز على بلد طبرية، فركب العسكر وطلبوا جهة عكا، فلما وصلوا إلى وادي علين[٧] خرج عليهم الفرنج، وكان قد وصلهم نجدة من قبرص وغيرها، فضرب العسكر معهم

---

(١) في الأصل: «فنهب». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في الأصل: «معها». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام. وكورة من كور حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧.
(٤) مطّلبا: أي في استعراض رسمي.
(٥) الموافق: ١٢٦٦ م.
(٦) أي نسبة إلى صفد. وصفد: مدينة مطلة على حمص بالشام. وهي من جبال لبنان. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤١٢.
(٧) هكذا في الأصل.

مصافاً فانكسر الفرنج، وكانت عدتهم ألف ومائة فارس فقتل أكثرهم، وعملت أعزبة عظيمة بعكا لمن قتل من ملوكهم في هذه الوقعة.

ذكر إغارة السلطان على عكا

قد ذكرنا أن السلطان توجه إلى الشام لعمارة صفد في سنة خمس وستين وستمائة، وأن رسل الفرنج أتوه بها وتحدثوا معه في أمر بلادهم. وأجابوا إلى ما قاله لهم من مناصفة صيدا وهدم الشقيف.

قال: وأنكر السلطان عليهم إغارتهم على مشغر، وأقيموا قياماً مزعجاً، وأمر السلطان العساكر بالركوب خفية(١) للغارة. وركب السلطان، والفرنج قد اطمأنوا بإرسال رسلهم إليه(٢)، فما أحسّوا إلا والعساكر قد وصلت إليهم. وساق السلطان ونزل على باب عكا بتل الفضول، وأحضرت إليه رؤوس القتلى من كل جهة، وضرب دهليزه تحت التل وبات فيه، ثم أصبح على تلك الحالة، وعاد إلى جهة صفد.

ووصلت رسل سيس بالهدايا فشاهدوا، هم ورسل الفرنج رؤوس القتلى على الرماح. وأحضر جماعة ممن أسر في هذه الغارة فقتلوا في صفد.

وطلب السلطان رسل الفرنج وقال: «هذه الغارة قبالة إغارتكم على بلاد الشقيف». ولم ينتظر أمر الصلح، فردّ الرسل الفرنجية بغير جواب.

وركب [السلطان](٣) في حادي وعشرين شعبان من السنة وساق [من صفد](٤) إلى عكا، فما علموا إلا وهو على أبوابها، فقسّم الحجارين والناس على البساتين والأبنية والآبار للهدم والقطع. وعمل اليزك بنفسه على باب عكا تحت ذيل التل. وأقام أربعة أيام حتى تكامل الهدم والإحراق والقطع، وسير إلى طاحون كردانة التي لبيت الاسبتار فهدمها.

وفي هذه الأيام أحضر رسل سيس ورسل بيروت [هدايا](٥) وجماعة من أسرى المسلمين وردوا مال التجار، وكتبت أجوبتهم وتوجهوا.

وفي شهر رمضان وصل رسل(٦) صور وسألوا استمرار الهدنة. فقال السلطان:

---

(١) خفية: كان مما فعله السلطان لإخفاء هذه السرية، التي كانت مكونة من فرقتين من الخيالة، أنه ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتار، والثانية ملابس فرسان الداوية. King: the knights hospitallers in the Holy Land. p 292.

(٢) في الأصل: «إليهم». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) (٤) (٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٩.

(٦) في الأصل: «رسول». والتصحيح يقتضيه السياق.

«أنا ما فعلت ما فعلت إلا لأنكم قتلتم السابق شاهين غلامي، وإذا قمتم بديته استمرت الهدنة». وأحضر أولاد السابق شاهين فقرر دينه خمسة عشر ألف دينار صورية، أحضر الرسل نصفها وجماعة[١] من أسارى المغازية[٢] واستمهلوا بالبقية. وقال السلطان: «تبنين وهدنين وبلادهما [بلاد][٣] أخذتهما بسيفي وصارت للإسلام فاستقرت للمسلمين». وأجيبوا إلى الصلح وكتبت الهدنة لمدة عشر[٤] سنين.

واستقرت أيضاً قاعدة الصلح ببيروت بعد أن تقرر عليهم أن يردوا أموال التجار الذين كانوا أخذوا بمراكب[٥] الأتابك وإطلاقهم وثمن المراكب. ثم قبلت هديتهم واستمرت هدنتهم.

ذكر الصلح مع بيت الاسبتار على حصني الأكراد والمرقب[٦]

كان بيت الاسبتار قد تقدم طلبهم لذلك. فاستقر هذا الأمر بشرط أن الفسخ يكون للسلطان وحضرت رسلهم الآن، والتمسوا أن يحلف لهم السلطان. فقررت الهدنة لعشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر[٧] ساعات وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وهي ألف ومائتا دينار، ومائة مُدّي حنطة وشعيراً، وعن مملكة حماه وهي أربعة آلاف دينار، وعن شيزر وأفامية وهي في كل سنة على أبو قبيس ستمائة دينار مصرية، وعلى عينتاب[٨] خمسمائة دينار صورية، والرسم المعروف بالمفادنة، وهو عن كل فدان مكوكان غلة وستة دراهم. وسير لاستحلاف مقدم الاسبتار، الأمير فخر الدين المقري والقاضي شمس الدين ابن قريش كاتب الدرج.

ذكر فتوح يافا

قال: كان الصلح قد استقر بين السلطان وصاحب يافا جوان ديكين، فصار نوابه يَتَعدَّون، وسيروا مُتَجَرِّمَةً في زي صيادين إلى قطيا. فاتفق هلاك صاحب يافا وقيام

---

(١) في الأصل: «وجمع». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في الأصل: «المغازية». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٩. وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 42.

(٣) زيادة يقتضيها سياق تركيب الجملة.

(٤) في الأصل: «عشرة».

(٥) في الأصل: «مركب». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٠، س ١.

(٧) في الأصل: «عشرة». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٨) في الأصل: «عناب». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٤، ٥٩٩، ٦٠٠.

ولده جاك[١] بعده.

ولما كان السلطان على صفد لعمارتها حضر إليه قسطلان[٢] يافا وسأله في هدنة لولد صاحبها. فامتنع السلطان من ذلك. ثم وصلت الأخبار أن أهل يافا يحملون الميرة إلى عكا، وكانت ممنوعة عنها. وأقاموا في يافا حانة وأوقفوا فيها عدة من المسلمات، واعتمدوا أسباباً ليست في هدنة.

فلما كان في سنة ست وستين وستمائة[٣]، خرج السلطان من الديار المصرية متوجهاً إلى الشام، وذلك في مستهل جمادى الآخرة، ورحل في ثالثه فوصل إلى غزة، وبلغه أن جماعة من الجمالين تعرضوا إلى الزرع فقطع أنوفهم. وبلغه أن علم الدين سنجر الحموي أحد أمرائه، ساق في زرع فأنزله عن فرسه وأعطاه [وأعطى][٤] سرجه ولجامه لصاحب الزرع، ونزل السلطان على العوجاء فحضر إليه القسطلان وأكابر يافا، فعوقوا إلى أن يخرجوا من الدعاوى. فبذلوا للسلطان تسليم المدينة والقلعة على أن يطلقوا بأموالهم وأولادهم. فأجيبوا إلى ذلك.

وركب السلطان في العشرين من جمادى الآخرة وساق إليها وما أحسّ أهلها إلا والعساكر قد أطاقت بها. وأخذ الأتابك من حصل معه الحديث منهم وحضر به إلى يافا، فما تفاوضوا في الحديث إلا والعسكر قد طلعتها من كل جانب، وفتحت أبوابها. ثم زحفوا على القلعة فسلمها أهلها في اليوم الثاني، ومنع السلطان من نهبها، وطلع إلى القلعة وجهز أهلها إلى مأمنهم، وجرد معهم الأمير بدر الدين بيسري. وشرع في هدم القلعة فهدمت، وأخذ من أخشابها وألواح رخام وجدت فيها ما أوسق بها مركباً وسيرها إلى القاهرة. ورسم بعمل ذلك الخشب مقصورة في الجامع الظاهري بالحسينية والرخام لمحرابه. ورتب السلطان الخفراء على السواحل وألزمهم بدركها، ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يغمس في غيره، وجعل مأكوله ومشروبه منه. وملك الأمير علاء الدين منها قرية، والأمير علم الدين سنجر الحموي قرية. ورتب إقامة التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها، وقرر عليها خيلاً وعدة، ورسم بتجديد مقام الخليل، عليه الصلاة والسلام، وعمل مكان الخوان ناحية من الحرم[٥].

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) معناه حاكم المنطقة أو القلعة. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) الموافق: ١٢٦٧ م.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٤.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٥.

وهذه يافا فتحها عمرو بن العاص في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويقال: بل فتحها معاوية، ذكره البلاذري[١]. وذكر عز الدين بن عساكر[٢] أن الملك طنكي بناها في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة[٣]، ونزل عليها السلطان الملك الناصر رحمه الله، في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة[٤]. فخرج البطرق وجماعة منها وسألوا السلطان على أنهم يسلموها بالأمان ويكونوا أسارى، واستمهلوا في التسليم إلى الصبح[٥] فأمهلهم. فوصل ملك الأنكتير في تلك الليلة إليها ودخل قلعتها، ونقض ما كان تقرر، فرحل السلطان عنها ونزل اللاطون[٦]. ثم نزل عليها الملك العادل بعساكر ولد أخيه الملك العزيز صاحب مصر ففتحها في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة[٧]. هكذا حكاه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في فتحها، وقد تقدم أنها من الفتوح الناصرية[٨].

قال: وما حضر الأنيرور فرديك في أيام الملك الكامل نزلها وحصن قلعتها وبناها. وما حضر الريدفرانس بعد خلاصه من الأسر في سنة ثمان وأربعين وستمائة[٩]، عمّر مدينتها وأنفق عليها أموالاً كثيرة.

قال: ولما فرغ السلطان من هدم يافا رحل عنها في ثامن عشر رجب، ووصل إلى صفد ثم منها إلى الشقيف.

ذكر فتوح شقيف أرنون

كان السلطان قد كتب إلى الأمير جمال الدين النجيبي، نائب السلطنة بالشام،

---

(١) هو أحمد بن يحيى بن جابر. مؤرخ، جغرافي، نسابة، جالس المتوكل العباسي وتوفي في أيام المعتمد سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة ص ٥٨٤. مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مجلد ١٦، ص ١٣٩.

(٢) هو علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم. مؤرخ، كان محدث الديار الشامية، ورفيق السمعاني (صاحب الأنساب) في رحلاته. توفي سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٣٥؛ طاش كبري زادة: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢١٦.

(٣) الموافق: ١٠٩٩ م.

(٤) الموافق: ١١٨٢ م.

(٥) في الأصل: «الصفح» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) هكذا في الأصل.

(٧) الموافق: ١١٧٥ م.

(٨) في الأصل: «الناصري». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٩) الموافق: ١٢٥٠ م.

بتجهيز العسكر الشامي إلى أن يحضر بريدي يسير قدامهم. ولما خرج إلى الشام في هذه السفرة توجه البريدي. وكان السلطان قد قرر مع النجيبي أمارة يمسكها البريدي من يده، فوصل البريدي وأمسك الأمارة من يده. فأحضر الأمراء للوقت ورسم لهم باتباع البريدي، فسار بهم إلى بانياس، فأخرج لهم بريدي آخر كتباً مختومة في بانياس للأمير علم الدين الحصني والأمير بدر الدين الأتابكي متضمنة منازلتهم للشقيف، وأنهم لا يجذبون قتالاً ولا غيره، فما عرف بهم إلا وقد نازلوا الشقيف. وكان جماعة من الفرنج قد توجهوا من الشقيف إلى عكا وصيدا، فنازله[١] العسكر قبل حضورهم[٢]، وسار بعض العسكر إلى جهة صيدا فأسروا وقتلوا. وجهز هذا العسكر أخشاب المجانيق والستائر. ثم جهز السلطان بعد فتوح يافا الأمير بدر الدين بكتوت من عكا[٣] بعسكر مصري فنزلوا على الشقيف. وتوجه السلطان فوصل إليه يوم الأربعاء تاسع شهر رجب، فأقام منجنيقين ورمى بهما في اليوم الثاني من وصوله.

واتفق أن الفرنج الذين بالشقيف كانوا سيروا شخصاً إلى عكا لما نزل عليها العسكر الشامي يعلمونهم بحالهم ويذكرون لهم عورات الحصن[٤]، فسيروا[٥] الجواب. فلما وصل القاصد وحضر إلى السلطان وأحضر رسالة أخوية أهل عكا إليهم[٦] [تتضمن إعلام النواب الشقيفين أن المسلمين لا يقدرون على أخذ الحصن إن احتفظتم به فجدوا في أمركم][٧]. فحصل التحيل في قراءتها، وعلم منها أسماء المقدمين الذين بالشقيف، فكتبت الأمارات لهم بأسمائهم ورمى بها إلى الحصن بالنشاب. وكتب أحد التراجمة عوض رسالة أخوية عكا، وعكس عليهم فيها القضايا. وكان في الكتاب أن الوزير لا يكون خاطره متغلثاً[٨] بسبب المصادرة له، ففي ساعة يمكن تعويضه عن ذلك، فعكس ذلك: وقيل للمقدم بالشقيف يحترز من الوزير كليام، ففي قلبه إحنة من مصادرتنا له، وأغرى بينهم بهذا القول وما يناسبه. ورميت هذه الكتب في سهم فحصل[٩] الاختلاف بينهم، ووجدوا الأمانات التي كانت كتبت

---

(١) المقصود: نازل العسكر حصن الشقيف.
(٢) المقصود: الفرنج الذين توجهوا من الشقيف إلى عكا صيدا.
(٣) في الأصل: بجكا. والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) أي حصن الشقيف.
(٥) أي أهل عكا.
(٦) أي إلى أعيان حصن الشقيف.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٨) في الأصل: «متعلماً».
(٩) في الأصل: «لتحصل».

للمقدمين، فأمسكوا جماعة وتوهموا من الوزير. وكان الفرنج لما تسلموا الشقيف من الملك الصالح إسماعيل، في سنة ثمان وثلاثين وستمائة[(١)]، هو وصفد، عمروا إلى جانبه قلعة أخرى، فعجزوا في هذا الوقت عن حماية جهتين. فلما كان في ليلة الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب عمدوا إلى هذه القلعة المستجدة وحرقوا جميع ما بها من غلة وقماش وغيره، وانتقلوا إلى القلعة المستقرة، وأصبح المسلمون وتسلموها، وقدمت المجانيق إلى هذه القلعة في سابع وعشرين الشهر ورمى بها. وأقام السلطان في سطح برج من أبراجها بالقرب من العدو، فعرف الفرنج موضعه فرموا حجراً قريباً منه فقتل ثلاثة نفر، ولم ينتقل السلطان عن موضعه. وكان باب هذه القلعة تجاه باب القلعة الأخرى، فعمل السلطان سرباً طويلاً في أعلى القلعة نازلاً إلى أسفلها وصار يتعلق به ويطلع وينزل وهو لابس عدته[(٢)].

قال: واشتد القتال، فبينما الناس في ذلك وإذا بالوزير كليام قد خرج مستأمناً، ثم سألوا الأمان على نفوسهم وأنهم يؤخذون أسارى، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال، فأجاب السلطان إلى ذلك. وفي يوم الأحد سلخ شهر رجب سنة ست وستين وستمائة، استدعوا الصناجق فرفعت على القلعة. وسير الأمير بدر الدين الخزندار فتسلمها، وخرج الفرنج إلى الخنادق فقيدوا، وأخرج النساء والأطفال، وجرد الأمير بدر الدين بيسري الشمسي صحبتهم فأوصلهم إلى جهة صور، وسلم الرجال إلى العساكر[(٣)].

قال: وهذا الشقيف من أحصن المعاقل وأحسنها وكان مضرة على بلاد الصبيبة. وكان الملك العادل الكبير قد جدده، وما زال في يد الإسلام إلى أن سلمه الصالح إسماعيل للفرنج على ما قدمناه.

قال: ولما قدر الله تعالى فتح الشقيف، اتفق [السلطان][(٤)] في جميع العساكر وخلع على الملوك الذين في خدمته، مثل: الملك المنصور صاحب حماه وأخيه، وأولاد صاحب الموصل، والملك الأمجد بن العادل، وغيرهم من أولاد الملوك، وعلى الأمراء والمقدمين، ومن جرت عادتهم بالخلع. وشرع السلطان في هدم القلعة المستجدة فهدمت إلى الأرض ورتب الأمير صارم الدين قايماز الظافري[(٥)] نائباً لهذه

---

(١) الموافق: ١٢٤٠ م.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٥.
(٣) انظر السلوك، ج ١، ص ٥٦٦.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٥) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٦، س ٢: «الكافري».

القلعة، ورتب فيها الأجناد والرجالة، ورتب بها قاضياً وخطيباً[١]، وأقيمت شعائر الإسلام بهذه القلعة وجميع تلك البلاد، وولي الأمير سيف الدين بلبان الزيني عمارتها، وكان قد خرج منها جماعة من المسلمين حالة الحصار فكتب لهم السلطان فدنا وقفاً عليهم.

ذكر توجه السلطان إلى طرابلس[٢] وإغارته عليها

كان بيمند صاحب طرابلس قد كثر تعديه على بلاد الإسلام، وأخذ البلاد المجاورة له بعد زوال الأيام الناصرية واستيلاء التتار على الشام، وكان من أكبر أعوان التتار. فلما رحل السلطان من الشقيف نزل قريباً من جسر بانياس، وجهز الأثقال إلى دمشق وجرد الأمير عز الدين إيغان بجماعة وتوجهوا من جهة، والأمير بدر الدين الأيدمري بجماعة من جهة أخرى، فحفظت الطرقات وامتلأت بالعساكر، وتوجه إلى طرابلس على جهة جبال الطنيين[٣]، وكان البرنس قد وعَّر الطرقات، فوصل السلطان في نصف شعبان وملك هذه الجبال التي يقول فيها المتنبي[٤]: [الطويل]:

وَجِبَالُ[٥] لُبْنَانٍ وَكَيْفَ بِقَطْعِهَا ... وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ

لَبَسَ الثُّلُوجُ بِهَا عَلَيَّ مَسَالِكِي ... فَكَأَنَّهَا بِبَيَاضِهَا سَوْدَاءُ

وخيم السلطان قريباً من طرابلس واستمر على الركوب إليها، والعساكر تناوش أهلها القتال ويرامونهم[٦] بالنشاب، وافتتح برجاً قد عصى فيه جماعة من الفرنج [و][٧]ضرب رقابهم، وجرد جماعة خربوا الحرث ونهبوا تلك الجبال وأخذوا عدة مغاير بالسيف. وقطعت الأشجار وهدمت الكنائس وقنى المياه والقناة الرومانية، وقسم السلطان الغنائم في العساكر ورحل عن طرابلس في العشر الآخر من شعبان من السنة.

ذكر فتوح أنطاكية[٨]

لما رحل السلطان عن طرابلس لم يطلع أحداً على الجهة التي يقصدها، فتوجه

---

(١) في الأصل: «قاضٍ وخطيب». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٦، س ١٥.
(٣) هكذا في الأصل.
(٤) ديوانه، ج ١، ص ١٨.
(٥) في الديوان، ج ١، ص ١٨ : «وَعِقابُ».
(٦) في الأصل: «ويراموهم». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٨) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧.

إلى حمص في سابع وعشرين شعبان، وأمر ببناء مسجد بحمص، ولما وصل إلى حماه رتب العساكر ثلاث فرق: فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخزندار، وفرقة معه الأمير عز الدين إيغان، وفرقه صحبة الركاب السلطاني.

فتوجه الأمير بدر الدين الخزندار إلى السويدية، وتوجه الأمير عز الدين إيغان إلى الدرب ساك، فقتلوا وأسروا. وتوافوا جميعهم بأنطاكية، ونزل السلطان أفامية، ومنها إلى جسر تحت الشغر وبكاس، وأصبح مغيراً على أنطاكية وذلك في مستهل شهر رمضان.

وتقدم في الجاليش[١] الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار، فصادف جماعة من عسكر أنطاكية، وانتشبت الحرب بينهم، فحمل أحد أجناد الأمير شمس الدين أقسنقر وهو فلان الدين المظفّري على كنداسطبل[٢] فأسره وأحضره إلى السلطان، فأمّره السلطان وأحسن إليه. وأطافت العساكر بأنطاكية من كل جانب. وكان النزول عليها بالخيام والثقل، بكرة يوم الجمعة ثالث شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة[٣]. ولما حضر كنداسطبل إلى السلطان رآه رجلاً عاقلاً، فسأل أنه يدخل إلى أنطاكية ويتوسط لأهلها، فجرى السلطان على عادته في الإنذار قبل المهاجمة. فسيَّر كنداسطبل [من][٤] أحضر ولده رهينة، ودخل البلد وتحدث، وخرج مع جماعة من القسيسين والرهبان، وأقاموا يترددون ثلاثة أيام فظهر منهم قوة نفس وخوف من صاحبهم البرنس. وفي بكرة السبت أنذرهم بالزحف، وصبر حتى دخل الأقساء والرهبان إلى أنطاكية، ورسم بالزحف. فزحفت العساكر وأطافت بالمدينة والقلعة على اتساعها، وقاتل أهلها قتالاً شديداً، فتسور المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ونزلوا المدينة، فهرب أهلها إلى القلعة. وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر، وما رفع السيف عن أحد من الرجال بالمدينة، وكان بها فوق المائة ألف نفر. وأخذ التركمان من الغنائم ما لا يحصى. ثم رسم السلطان بحفظ أبواب المدينة والاحتراز عليها. وأما القلعة فاجتمع فيها ثمانية آلاف مقاتل غير الحريم والأولاد، فتحاشروا بها فمات عالم. وأما البالي[٥] والوزير الوالي فإنهم لما شاهدوا هذا الحال

---

(١) الجاليش: هنا مقدمة القلب. وقد سمي بذلك لأن ترتيب جاليش السلطان في المواقع التي يحضرها، يكون عادة في ذلك الوضع من جميع الصفوف. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) كنداسطبل: معناه حاكم القلعة وحارسها. وهو لفظ لاتيني مركب. ويقابله في مصطلح الدول الإسلامية لفظا «الدزدار» و«المستحفظ». انظر: Dozy: Ibid.

(٣) الموافق: ١٢٦٧ م.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) البالي: وظيفة من الوظائف الإدارية الفرنسية في العصور الوسطى. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

هربوا رجالة في الليل، تدلوا بالحبال، وأصبح أهل القلعة فما وجدوا أحداً منهم، ولم يكن بالقلعة ماء ولا طواحين تكفيهم. فسيروا يوم الأحد ثاني يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى. فللوقت طلع السلطان فصادف جميع من في القلعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة واستغاثوا للسلطان، فعفا عنهم من القتل، وأحضرت الحبال فربطوا بها، وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى، وكذلك كل مقدم، والكتاب ينزلون ذلك، وكتبت كتب البشائر، ومن جملتها كتاب(١) إلى صاحب أنطاكية: نسخته بعد البسملة:

«قد علم القومص(٢) الجليل [المبجل المعزز الهمام، الأسد الضرغام، بيمند فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية كبير الأمة العيسوية](٣) بيمند المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية [منه](٤) من البرنسية(٥) إلى القومصية، ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده. ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر، وهدم الأعمار، وكيف كُنست تلك الكنائس من بساط الأرض، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قُتلت الرجال، واستُخدمت الأولاد، وتملّكت الحرائر، وكيف قُطعت الأشجار، ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق [إن شاء الله](٦) والستائر، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب(٧) واستخدم الخديم وركب الماشي».

«هذا وأنت تنظر المغشّى عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً: عليّ هذا الصوت، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود، وأخّرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل

---

(١) انظر نص الكتاب كاملاً في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦ ـ ٩٦٩ وكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, pp 190 - 191.

(٢) القومص: تعريب اللفظ اللاتيني (Comes) وهو في الفرنسية (Comte) وفي العربية: (الكونت). انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦.

(٥) البرنسية: صفة البرنس وهو معرب اللفظ اللاتيني (Princeps) و(Prince) بالفرنسية والإنكليزية. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦.

(٧) في الأصل: «العزب» والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٩٦٦.

معدود. وكيف فارقنا بلادك، وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية، ولا سارية إلا وهي في أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود، ولا منعتك[١] تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترفة وللعقول خارقة. وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر. وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك، وإن بعدنا فسنعود على الأثر[٢]. وها نحن نبلغك بما تمّ، ونفهمك بالبلاء الذي عم».

«كان رحيلنا عنك [و][٣]عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان. وفي حالة النزول خرجت عساكرك المبارزة فكُسروا، وتناصروا فما نُصروا، وأسر من بينهم كنداسطبل، فسأل مراجعة أصحابك. فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك في إتلاف النفوس بالغرض الفاسد، وأن رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشر واحد، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت، رددناهم وقلنا: «نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول في الإنذار والآخر» فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك، ففي بعض ساعة مرشان المرشان[٤]، وداخل الرهب الرهبان. ولأن للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان»[٥].

«وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة في يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها. فلو رأيت خيَّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول، والكسّابة[٦] فيها تجول، وأموالك وهي

(١) في الأصل: «منعت». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٩٦٧، س ٤.

(٢) في الأصل: «الأمر». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٩٦٧، س ٧.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) مرشان المرشان: تعريب لفظ (Mareschal) في الفرنسية القديمة، وهو مأخوذ من اللفظ اللاتيني (Mariscalcus) ومعناه في المصطلح الأوروبي في العصور الوسطى: «منظم الحفلات والمجالس في البلاط». وربما كان مرادفه في مصطلح دولة المماليك وظيفة «أمير مجلس». انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٧.

(٦) أي الذين كان همهم كسب الغنائم. انظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 193.

توزن بالقنطار، وداماتك[١] وكل أربع منهن تباع، فتشتري من مَالِكَ بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نُثرت[٢]، وقبور البطارقة قد بُعثرت. ولو رأيت عدوّك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة وقد دُهموا بَطارقَة، وأبناء الملوك[٣] وقد دخلوا في المملكة. ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل الآخرة تحترق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان[٤] قد زلّت كل منها وزالت، لكنت تقول: «يا ليتني كنت تراباً[٥]، ويا ليتني لم أُوْتَ بهذا الخبر كتاباً»» ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفىء تلك النيران بماء عبرتك. ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك، ومراكبك وقد أُخِذت في السويدية بمراكبك، فصارت شوانيك من شوانيك، لتيقنت أن الإِلٰه الذي أنطاك[٦] أنطاكية منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قَلَعَها، ومن الأرض اقتلعها. ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام وهو: دير كوش، وشقيف تلميس، وشقيف كفردنين، وجميع ما كان من بلاد أنطاكية، [و][٧]استنزلنا أصحابك من الصياصي وأخذناهم بالنواصي، وفرقناهم في الداني والقاصي، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر، فلو استطاع لما سُمِّي بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندماً، وكان يذرفها عبرة صافية، فهو أجراها بما سفكناه فيه دماً».

«وكتابنا هذا يتضمن البُشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر، بكونك لم تكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلاً، وإما أسيراً، وإما جريحاً، وإما كسيراً. وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي، إذا شاهد الأموات، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خَبَّرْناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك

---

(١) أي النساء. وهذا اللفظ تعريب للكلمة الفرنسية (Dames). انظر: Quatremère: Ibid. V 2. p 191.

(٢) في الأصل: «نشرت». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٨، س ٤.

(٣) في السلوك، ج ١، ص ٩٦٨، س ٦: المملكة.

(٤) هكذا في الأصل. انظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 191.

(٥) مقتبسة من قوله تعالى: ﴿... وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

(٦) أنطاك بمعنى أعطاك، انظر السلوك، ج ١، ص ٩٦٨، س ١٢.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك، لتتحق الأمر على ما جرى. وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبراً»[١].

قال: ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب.

ولما تسلم السلطان القلعة سلمها للأمير بدر الدين [بيليك][٢] الخزندار والأمير بدر الدين بيسري الشمسي. وأما كنداسطبل فإن السلطان أطلقه وأطلق أهله وأقاربه، فاختار التوجه إلى سيس، ففسح له في ذلك.

ذكر ملخص أخبار أنطاكية

ذهب المفسرون لكتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يس: ١٣] أن القرية أنطاكية.

وقال أصحاب الأخبار فيها: إن الملك أنتيوخس قصد بناء مدينة يعمرها لتكون نسبتها إليه، فسير حُكَمَاء ووُزراء لاختيار مكان يكون طيب الهواء والماء، قريباً من البحر والجبل، فوجدوا هذا المكان. فاختاروه لأنه جبلي بحري[٣] يحكم عليه الهواء الغربي، وعيون الماء العذبة حوله، والبحيرة الحلوة شرقية، والبحر المقلوب، وهو العاصي، خارج سورها وعليه طواحينها، وفيه المراكب تحمل الغلات إليها وغير ذلك، فعرفوا ملكهم هذه الصفات، فأمر ببنائها، وأخرج النفقات، وطلبوا حجراً جيداً لبنائها، فوجدوه في مسافة يومين منها. فاستخدم لها من الرجال والبنائين ثمانين ألف رجل وثمانمائة رجل، ومن العجل ستمائة عجلة، وألف وتسعمائة حمار، ومائة زورق لنقل الحجارة، خارجاً عما في ميناء السويدية من العجل والرجال والزوارق التي تحمل الرخام والعمد والقواعد. فنجزت في ثلاث سنين ونصف، وبنيب أسوارها وأبراجها وهي مائة وثلاثة وخمسون برجاً، ومائة وثلاثة وخمسون بدنة، وسبعة أبواب، منها خمسة كبار وبابان صغاراً[٤]. وجعل فيها سبع عوادي ترمى إلى النهر عند الوادي

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦ ـ ٩٦٩؛ وكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, pp 190 - 191.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في الأصل: «جبلياً بحرياً». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) هكذا في الأصل.

المسمى الحسكروت، وجعل منه باب[١] في الجبل ينزل منه إلى المدينة، وعليه قناطر يعبر الناس عليه، وإذا امتلأ يخرج من تحت السور، وساقوا الماء إليها في قناتين: البوليط والعاوية.

ولما فرغت حضر الملك إليها ورآها، فأكرم الصناع ومدّ لهم طعاماً ثلاثة أيام، وأمر ببناء الأدر والدكاكين، فشرع الناس في بنائها، ووهب كل من يحضر إليها وينزل حولها خراج ثلاث سنين، وبنى الكنائس وبيوت عباداتهم فاجتمع العالم إليها.

واتفق أن الملك جلس في بعض الأيام وهو مسرور وفرح، فقال له وزيره: «لو عرفت ما أنفقت في هذه المدينة ما كنت تفرح» فاستيقظ لنفسه، وأمر بعمل حساب ما أنفق فيها سوى الضيافات والجواميس التي أخذت من المروج والبهائم بغير ثمن، فجاءت أربعة آلاف قنطار وخمسين قنطاراً ذهباً، فعظم ذلك عنده، وأمسك عن العمارة، وشرع في بناء مدائن تغل، فبنى سبع مدائن، وأسكن الناس فيها. واستمرت في يد الملك، ومن ملك بعده، وعمارتها تتزايد، وكل ملك يؤثر بها تأثيراً، ويجدد بها طلسماً إلى أن ظهر المسيح عليه السلام.

وما زالت في يد الروم إلى أن فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما قدمناه في خلافته، ولما ولي معاوية بن أبي سفيان نقل إلى أنطاكية في سنة اثنتين وأربعين جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص، وكان منهم: مسلم بن عبد الله جد عبد الله بن حبيب بن مسلم الأنطاكي، ولم تزل بيد عمال الخلفاء في الدولتين الأموية والعباسية، ثم استقرت في يد بني حمدان. فلما مات سيف الدولة ابن حمدان اتفق أهلها أنهم لا يمكنون أحداً من الحمدانية يدخلها، وولوا شخصاً يسمى بغلوش الكردي، وكان قد ورد الغزاة من خراسان خمسة آلاف رجل فأمسكهم وتقوى بهم واشتد أمره، وكان منهم رجل أسود من الصعاليك يعرف بالزعلي قد جمع طائفة وسموا نفوسهم بالغزاة. فدخل يوماً عليه السلام، فقتل الكردي وهرب أصحابه؛ واستولى الأسود على المدينة هو ومن معه. وكان بغراس نائب للروم اسمه ميخائيل البرجي وبطرس. فحضرا إليها في جمع كبير، فعجز المسلمون عن حفظها لاتساعها، فملكها الروم في يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وثلثمائة[٢]. فطرح المسلمون النار بينهم وبين الروم، وفتحوا باب البحر وخرجوا منه. وأسر الروم جميع من كان بها من المسلمين، فقوي الروم بفتحها، وتوجهوا إلى حلب

(١) هكذا في الأصل.

(٢) الموافق: ٩٦٨ م.

فصالحهم أهلها وأهل حمص على مال يحمل في كل سنة إلى ملك الروم وهو عشرة قناطير ذهباً، ومن كل مسلم دينار سوى ذوي العاهات، وأقامت إلى سنة ست وستين وثلثمائة[١]، فسير جعفر بن فلاح غلامه «فتوحاً» إلى أنطاكية فحاصرها خمسة أشهر فلم يظفر بها. وحدثت في هذه السنة زلزلة عظيمة هدمت قطعة من سورها فأنفذ ملك الروم ثانياً، اثني عشر ألف ديناراً وصناعاً[٢] لإصلاح ذلك، فبنيت أحسن ما كانت. وبنى قلعتها لاون بن الفقاس وحصنها، وكان في خدمته جماعة من الأرمن، ومات فكمل عمارتها الملك بسيل وهو الذي وجد له لما مات ستة آلاف قنطار ذهباً، ولما ولي كان في حاصل بيت المال أربعة قناطير لا غير، وهو الذي ملك أرجيش من بلاد أرمينية في سنة خمس عشرة وأربعمائة[٣]، وكان ملكه تسعاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً. وبقيت في أيدي الروم إلى أن فتحها الملك سليمان بن قتلمش السلجقي في سنة سبع وسبعين وأربعمائة[٤] على ما أوردناه في أخبار الدولة السلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل في سنة تسع وسبعين وأربعمائة[٥]، فصارت بيد وزيره الحسن بن طاهر الشهرستاني يتولى أمرها. فلما استرد السلطان ملكشاه بلاد الشام استردها وضمها إلى الوزير المذكور، فأقام بها إلى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة[٦]، ثم فارقها [الوزير][٧] ودخل الروم، فسلمها لباغي شيان بن ألب [أرسلان][٨] وكانت بنته متزوجة للملك رضوان صاحب حلب.

وحدثت زلزلة بأنطاكية في التاسع عشر من شعبان سنة أربع وثمانين وأربعمائة[٩] خربت دورها وأهلكت خلقاً كثيراً، ورمت من أبراجها نحو السبعين برجاً، فتقدم السلطان بعمارة ما انهدم في سنة خمس وثمانين.

واستمرت أنطاكية بيد ملوك الإسلام إلى أن ملكها الفرنج في جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة[١٠] على ما قدمناه. وكان قد اجتمع عليها جماعة من ملوك

---

(١) الموافق: ٩٧٦ م.

(٢) في الأصل: «صناع».

(٣) الموافق: ١٠٢٤ م.

(٤) الموافق: ١٠٨٤ م.

(٥) الموافق: ١٠٨٦ م.

(٦) الموافق: ١٠٨٨ م.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٨) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٩) الموافق: ١٠٩١ م.

(١٠) الموافق: ١٠٩٧ م.

الفرنج والملك الكبير المشار إليه منهم اسمه كندفري، فقرر أن كل ملك من الملوك يحاصرها عشرة أيام، ومن فتحت في نوبته فهي له، ففتحت في نوبة ملك منهم اسمه ميمون. فلما اتصل ذلك بملوك الإسلام بالشام اجتمعوا ومقدميهم ظهير الدين طغرتكين صاحب دمشق، وجناح الدولة حسن صاحب حمص، وكربغا صاحب الموصل، وحاصروا أنطاكية، وكان الفرنج في قل، فسألوا الأمان ليخرجوا منها فلم يجيبوهم، ووقع تنافس بين المسلمين فخرج الفرنج إليهم فانهزموا من غير قتال. وبقي ميمون مالكها حتى كسره الدانشمند وأسره وقتل أكثر عسكره، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة(١)، فاشترى نفسه بعد ذلك بمائة ألف دينار، واستخلف ميمون فيها ولد أخيه طنكري، وركب في البحر وسار إلى بلاده ليستنجد الفرنج ويعود، فأهلكه الله تعالى. واستمر طنكري مالكاً لأنطاكية وأعمالها إلى أن أهلكه الله تعالى في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ست وخمسمائة(٢)، وملكها بعده روجار. وكان طنكي(٣) قد استدعاه من بلده وجعله ولي عهده، وهو الذي حضر إلى بيت المقدس في ملك بغدوين، وكان بغدوين شيخاً كبيراً، فاجتمعا بالبيت المقدس وقررا عهداً: أن من مات منهم قبل الآخر انتقل ملكه إلى الباقي منهما. وتزوج روجار بنت بغدوين، فقتل روجار في حرب كانت بينه وبين نجم الدين إيلغازي بن أرتق في يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وخمسمائة(٤). فقتل روجار وجميع من معه، فسار بغدوين إلى أنطاكية وملكها، وأقام بها إلى أن وصل شاب، في ثامن عشر شهر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة(٥)، من الفرنج في البحر، وادّعى أنه ميمون بن ميمون الذي كان صاحب أنطاكية، فسلم بغدوين أنطاكية له فملكها. وكان شجاعاً مقداماً، وأقام بها إلى أن سار نحو الدروب فلقيه ابن الدانشمند فكسره وقتل جماعة من عسكره بأرض عين زربة، وذلك في نصف شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة(٦). وملك بعده الأبرنس، ولقي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي على حصن الأكراد في شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة(٧) فكُسِر المسلمون وقتل جماعة

---

(١) الموافق: ١٠٩٩ م.

(٢) الموافق: ١١١٢ م.

(٣) في الأصل: «صنكي».

(٤) الموافق: ١١١٩ م.

(٥) الموافق: ١١٣٢ م.

(٦) الموافق: ١١٣٩ م.

(٧) الموافق: ١١٤٨ م.

منهم، واستولى الفرنج على أثقالهم. فجمع نور الدين العساكر، والتقاه في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين وخمسمائة[١] فقتله وقتل فرسانه واستولى على خيامه. وولي أنطاكية بعده الأبرنس أرناط، فأقام إلى أن لقيه مجد الدين أبو بكر نائب الملك العادل في المملكة الحلبية، وذلك في صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة[٢] فكسره وقتل أصحابه وأخذه أسيراً، فأقام في حبس الملك العادل. وملك أنطاكية وهو في الأسر رجل من ذريته اسمه بيمند وخلص أرناد، وتزوج صاحبة الكرك وأقام بالحصن حتى ملكه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقتله.

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة[٣] عقد السلطان الملك الناصر الكبير مع بيمند صاحب أنطاكية هدنة لمدة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى آخر آيار، وحلفا على ذلك، ورحل الناصر عنها وتوجه إلى حلب على ما ذكرناه في أخباره. ثم ملكها الأبرنس المعروف بالأسير، وملكها ابنه من بعده، ثم ملكها بيمند ولده أيضاً، وهو الذي أخذت منه الآن في الدولة الظاهرية.

هذا تلخيص خبر أنطاكية من حين عمرت إلى حين فتحت هذا الفتح.

ذكر ما اعتمده السلطان في قسمة غنائم أنطاكية وإحراقه قلعتها وما افتتحه مما هو مضاف إليها وهو: دير كوش وشقيف كفردنين وشقيف كفرتلميس[٤]

قال: ولما فتحت أنطاكية وفرغ الناس من نهبها، رسم السلطان بإحضار المكاسب للقسمة، وركب وأبعد عن الخيام، وحمل ما غنمه وما غنمه مماليكه وخواصه. وقال للأمراء: «ينبغي أن تخلصوا ذمتكم وتحضروا[٥] ما غنمتموه، وأنا أحلّف الأمراء والمقدمين، وهم يحلفون أجنادهم ومضافيهم». فأحضر الناس الأموال والمصاغ من الذهب والفضة، فطال الوزن، فقسمت النقود بالكاسات والشربوشات[٦]، ولم يبق غلام إلا أخذ. وتقاسم الناس النسوان والبنات والأطفال، وبيع الصغير بأثني

(١) الموافق: ١١٤٩ م.
(٢) الموافق: ١١٥٦ م.
(٣) الموافق: ١١٨٨ م.
(٤) هكذا في الأصل.
(٥) في الأصل: «تخلصون ذمتكم وتحضرون». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٦) الشربوشات: قلانس طويلة تلبس بدل العمامة، وقد تستعمل الكيل عند الضرورات، كما قد تستعمل الطاقية للشرب في الريف. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar..

عشر درهماً، والجارية بخمسة دراهم، وباشر السلطان القسمة بنفسه، وما ترك شيئاً حتى قسمه من الأموال والقماش والمصوغ والدواب والمواشي. ثم ركب إلى قلعة أنطاكية وأحرقها وعم الحريق أنطاكية.

وكان صاحب طرابلس قد استولى عند أخذ التتار حلب على دير كوش، وهو من أمنع الحصون، وعلى شقيف كفردنين وعلى شقيف كفرتلميس، وكانت هذه الحصون شجى في حلق المسلمين. فلما فتحت أنطاكية انقطعت حيلة هذه الحصون فطلبوا الأمان، على أنهم يسلمون الحصون ويؤسرون، فسير الأمير بدر الدين بيليك الأشرفي الظاهري، فتسلم دير كوش في ليلة الجمعة حادي عشر شهر رمضان، وتسلم بقية هذه الحصون.

ذكر صلح القُصَيْر على المناصفة(١)

كان القصير للبطرك الكبير خاصة، وزعموا أن بأيديهم خط عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نزل السلطان في هذه الجهات بذلوا نصف البلاد للسلطان، فكتبت لهم هدنة، وانضاف إلى مملكة الإسلام نصف بلاد القصير.

ذكر فتوح حصن بغراس من الديوية(٢)

قال: ولما فتح الله تعالى هذه الحصون والجهات على السلطان ولم يبق بتلك الجهات سوى بغراس، خاف من بها من الديوية، فانهزموا وتركوه. فجهز السلطان الأمير شمس الدين أقسنقر [الفارقاني](٣) استاد الدار العالية بعسكر فتسلمه في يوم السبت ثالث عشر شهر رمضان من السنة، ولم يجد به سوى امرأة عجوز، ووجده عامراً بالحواصل والذخائر.

وقال البلاذري: كانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك فوقفها في سبيل البر، ولمّا قصد المسلمون غزاة عمورية صحبة مسلمة، حمل هو والعسكر النساء معهم للجد في القتال. فلما صاروا في عقبة بغراس عند الطريق المستدقة التي تشرف على الوادي سقط جمل عليه امرأة، فأمر مسلمة النساء أن يمشين، فسميت تلك العقبة عقبة النساء. قال: وكان في تلك الطريق سباع لا يسلك فيها بسببها، فشكا الناس ذلك إلى الوليد بن عبد الملك فبعث أربعة آلاف جاموسة وفحولها، فانكفأت السباع. ثم بناها

---

(١) القُصَيْر: قلعة جنوبي أنطاكية. وكانت لهيئة الفرسان الداوية. انظر: Le Strange: op. cit. p 489.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٠: «الداوية».

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٧٠، س ١٦.

بعد ذلك وحصنها أتم تحصين الملك نقفور ملك الروم الذي خرج إلى بلاد الإسلام في آخر سنة سبع وخمسين وثلثمائة وقتل وسبى. ولما بنى هذا الحصن، الذي هو حصن بغراس. رَتَّب فيه نائباً له يعرف بالبرجي، ورتب معه ألف رجل، وحصن بغراس. ثم ملكها الفرنج وما زالوا يتداولونه ويحصنونه على طول المدد، إلى أن ملكه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب، في ثاني شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمائة[١]، على ما قدمناه، ثم ملكه الديوية بعد ذلك.

ذكر الإغارة على صور

كانت قد تقررت مهادنة بين السلطان وبين صاحب صور، فلما توجهت الرسل إليه حلف على بعضها، وأسقط فصولاً لم يحلف عليها. فلما كان السلطان بالشام، في سنة سبع وستين وستمائة[٢]، ووقفت له امرأة ذكرت أنها كانت أسيرة في صور، وأنها اشترت نفسها ثم قطعت على بنت لها قطيعة، وحصلت من أوقاف دمشق مبلغاً اشترتها به من صور بمكاتبة عليها خط الفرنج، ولما خرجت بها إلى قرب بلاد صفد سير خلفها جماعة من صور أخذوا البنت منها ونصَّروها. فلما سمع السلطان كلامها غضب الله تعالى، وكتب يطلب هذه البنت، فاعتذروا بأنها تنصرت. وكان بالنواقير من جهة صفد جماعة [من المسلمين][٣] سَيّر صاحب صور وأمسكهم وقتل منهم نفرين واعتقل الباقين. وطلبهم السلطان فأصروا على منعهم، فركب السلطان في العشرين من شهر رمضان، وساق بنفسه ومن معه من العسكر الخفيف، وتوجه الأمير جمال الدين المحمدي من جهة، والأتابك من جهة، ووصلوا إلى صور، فأمسكوا جماعة من الرجال والنساء والصغار، وهرب في ذلك الوقت مملوك للأمير جمال الدين أقش الرومي فنصَّره صاحب صور لوقته. وطُلِب منه فدافع عنه، وأمسك السلطان عن إتلاف زرعه ورد الحريم والأطفال ورجع إلى المخيم وأمهل عليه مدة، فلما استمر على منع البنت والمملوك، جرد السلطان جماعة لاستغلال بلاده.

ذكر الإغارة على بلاد كركر[٤] وأخذ قلعة شرموشاك

وفي هذه السنة توجهت الغيَّارة من البيرة وغيرها إلى جهة كركر فأحرقوا بلدها

(١) الموافق: ١١٨٨ م.
(٢) الموافق: ١٢٦٨ م.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٤) كركر: حصن على الفرات بين آمد وملطية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٢ - ٤٥٣.

وأخذوا مواشي، وتوجهوا إلى قلعة بين كركر والكختا[١] اسمها شرموشاك، فزحفوا عليها وأخذوها وقتلوا رجالها ونهبوا من المواشي شيئاً كثيراً، وأخرجوا من الفلاحين إلى البلاد السلطانية خلقاً كثيراً، وأخذ الخمس من الغنيمة للديوان ورسم بترتيب الناجعين في البلاد الحمصية والشيزرية وجهات أنطاكية.

ذكر الإغارة على عكا

وفي سنة ثمان وستين وستمائة[٢]، توجه السلطان جريدة إلى الشام، وكان الفرنج بعكا اعتمدوا أشياء لا يصبر عليها: منها أن أربعة من مماليك السلطان هربوا ودخلوا عكا، فلما طلبهم منهم طلبوا العوض عنهم، فأنكر السلطان ذلك عليهم، فنصّروهم، وذلك في سنة سبع وستين [وستماية][٣]. فكتب السلطان إلى النواب بوقوع الفسخ، فأغار عليهم الأمير جمال الدين أقش الشمسي فقتل وأسر منهم جماعة. واتفقت حركة السلطان إلى الحجاز فأطلق الذين أسروا، وعوق رسل الفرنج على إحضار المماليك، وأطلق منهم وزير الإستبار خاصة، لأنه كان يخدم السلطان. فلما كان في هذه السنة بلغ السلطان أن الفرنج وصل إليهم سفائن من جهة الريدراكون[٤]، أحد ملوك الغرب، فيها جماعة من أصحابه وأقاربه وكتبه، يقول فيها: أنه واعد أبغا بن هولاكو أنه يوافيه بالبلاد الإسلامية، وأنه واصل لمواعدته من [جهة سيس في سفن كثيرة][٥]، فأرسل الله تعالى ريحاً مزعجة كسرت عدة من سفائنه ولم يسمع لهم خبر. وأما أهل عكا فإنهم خرجوا هم ومن وصل إليهم من الغرب إلى ظاهر عكا، وخيموا وصاروا يركبون [وتوجهت طائفة منهم إلى عسكر جينين وعسكر صفد][٦]، وبلغهم أن السلطان وصل جريدة فتوهموا أنه لا يقصدهم. واتفق أن السلطان خرج متصيداً إلى جهة الحارسة، وعاد مسرعاً وتوجه على أنه يتصيد في مرج برغوث[٧]. ولما وصل في أثناء الطريق إلى برج الفلوس سير الأمير عز الدين معن الظاهري السلاح دار لإحضار السلاح وسير الأمير ركن الدين إياجي لإحضار العسكر الشامي كله، فتكامل الناس

---

(١) قلعة قديمة على نهر كختاصو. وتقع على مسافة أربعين ميلاً تقريباً من الجنوب الشرقي من ملطية. انظر: .Encyclopaedia of islam. Art: kiakhta

(٢) الموافق: ١٢٦٩ م.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق. الموافق: ١٢٦٨ م.

(٤) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٦٥: «الريداركون».

(٥) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٨٥.

(٧) مرج برغوث: جهة على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب. أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٣٨٤.

عنده في مرج برغوث ولما وصل إلى برج الفلوس سير الأمير عز الدين معن الظاهري السلاح دار لإحضار السلاح وسير الأمير ركن الدين إياجي لإحضار العسكر الشامي كله، فتكامل الناس عنده في برج برغوث، في بكرة نهار الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر ربيع، وركب وساق فوصل جسر يعقوب عشية النهار، وساق فأصبح الصبح وهو بأول المرج. وكان قد سير إلى الأمير جمال الدين الشمسي مقدم عسكر عين جالوت، والأمير علاء الدين أيدغدي مقدم عسكر صفد بالإغارة في ثاني وعشرينه، وأنهم ينهزمون قدام الفرنج. فخرج جماعة من الفرنج مقدمهم كندلوفير[١] المسمى زيتون، وفيهم أقارب الريدراكون وغيرهم، ودخل السلطان الكمين. فعندما خرج الفرنج لقتال العسكر الصفدي تقدم الأمير عز الدين إيغان الركني، وبعده الأمير جمال الدين الحاجبي، ومعهما أمراء الشام. وساق قدام السلطان الأمير شمس الدين أيتمش السعدي، والأمير علاء الدين كتدغدي الظاهري أمير مجلس ومعهما مقدموا الحلقة. وقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال، وأمسك الأمير عز الدين إيغان فارساً اسمه ريمون[٢] دكوك. وأما السلطان ومن كان قدامه من الأمراء، فما وصلوا إلى الأمراء المتقدمين إلا والعدو قد انكسر فلم يحصل لهم اختلاط. وكان القتال شديداً تماسكوا فيه بالأيدي، وأكمن زيتون فجال العسكر بينهم وأخذوا عليه وعلى أكابر الفرنج حلقة وقتل أخو زيتون، وابن أخت الريدراكون، وجماعة من الخيالة، ونائب فرنسيس[٣] بعكا، ولم يعدم من عسكر الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطونيا الفائزي. وعاد السلطان ورؤوس القتلى بين يديه إلى صفد، وتوجه منها إلى دمشق، فدخلها في يوم الأحد سادس وعشرين الشهر، والأسرى والرؤوس بين يديه.

ذكر فتوح قلعة صافيتا

وفي سنة تسع وستين وستمائة[٤]، توجه السلطان من الديار المصرية في عاشر جمادى الآخرة، وصحبته ولده الملك السعيد، ودخل الملك السعيد إلى دمشق في ثامن شهر رجب، وخرج هو والأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة. وكان السلطان قد توجه من جهة بعلبك وتوجه إلى طرابلس، فقتل من رعاياها وأسر، واتصلت الغارة بصافيتا، فطلب من فيها الأمان، ثم نكثوا، فرحل عنهم السلطان وأنزل

(١) هكذا في الأصل.
(٢) هكذا في الأصل.
(٣) كذا في الأصل في الأصل: «فرسيس». انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٥.
(٤) الموافق: ١٢٧٠ م.

جماعة حولهم. فسير كمندور أنطرطوس إلى السلطان يشفع في الإخوة الديوية بصافيتا، على أنه يأمرهم بالتسليم. فأجابهم السلطان إلى ذلك، فأرسل إليهم فنزلوا، وكانوا سبعمائة رجل، خارجاً عن النساء والأطفال، وأحضروا إلى السلطان وهو على حصن الأكراد، فأطلقهم وجهز معهم من أوصلهم إلى مأمنهم، وتسلم السلطان صافيتا وبلادها، وتسلمت الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد، مثل تل خليفة وغيره.

وقد ذكرنا ما كان قد وقع من المهادنة على حصن الأكراد والمرقب، ثم اتفق من بيت الإسبتار أمور[١] أوجبت فسخ الهدنة: منها أن السلطان لما أغار على طرابلس في سنة ست وستين وستمائة[٢]، وكتب إلى النائب بحمص بأن يقيم بحدود حصن الأكراد لدفع الضرر عن بلاد الهدنة، وكتب إلى عدة جهات بالوصية بهم، وحضر رسول حصن الأكراد يسأل الوصية، فأعطاهم علماً بِرَنْكِه.

ولما عبرت الأثقال من جهة القصب، عبر أحد الحرافشة ومعه رفقة له على بستان بقرب تل خليفة للحصن[٣] فأخذوا منه شيئاً لا قيمة له، فأخذهم المقدم بتل خليفة وضرب رقاب بعضهم وأسر البعض. فنزل النائب بحمص على تل خليفة وطلب الخصوم. فامتنع النائب بها عن تسليمهم وقال: «أنا قتلت»، وأساء في القول. فحاصرهم نائب حمص، وسير إليهم شجاع الدين عنبر، فاحتال إلى أن استنزل الخصوم، وسيروا إلى السلطان. فحضرت رسل من حصن الأكراد تطلبهم، فأجابهم السلطان إنه لا بد من تحقيق هذه الواقعة؛ فقوت نفوس الذين في الحصن. وعَلَّقَ النائب الفرنجي باب الحصن ومنع الميرة، وألبس جماعة العدد.

ولما رجع السلطان من طرابلس عند توجهه إلى أنطاكية ومرّ تحت الحصن متوجهاً إلى حمص، فسيّر يقول: «ما كان ينبغي لكم تعبرون من ههنا إلا بأمري». وقيل لهم: «لأي معنى غلقتم الأبواب ولبستم العدد، وأنتم صلح»؟. فقال: «ما غلقناها إلا شفقة على عسكر السلطان من الفرنج الغرب الذين عندنا، لأنهم لا يخافون الموت». فعزّ ذلك على السلطان لأن الغرب الذين عنده عدتهم دون المائة نفر. وكان هذا الأمر مقدمة انحراف السلطان عليهم، وبقي ذلك في خاطره. فلما توجه إلى الشام جريدة في سنة ثمان وستين [وستمائة][٤] وتوجه إلى حماه ثم رحل عنها في ثالث

---

(١) في الأصل: «أموراً». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) الموافق: ١٢٦٧ م.
(٣) المقصود حصن الأكراد.
(٤) الموافق: ١٢٦٩ م.

جمادى الآخرة توجه إلى حصن الأكراد بمقدار مائتي فارس بغير عدة، وصعد جبل الحصن في أربعين فارساً، فخرج له جماعة من الفرنج ملبسين، فحمل عليهم وكسرهم، وقتل منهم جماعة ووصل إلى الخندق، وقال ـ وهو متنكر لا يعرف من هو ـ: «قولوا لذلك الرسول الذي حضر سنة طرابلس يخلّي الفرنج الغرب يخرجوا، فما نحن أكثر من أربعين فارساً بأقبية بيض»[١]. وعاد إلى مخيمه، وَرَعَتْ الخيول المروج والزروع، فكان ذلك أحد أسباب الاستيلاء على الحصن لأنه ليس له مادة إلا من زرع بلده. فلما توجه السلطان في سنة تسع وتسعين وستمائة إلى الشام، وأغار على طرابلس كما قدمنا نازل حصن الأكراد، في تاسع شهر رجب من السنة وملك أرباض الحصن في العشرين منه، وحضر الملك المنصور صاحب حماه، فتلقاه السلطان وترجل لترجله، وساق السلطان تحت صناجق صاحب حماه بغير جمدارية ولا سلاح دارية أدباً معه، وسير إليه دهليزاً أمره بنصبه. ووصل الأمير سيف الدين صاحب صهيون، والصاحب نجم الدين صاحب الدعوة. وفي أواخر شهر رجب، تكمل نصب عدة مجانيق، وفي سابع شعبان، أخذت الباشورة بالسيف، وفي سادس عشر الشهر، تشقق برج من أبارج القلعة، وزحف العسكر وطلع الناس إلى القلعة وتسلموها، وطلع الفرنج القلعة الأخرى وأحضرت جماعة من الفرنج والنصارى، فأطلقهم السلطان، ونقلت المجانيق إلى القلعة ونصبت على القلة. وكتب السلطان كتاباً على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالقلعة يأمرهم بالتسليم. ثم طلبوا الأمان، فكُتب لهم أمان على أنهم يتوجهون إلى بلادهم. وفي يوم الثلاثاء رابع عشرين شعبان، خرج الفرنج من القلعة وجهزوا إلى بلادهم، وتسلم السلطان الحصن. ورتب الأمير صارم الدين [قايماز][٢] الكافري نائباً بحصن الأكراد، وفوض أمر عمارة الحصن إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم وعز الدين أيبك الشيخ.

وهذا الحصن كان قديماً بيد المسلمين، فلما نازل صنجيل طرابلس كان يشن الغارات على هذا الحصن وما قاربه من الحصون، ثم قصده في سنة ست وتسعين وأربعمائة[٣] وحاصره وضيق على من به وأشرف على أخذه، فاتفق قتل جناح الدولة صاحب حمص فطمع فيها ورحل عنه. وهلك صنجيل وملك ابنه، فجرى على عادة أبيه في أذية أهل هذا الحصن وإفساد أعماله، ثم فارقه وتوجه لحصار بيروت. فجاء

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٦، س ٢.

(٣) الموافق: ١١٠٢ م.

طنكلي[١] صاحب أنطاكية ونازله، وأهله في غاية الضعف، فسلمه صاحبه إليه، وكان يرجو أنه يبقيه فيه لأنه اختاره على صنجيل فأنزله وأهله منه، وأخذه صحبته، ورتب فيه من يحفظه من الفرنج؛ وحكى ذلك ابن عساكر.

وذكر ابن منقذ في كتاب البلدان أن: نور الدين محمود بن زنكي، رحمه الله تعالى، كان قد عامل بعض رجالة التركمان المستخدمين من جهة الفرنج بهذا الحصن، على أنه إذا قصده نور الدين يثور هو وجماعة من أصحابه في الحصن ويرفعون علم نور الدين على الحصن وينادون باسمه. وكان هذا التركماني له أولاد وإخوة قد وثق بهم الفرنج، وكان الاتفاق بينه وبين نور الدين أن يقف على رأس الباشورة، فكتم نور الدين هذا الأمر عن أصحابه وتقدم أوائل العسكر النوري فرأوا التركماني على الباشورة فرموه بالنشاب فمات، واشتغل أهله بوفاته، فلم يتم لنور الدين ما دبره. ولم يفتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين. وكان فتحه على يد السلطان الملك الظاهر الآن.

ذكر صلح أنطرطوس والمرقب[٢]

قال: وسأل كمندور أنطرطوس ومقدم بيت الإسبتار السلطان على الصلح، فأجابهم على أنطرطوس خاصة، خارجاً عن صفيتا وبلادها، وعلى المرقب. واسترجع منهم بلدة وأعمالها وما أخذوه في الأيام الناصرية، وعلى أن جميع ما لهم من المناصفات والحقوق على بلاد الإسلام يتركونه. وعلى أن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين بيت الاسبتار، وعلى أن لا تجدد عمارة بالمرقب، وحلف لهم السلطان على ذلك، وتوجه لتحليف المقدم المذكور بأنطرطوس الأمير فخر الدين المقري الحاجب، وأخلى الفرنج برج قرميص[٣]، وأحرقوا ما لا أمكنهم حمله من موجودهم، وتسلم البرج المذكور في هذه الأيام، وكذلك البرج الذي في بلدة هدم الفرنج بعضه وحرقوه، ورسم السلطان بهدم باقيه.

ذكر فتوح حصن عكّار[٤]

قال: «ولما رتب السلطان أمور حصن الأكراد توجه إلى حصن عكار ونازله، في

---

(١) هكذا في الأصل. ويرد أحياناً: «صنكي وصنكري وطنكري».
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩١، س ٦ - ٧.
(٣) في السلوك، ج ١، ص ٩٧٥: «قرفيص».
(٤) حصن عكار: حصن مبني على جبل يسمى بنفس الاسم. وموقعه شمالي طرابلس، ويسمى هذا الحصن أيضاً: حصن ابن عكار. انظر: Le strange: op. cit. pp 80 - 390.

يوم الأربعاء سابع عشر رمضان، ورتب طلوع المجانيق، وركب بنفسه على الأخشاب فوق العجل في تلك الجبال إلى أن أوصلها إلى مكان نصبت به، وشرع في نصب المجانيق الكبار في العشرين من الشهر. وفي هذا اليوم، استشهد الأمير ركن الدين منكورس الدواداري، وكان يصلي في خيمته فجاء حجر منجنيق فمات، رحمه الله تعالى. وفي التاسع والعشرين من الشهر، طلب أهل الحصن الأمان ورفعت الصناجق السلطانية على أبراجه، وفي يوم الثلاثاء سلخ الشهر، خرج أهل حصن عكار منه، وجُهزوا إلى مأمنهم، وعيّد السلطان بالحصن»، ورحل إلى مخيمه بالمرج.

وهذا الحصن يعرف بابن عكّار[١]، وكان بيد المسلمين، فلما ملك الفرنج طرابلس وغيرها ترددت الرسائل بينهم وبين طغتكين وهو بحمص، فوقع الاتفاق على أن يكون للفرنج ثلث بلاد البقاع ويتسلمون حصن المنيطرة[٢]وحصن عكار، وألا يتعرضوا إلى البلاد بغارة. وتقرر معهم أن مصياف وحصن الوادي وحصن الطوبان وحصن الأكراد في الصلح، ويُحمل إلى الفرنج مال عنها. فلما تسلم الفرنج الحصنين عادوا إلى ما كانوا عليه من الغارات، وصار هذا الحصن لما تسلمه الفرنج من أضر شيء على المسلمين المارين من حمص إلى بعلبك، ولم يكن له كبير ذكر فيما مضى، إلى أن وصل ريدافرنس إلى الساحل بعد فكاكه من الأسر بمصر فرآه حصناً صغيراً، فأشار على صاحبه الأبرنس أن يزيد فيه وهو يساعده في عمارته، فزاد فيه زيادة كثيرة من جهة الجنوب، وهو في وادٍ بين جبال محيطة به من أربع جهاته.

ولما فتحه السلطان الملك الظاهر كتب[٣] إلى صاحب طرابلس ما مثاله بعد البسملة:

«قد علم القومص بيمند ـ جعله الله ممن ينظر لنفسه ويفكر في عاقبة يومه من أمسه ـ نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في حَرِّها[٤] على مناكدة الأوحال ومكابدة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى، وكيف هبطنا تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم تُرى بها ما كان غير جبالها رشاً، وكيف صارت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم، وحسّنت بهم استعانة نائبك الذي انتحى بهم».

---

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) حصن بالشام قريب من طرابلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢١٧.

(٣) قارنه بكتاب السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٢. ملحق رقم (٤).

(٤) في الأصل: «جرها». والتصحيح يقتضيه السياق.

وكتابنا هذا يبشرك بأن عَلَمَنا الأصفر نُصِب مكان عَلَمِكَ الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضَه الله أكبر، ومن بقي من رجالك أُطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح[١]، وأطلقناهم ليحدِّثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفتَرَى، وليروهم الجراح التي أريناهم بها نفاذاً، ولينذروهم لقاء يومهم هذا، ويفهموكم أنه ما بقي من حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل، فَتُعرِّف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلِّم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب أو نُعلِّم أجساد فرسانك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة لا تغيب، لأن أهل عكار ما سدّوا لها جوعاً، ولا قضت من ريها بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلا لما عاقب شرب دمائهم، وكيف لا، وثلاثة أرباع عكار عكر. يعلم القومص هذه الجملة المسرودة ويعمل بها، وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده.

وقال[٢] المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر:

يـا مـلـيـك الأرض بُـشْـرَا ... كَ فَـقَـدْ نِـلْـتَ الإراده

إنَّ عـكّـار يـقِـيـنـاً ... هِـيَ عـكّـا وزيـاده

ذكر صلح طرابلس[٣]

قال: ولما استقر أمر حصن عكار رحل السلطان من منزلته بالأرزونية هو وجميع العساكر والأثقال، وساق على عزم حصار طرابلس، فوردت الأخبار أن ملك الإنكتار وصل إلى عكا، في أواخر شهر رمضان من هذه السنة، وصحبته ثلاثمائة فرس، وثماني بطس وشواني ومراكب تكملة ثلاثين مركباً، غير ما كان سبقه صحبة استاد داره، وأنه يقصد الحج. ففتر عزم السلطان ونزل قريباً من طرابلس جريدة. وتردد الأتابك إلى جهة طرابلس، والأمير سيف الدين الدوادار واجتمعا بصاحبها. وأراد السلطان قطع ما بقي من الأشجار، فسير البرنس يطلب الصلح وخرج وزراؤه، وكتبت الهدنة لمدة عشر سنين[٤]. وجهز السلطان فخر الدين بن جلبان، وشمس الدين الأخنائي شاهد الخزانة ومعهما ثلاثة آلاف دينار مصرية لفكاك الأسرى. وتوجه السلطان إلى حصن عكار، ثم عاد إلى مخيمه بالأرزونية، ثم توجه إلى حصن الأكراد،

---

(١) في الأصل: «النوايح».

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٣، س ٤.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٢، س ٩.

(٤) في الأصل: «عشرة». والتصحيح يقتضيه السياق.

ثم رحل فوصل إلى دمشق في نصف شوال.

ذكر فتوح القُرين

كان حصن القرين لاسبتار الأرمن، ولم يكن لهم بالساحل غيره، وكان من أمنع الحصون وأضرها على صفد، فتوجه السلطان إليه من دمشق، في الرابع والعشرين من شوال سنة تسع وستين وستمائة(١)، ووصل إلى صفد وجهز منها المجانيق وسار إلى القرين ونازله. وبينما السلطان واقف لنصب المجانيق وردت رسل عكار. واتفق أن السلطان [كان](٢) يرمي نشاباً على القلعة فمرّ به طائر فرماه فإذا فيه بطاقة من جاسوس في العسكر للفرنج مضمونها أخبار السلطان، وذلك بحضور الرسل، فسلّم السلطان الطائر لهم وقال: «استصحبوه معكم لتقرأ الفرنج هذه البطاقة، ونحن نفرح بمن يخبركم بأخبارنا». وفي مستهل ذي القعدة ملك الربض، وفي ثانيه أخذت الباشورة، وأخذت النقوب في السور، وشرط السلطان للحجارين عن كل حجر ألف درهم. واشتد القتال، فحضر رسلهم، وتقرر خروجهم وتوجههم حيث شاؤوا، وأنهم لا يستصحبون مالاً ولا سلاحاً. وكتب الأمان بذلك، ورفعت الصناجق السلطانية عليها، وركب السلطان وأصبح على أبواب عكا مُطِّلباً، فما ترك أحد من الفرنج، وعاد إلى مخيمه بالقرين، وأمر بهدم القلعة، فتكمل هدمها في رابع وعشرين ذي القعدة من السنة.

ذكر صلح صور وما تقرر من المناصفة

وحضرت رسلِ صاحب صور، وحصل الاتفاق على أن يكون لهم من بلاد صور عشرة بلاد خاصاً، وللسلطان خمسة بلاد يختارها تخصه، وبقية البلاد مناصفة، وحلف السلطان على ذلك. وجهز الرسل فحلّفوا صاحب صور على ما تقرر(٣).

ذكر منازلة التتار البيرة وكسرهم على الفرات وقتل مقدمهم جنقر(٤)

وفي تاسع شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وستمائة وردت الأخبار بحركة التتار، فجرد السلطان الأمير فخر الدين الحمصي بجماعة من العساكر المصرية

---

(١) الموافق: ١٢٧٠ م.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٥، س ١ ـ ٣.

(٤) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧. وهناك اختلاف في توقيت الشهر.

والشامية إلى جهة حارم، ثم جهز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري بجماعة من العساكر وجماعة من العربان. وعدّى التتار إلى البر الشامي لقصد الرحبة فتقسم فكر السلطان ليقسمهم على البيرة والرحبة، ورحل من ظاهر دمشق، فبلغه رحيل العدو عن الرحبة، فجدّ في مسيره ووصل إلى الفرات إلى مخاضة تعرف بمخاضة الحمام، فوجد التتار قد وقفوا على شط الفرات، وعدتهم قريب الخمسة آلاف فارس، ومقدمهم جنقر أحد مقدميهم الكبار وحفظوا فم المخاضة. وكان السلطان قد استصحب عدة مراكب من دمشق وحمص فرست في الفرات، وركب فيها الرجالة الأقجية لكشف البر. وعمل التتار مكيدة: وهي أنهم تركوا المخاضة السهلة ووقفوا على مكان بعيد الغور وعملوا الستائر، فاعتقد المسلمون أن المكان الذي حفظوه هو المخاضة السهلة فخاضوا منه، وكان العدو قد عملوا سيباً على البر من جانبهم ليقاتلوا من ورائها، فرتبت العساكر الإسلامية نفوسها بخيولها، وعاموا أطلاباً، الفارس إلى جانب الفارس، متماسكين بالأعنة معتمدين على الرماح، كما قال القائل:

فعمنا إليهم بالحديد سباحة ومن عجب أن الحديد يعوم

وازدحم الناس وانسكر الماء بهم فصار كالجبال. وطلع المسلمون، والسلطان في أوائل القوم[1]، فلم يلبث التتار أن انهزموا أقبح هزيمة، وقتل مقدمهم جنقر وجماعة كثيرة منهم وأسرت جماعة، وأقام السلطان إلى العصر وجمع الأسرى ورؤوس القتلى وبات في مكان النصر، والعساكر لابسة والخيل ملجمة. وأصبح يوم الاثنين بمنزلته حتى عاد من كان قد ساق خلف العدو، واستبرىء أمر العدو، ثم عادت العساكر، وكان العود عليهم أشق.

ولما صار السلطان بالبر الشامي بلغه أن التتار الذين كانوا نازلوا البيرة ومقدمهم درباي، قد هربوا وتركوا أزوادهم والمجانيق التي معهم؛ ورموا النار في بعض ذلك، ونزل أهل البيرة وحملوا من ذلك شيئاً كثيراً، فنزل السلطان على جبل مشرف قرب البيرة من الجانب الشامي، وتوجه إليها على الجسر الذي مده العدو وهو جسر كبير تحته المراكب والصواري والسلاسل، ومعه جماعة من الأمراء، وأنعم على النائب بها بألف دينار، و[الأمير سيف الدين][2] الصروي المجرد بها بألف دينار، وعمَّ من بها بالتشاريف، وأنعم على أهل الثغر بمائة ألف درهم، وجرد بها جماعة زيادة على من بها، وعاد إلى مخيمه، وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث جمادى الآخرة والأسرى بين يديه.

---

(١) في الأصل: «القول». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

ذكر فتوح كَيْنُوْك(١)

كان قد كثر فساد أهل كينوك وتعديهم على التجار والقصاد، وكُتب إلى صاحب سيس في ذلك فلم تفد فيه المكاتبة، فجرد الأمير حسام الدين العين تأبى مقدم العسكر الحلبي إلى كَيْنُوك، فوصل إليها في ثالث المحرم، فأخذوا الحوش البراني، ودخل الأرمن إلى القلعة، فقاتلهم المسلمون وملكوها وقتلوا الرجال وسبوا الحريم، وأغار العسكر على أطراف طرسوس ونهبوا وسبوا.

وهذه كينوك هي الحدث الحمراء التي بناها سيف الدولة علي بن حمدان، ومعنى تسميتها كينوك أي المحترقة، وكان قسطنطين صاحب سيس قد أخذها من ملوك الروم السلجقية وأحرقها. وهي التي يقول فيها المتنبي عند بنائها يمدح سيف الدولة في قصيدته التي أولها(٢): [من الطويل]

* عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ *

هَلِ الحَدَثُ الحَمْرَاءُ تعرِفُ لونَها ... وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الغَمَائِمُ

سَقَتْهَا الغَمَامُ الغُرُّ قبل نُزُولِهِ ... فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الجَمَاجِمُ

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالقَنَا تَقْرَعُ القَنَا ... وَمَوْجُ المَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلاطِمُ

وَكَانَ بِهَا مِثْلَ الجنُونِ فَأَصْبَحَتْ ... وَمِنْ جُثَثِ القَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وكان من خبرها: أن سيف الدولة بن حمدان سار لبنائها، وكان أهلها سلموها بالأمان للدمستق ملك الروم، في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فنزلها سيف الدولة في يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة(٣)، فحط الأساس من يومه، وحفر أول الأساس بيده، وأقام حتى كمل بناؤها في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب من السنة.

ذكر إغارة عيسى بن مهنا على الأنبار(٤)

وفي سنة اثنتين [وسبعين](٥) وستمائة: رسم السلطان للأمير شرف الدين عيسى

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٨.
(٢) ديوان المتنبي، ج ٣، ص ٣٨٠ - ٣٨١.
(٣) الموافق: ٩٤٨ م.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١.

ابن مهنا [أمير العرب][١] بالإغارة على بلاد العراق، فوصل إلى الأنبار فوجد بها جماعة من التتار، وكان السلطان قد اختفى أمره[٢]، فلما وصل عيسى إلى الأنبار توهموا أن السلطان دهمهم، فعدّوا إلى البر الآخر، واقتتل عيسى وخفاجة، ودام القتال نصف نهار، وكانت هذه الإغارة في ثامن عشر شعبان.

ذكر الإغارة على مرعش

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة[٣]: توجه عسكر حلب صحبة الأمير حسام الدين العين تابي إلى جهة مرعش، وأغاروا على بلاد سيس، وحازوا غنائم كثيرة، وقلعوا أبواب ربض مرعش، وغرق ربيعة بن الظاهر بن غنام في نهر هناك[٤].

ذكر غزوة سيس[٥]

كان صاحب سيس قد اعتمدوا ما يقتضي فسخ الهدنة التي وقع الاتفاق عليها في سنة ست وستين عند إطلاق ولده ليفون، وقطع الهدايا المقررة عليه، وخالف الشروط من أنه لا يجدد بناء ولا يحصن قلعة، وصار لا يطالع بخبر صحيح كما تقرر معه، ثم لم يقتصر على ذلك إلى إن صار يُلبّس الأرمن السراقوجات ويخيف[٦] القوافل، ويدّعي أنهم من عسكر التتار، فاقتضى ذلك أخذ كينوك وإخرابها كما ذكرنا[٧]، فتصور صاحب سيس من ذلك. فذكر السلطان لرسوله سوء اعتماده، وأرسل إليه يعرفه أنه عزم على قصد سيس، ثم أسر السلطان في نفسه قصده، ولم يبده لأحد، بل أظهر الحركة إلى الشام، وعرض العساكر في يوم واحد تحت القلعة، وخرج ثالث شعبان سنة ثلاث وسبعين وستمائة[٨]، ووصل إلى دمشق في سلخ الشهر، وخرج منها في سابع شهر رمضان بجميع العساكر. ولما وصل إلى حماه خرج الملك المنصور صاحب حماه بعساكره، ثم سار وفي خدمته العساكر والعربان. فجرد الأمير شرف الدين بن مهنا، والأمير حسام الدين العين تابي إلى جهة البيرة بصورة جاليش العسكر

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١.
(٢) أي انقطعت أخباره.
(٣) الموافق: ١٢٧٤ م.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦.
(٥) انظر السلوك، ج ١، ص ٦١٨.
(٦) هكذا في الأصل.
(٧) انظر ذكر فتوح كينوك في هذا الجزء.
(٨) الموافق: ١٢٧٤ م.

المنصور فوصلوا إليها. ولما وصل السلطان إلى سرمين رحل منها إلى جهة الدربساك، وأخر الأثقال وبعض العسكر صحبة الأمير شمس الدين سنقرجاه بسرمين، وجرد الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار، والأمير مبارز الدين الطوري لتمهيد جوانب النهر الأسود، فقطعته العساكر بمشقة. ونزل السلطان بين الدربساك وبغراس، وأمر جماعة من مقدمي الألوف أن يتوجه كل منهم إلى جهة، فطلعوا تلك الجبال، وأمر الناس بوقود الشموع فقطعوا تلك الجبال والأوعار والمضايق. وكان السلطان قد حمل ثلاثين مركباً لأجل التعدية، ونزل السلطان داخل باب اسكندرونة خلف السور الذي بناه الملك هيتوم والد ليفون صاحب سيس، ثم رحل إلى قرب المثقب، وملكت العساكر جسر المصيصة وملكوا المصيصة، وغلبت العساكر على ما فيها، وقتلوا من وجدوه بها، وغنم الناس ما لا يحصى كثرة من البقر والجاموس والغنم، وحضر إلى الطاعة جماعة كبيرة من التركمان والعربان بمواشيهم وخيولهم، فجهزهم السلطان إلى البلاد الإسلامية، وساق مُطلَباً في تاسع وعشرين شهر رمضان، فوصل إلى سيس، فعدل عنها ووصل دَرْبَنْد[1] الروم، ووجد بقايا من حريم التتار فسبين، وعاد فبات في تلك الجبال، وعيّد بمدينة سيس، وهي كرسي ملك الأرمن، وبها بستان متملكها ومناظره. فانتهبت مدينة سيس وهدمت وأحرقت وتحصن أهلها بقلعتها. ولما فرغ من إحراق المدينة وهدم قصور التكفور، وعادت الجاليشية بما سبوه من حريم المغول وأولادهم، وسيقت الغنائم، وعاد السلطان ورعت العساكر الزروع. ووصل الأمير جمال الدين المحمدي، والأمير عز الدين الدمياطي إلى طرسوس ووجدوا بها من الخيل والبغال مقدار ثلثمائة رأس فاستاقوها. وتوجه الأمير مبارز الدين الطوري، والأمير عز الدين كرجي إلى قريب البحر وقاتلوا جماعة من العدو، ووجدوا مراكب في البحر فدخلوا إليها وأخذوها وقتلوا من فيها. ووصل الأمير سيف الدين الزيني إلى قلعة البرزين، ووصل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى أذنه، وغنموا نساء وأطفالاً. وأغارت العساكر في تلك الجبال وقتلوا رجالاً كثيرة. ووصل الأمير بدر الدين بيسري والأمير سيف الدين أيتمش السعدي إلى أياس، وكان خبر العسكر قد وصل إلى من بها من الفرنج فنقلوا أموالهم إلى المراكب فأحرقت العساكر وقتلت جماعة كبيرة في البر والبحر، وحضر بعد ذلك كتاب والي إسكندرونة يتضمن: أن العساكر لما قصدت أياس ركب جماعة منها من الفرنج والأرمن قريب ألفي نفس هاربين فغرقوا جميعهم، وأخذ الأمير بدر الدين أمير سلاح جشارات خيول. هذا ما يتعلق بغزوة سيس.

---

(١) في الأصل: «بند». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٨، س ٤. وانظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٣١.

وأما العسكر والعربان الذين توجهوا إلى جهة البيرة فوصلوا إلى رأس عين وغنموا غنائم كثيرة، وانهزم من كان في تلك الجهة من التتار، وعاد العسكر سالماً منصوراً. ووصل السلطان إلى المصيصة وأحرقت من الجانبين.

ولما تكامل حضور الأمراء بالغنائم وخروج التركمان والعربان الواصلين إلى الطاعة من الدربندات، رحل السلطان وعبر على بحيرة بها أغصان ملتفة مثل الغابة وبها جزائر قد تحصن بها جماعة من تلك البلاد ونقلوا إليها حريمهم وأموالهم، فرمى العسكر نفوسهم فيها عوماً بالخيل، فقتلوا وسبوا. ثم عبروا على تل حمدون، وقلعة النقر فعاثت العساكر فيهما، وخرج العسكر من الدربندات فشاهدوا الغنائم قد ملأت المروج طولاً وعرضاً، فوقف السلطان بنفسه وفرق الغنائم وعمّ بها الناس، وما أخذ لنفسه شيئاً منها. ثم سار بعد القسمة فنزل دهليزه بحارم.

فقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

يا ملك الأرض الذي عزمه ... كم عامر للكفر منه خرب

قلبت سيساً فوقها تحتها ... والناس قالوا سيس لا تنقلب

ذكر شيء من أخبار بلاد سيس وسبب استيلاء الأرمن عليها

المصيصة: بناها عبد الملك بن مروان في أيام أبيه، في سنة أربع وثمانين[١] للهجرة النبوية.

وأما طرسوس فهي من المدن القديمة، وفيها دفن الخليفة عبد الله المأمون بن الرشيد كما ذكرنا.

وطرسوس وأذنة وما يليهما تسمى قيليقيا، وتعرف هذه البلاد بالدروب والعواصم، وبها كان الغزو والرباط والجهاد والمثاغرة، وكانت مضافة إلى مملكة مصر في إمارة أحمد بن طولون ومن بعده، حتى استولى الروم عليها كما قدمنا. واستمرت بيد الروم إلى أن استولى عليها مليح بن لاون الأرمني، وذلك في أيام العادل نور الدين الشهيد، بمساعدته، وهزم مليح جيش الروم فقوي عند ذلك البلاد، وكانت هزيمته للروم في يوم الأحد سلخ شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وخمسمائة[٢]، وأسر من مقدميهم ثلاثين أسيراً، فأحسن إليه نور الدين وخلع عليه، وكتب إلى بغداد يعظم أمر الروم ويذكر أن هذا مليح الأرمني من جملة غلمانه، وأنه كسر الروم، ومنّ بذلك على أهل بغداد.

---

(١) الموافق: ٧٠٣ م.

(٢) الموافق: ١١٧٢ م.

واستمر ملك هذه البلاد في هذا البيت إلى الآن.

نعود إلى أخبار السلطان الملك الظاهر

قال: ثم رحل السلطان وخيم بمرج أنطاكية، وانبثت العساكر في تلك المروج ورعت الأعشاب، ثم رحل.

ذكر منازلة حصن القصير وفتحه(١)

هذا الحصن مما لم يفتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب رحمه الله، وقيل إنه صالح عليه، وما زال لمن يكون بابا بروميه، والبابا خليفة عند الفرنج يَنْفُذ أمره وحكمه في سائر ملوك الفرنج.

وأمر الحصن راجع إلى بتْرك(٢) أنطاكية، والفرنج تميزه وتؤثره. وأهله أهل شره ومنعة وفساد، وكان مضرة على الفرعة وتلك الجهات. ولما فتح السلطان أنطاكية سأل أهل القصير الهدنة والمناصفة، فأجيبوا إلى ذلك كما قدمنا. فما وفوا وأخفوا في المناصفة. ولما وصل صمغار [مقدم التتار](٣) إلى جهة حارم ضرب أهل القصير البشائر، ودلوا على الطريق وأمثال ذلك مما يقتضي فسخ الهدنة. وكان السلطان قد رسم للأمير سيف الدين الدوادار بالتردد إلى كليام النائب بالقصير وإظهار مصافاته. واعتمد ذلك وتوجه المذكور إليه في خامس عشر شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة(٤)، ومعه جماعة من السلاح دارية بصورة أصحابه، فوصلوا إلى القُصَيْر وأظهر الأمير سيف الدين غضباً كون كليام ما خرج للقائه وقصد الرجوع، فبلغه ذلك فخرج مسرعاً ليسترضيه ويرده. فأدركه فامتنع من الرجوع واستدرجه حتى أبعد عن الحصن، ثم قتل من كان معه وأخذ كليام وأحضره إلى السلطان. فكتب إلى أصحابه بالتسليم فما رجعوا إلى كلامه. فجرد السلطان جماعة من أمراء حلب وهم: سيف الدين الصروي وشهاب الدين مروان والي أنطاكية وجماعة من الرجال، فنازلوا القصير.

وتوجه السلطان إلى دمشق واستصحب كليام معه، وكان شيخاً كبيراً وكان ابنه في الأسر، فمات كليام في الأسر بعد اجتماعه بابنه. ولما اشتد الحصار على القُصَيْر وعدموا الأقوات سلموا الحصن المذكور في يوم الأربعاء ثالث وعشرين جمادى الأولى

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٠.

(٢) وردت من قبل: «بطرق».

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) الموافق: ١٢٧٤ م.

سنة أربع وسبعين [وستمائة][١]. وحمل أهله إلى الجهات التي قصدوها.

ذكر وفاة الأبرنس صاحب طرابلس وما أنفق بعد وفاته

وفي تاسع شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وستمائة: توفي الأبرنس بيمند ابن بيمند صاحب طرابلس. ووصل ملك قبرص، وهو ابن عم الأبرنس إلى طرابلس لتعزية ولده، وكان السلطان قد كتب إلى البرنس يقول: «إن اللاذقية ما برحت للمسلمين، ولما راح صاحب حلب تغلّب أبوك وأخذها ظلماً وعتواً، ونحن لنا في اللاذقية النصف، فتترك النصف الآخر فإنه من حقوق المسلمين». فلما سمع الفرنج ذلك قووا البرج، وخاف المسلمون عاديتهم. فرسم السلطان لركن الدين النائب ببلاطنس بنقل مَنْ باللاذقية من المسلمين إلى البلاد السلطانية. فوصل كتاب نائب البرنس الذي باللاذقية يذكر أنهم ما برحوا في الطاعة، وقد عز عليهم خروج من عندهم. ووردت رسل ملك عكا وهو يشفع عند السلطان في استمرار الصلح، فترك السلطان الحديث في اللاذقية. وكان السلطان قد سير عسكراً للحوطة على عَرْقَا ومغل بلادها، فسير ملك عكا وقبرص يتوسل في أمرهم، وسأل إنفاد من يوثق به لأجل الدعاوى، ويكون منه إلى نواب السلطان ومن ملك عكا إلى نواب البرنس. فسير الأمير سيف الدين الدوادار فتوجه إلى عرقا، وأقام بها، فاجتمع عنده نائب بعلبك، وولاه البر ومشايخ البلاد ومستخدميها ونواب الفرنجية. وكتبت الدعاوى وترددت الرسل. واتفقت وفاة الأمير صارم الدين الظافري النائب بحصن الأكراد، فبقي الفرنج يعتذرون به وأنكروا الدعاوى، ثم سأل الملك حضور الأمير سيف الدين إلى طرابلس فدخلها في ثامن المحرم في تجمل كثير من المماليك السلطانية ومماليكه وأجناده، وتلقاه أبناء الملوك بها، واجتمع بالملك إليه كتاب السلطان، وتقرر على الفرنج القيام بعشرين ألف دينار صورية وعشرين أسيراً من المسلمين.

ذكر غزوة النوبة[٢]

وفي سنة أربع وسبعين وستمائة: كثر تعدي داود متملك النوبة، وحضر إلى قريب أسوان وأحرق سواقي. وكان قبل ذلك قد حضر إلى عيذاب، وفعل الأفعال الشنيعة. وتوجه الأمير علاء الدين الخزندار والي قوص إلى أسوان فلم يدركه وظفر بنائبه الأمير قمر الدين بقلعة الدو المسمى صاحب الجبل وجماعة معه، فجهزهم إلى

---

(١) الموافق: ١٢٧٥ م.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١ ـ ٦٢٣.

السلطان فوسطوا. وأمر السلطان بتجريد الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، وصحبتهم جماعة من العسكر ومن أجناد الولايات والعربان بالوجه القبلي. وكان قد حضر ابن أخت ملك النوبة مرمشكد الذي أخذ داود الملك منه. فجهز العسكر المنصور وتوجه مرمشكد صحبتهم. فأغار الأمير عز الدين على قلعة الدو وقتل وسبى، وسار الأمير شمس الدين في أثره يستأصل[1] شأفة من بقي، ونزل الأمير شمس الدين بجزيرة ميكائيل وهي رأس جنادل النوبة، وهي كثيرة الأوعار وفي وسط البحر، فقتلوا وأسروا. وكان نائب قلعة الدو الذي ولي عوض الموسط قد هرب إلى الجزائر، فأعطي أماناً واستمر على نيابته، وخَحَفَ لمرمشكد المتوجه صحبة العسكر ما دام على الطاعة. وخاض الأمير عز الدين في وسط البحر إلى برج فحاصره وأخذه وقتل به مائتين وخمسين نفراً.

ثم ساق العسكر والتقوا الملك داود، وما زال السيف يعمل فيهم حتى أفناهم وما سلم إلا من ألقى نفسه في البحر، وهرب داود، وأسر أخوه سنكوا. وجُرِّد جماعة من العسكر وساقوا ثلاثة أيام وأمسكوا أم الملك داود وأخته[2].

وقرروا على الملك مرمشكد المتوجه صحبة العسكر قطيعة في كل سنة، وعرض على أهل النوبة الإسلام أو القيام بالجزية أو القتل، فاختاروا القيام بالجزية وأن يقوم كل واحد بدينار عيناً، وحرقت كنيسة سوس التي كان داود يزعم أنها تحدثه بما يؤديه. وكان داود قد بنى مكاناً سماه عيذاب عمره على أكتاف المسلمين [الذين أسرهم من عيذاب وأسوان][3] وفيه منازل وكنائس، وميدان صور فيه قتلى المسلمين بعيذاب وأسراهم بأسوان، فمحيت تلك التصاوير منه وخرِّب. وتقرر حمل ما هو مخلف عن الملك داود وأقاربه. وكانت إقامة العسكر بدنقلة سبعة عشر يوماً حتى تمهدت البلاد واستنقذت أسرى المسلمين المأسورين من أسوان وعيذاب، وألبس مرمشكد التاج على عادة ملوك النوبة، وأجلس بمكان الملك [داود][4] وحلف اليمين العظيمة عندهم على ما تقرر وهي:

«والله، والله والله، وحق الثالوث المقدس، والإنجيل الطاهر، والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية؛ والأنبياء المرسلين والحواريين والقديسين، والشهداء

---

(١) في الأصل: «يستأثر». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٢، س ٧.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٣، س ٤.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق. وقد مرت معنا.

الأبرار. وإلا أجحد المسيح كما أجحده يُودس[١]، وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه. وإلا أكون يُوذس الذي طعن المسيح بالحربة، أنني أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس، وأني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته، وإني ما دمت نائبه لا أقطع ما قرّر عليّ في كل سنة تمضي، وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصّل لمن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مُخَلّصاً من كل حق، والنصف الآخر أرصُدُهُ لعمارة البلاد وحفظها من عدوٍ يطرقُها، وأن يكون عليّ كل سنة: من الأفيلة ثلاثة، ومن الزرافات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، ومن الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة. وإنني أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً، وأن تفرد بلاد العلى والجبل للسلطان. وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه سنكوا ولأمه وأقاربه، ومن قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة، أحمله إلى الباب العالي مع من يُرْصَد لذلك. وإنني لا أترك شيئاً منه قلّ ولا جلّ، ولا أخفيه ولا أمكن أحداً من إخفائه، ومتى خرجتُ عن جميع ما قررته أو شيء من هذا المذكور أعلاه كله كنت بريئاً من الله تعالى، ومن المسيح، ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلي إلى غير الشرق، وأكفر بالصليب، وأعتقد ما تعتقد اليهود، وإني لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة، ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطاني، ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان في وقته وساعته، ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة، وإنني وَلِيُّ من والى السلطان وعدوٌّ من عاداه، والله على ما نقول وكيل»[٢].

[ثم هذا عهد آخر صادر من أمير بطاعة مرمشكد وبطاعة بيبرس].

«وحلّفْتُ الرعية أيضاً بتلك الجهات بأنهم يطيعون نائب السلطان، وهو الملك مرمشكد المقيم بدنقلة، وكل نائب يكون للسلطان أطيعه ولا أرى عليه ولا أخبّىء عنه مصلحة، وكل ما أسمعه من الأخبار الجيدة والردية أطالع نائبه به. ومتى علمت على نائبه الملك مرمشكد أمراً يخالف المصلحة لا أطيعه فيه وأطالع السلطان به في الوقت والساعة. وأنني لا أدخل في حكم داود، ولا أكون معه، ولا أطالعه بخبر من الأخبار، ولا أرتضي به ملكاً، ورضيت بأن أقوم بدينار عيناً في كل سنة خالية عليّ».

---

(١) في الأصل: «بودس». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٣، س ١٤.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٣ - ٩٧٤.

وعاد العسكر وأحضر من النوبة ما نذكر، وهو ما وجد في كنيسة سوس من الصلبان الذهب وغيرها: أربعة آلاف وستمائة وأربعون ديناراً ونصف، وأواني فضيات ثمانية آلاف وستمائة وستون ديناراً، والذي أحضر من الرقيق، سبعمائة رأس.

وأما الملك داود فإنه هرب إلى جهة الأبواب، فقاتله صاحبها الملك أدر، وقتل ولده، وأمسكه وسيره إلى السلطان.

ذكر غزوات النوبة في الإسلام

أول ما غُزيت النوبة في سنة إحدى وثلاثين(١) للهجرة النبوية، غزاها عبد الله بن سعد في خمسة آلاف فارس، وأصيب في ذلك اليوم معاوية بن حديج في عينه؛ وأصيب أبرهة الصباح في عينه، وكانوا يسمون النوبة: رماة الحدق. وهادنهم عبد الله ابن سعد بعد أن وصل دنقلة.

وفي ذلك يقول الشاعر:

لم تر عيني مثل يوم دنقلة   والخيل تعدو بالدروع مثقله

ترى الحماة حولها مُجَدلَة   كأن أرواح الجميع مهمله

وقال يزيد بن أبي حبيب: «ليست الموادعة بين أهل مصر والنوبة موادعة هدنة، وإنما هي هدنة أمان، نعطيهم شيئاً من قمح وعدس، ويعطوننا رقيقاً، ولا بأس بما يُشترى من رقيقهم».

وكان البقط المرتب على النوبة وهو الرسم على ما قرر:

في كل سنة أربعمائة رأس من الرقيق، وزرافة واحدة. لأمير المؤمنين ثلاثمائة وستون رأساً، وللنائب بمصر أربعون رأساً.

ويطلق لرسله، إذا وصلوا بالبقط تاماً، ألف وثلثمائة أردب قمح، لرسله منها ثلثمائة.

وقال البلاذري في كتاب الفتوحات: «إن المقرر على النوبة أربعمائة رأس، يأخذون بها طعاماً؛ أي غلة».

وألزمهم المهدي العباسي بثلاثمائة وستين رأساً وزرافة.

ثم غُزيت في زمن هشام بن عبد الملك بن مروان، ولم تفتح وإنما كان قتال ونهب وسبي.

(١) الموافق: ٦٥١ م.

وغزاها يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، على يد عبد الأعلى بن حميد. وغزاها أبو منصور تكين التركي هي وبرقة في عام واحد، ولم تفتح النوبة.

ثم غزاها كافور الإخشيدي، وكان أكثر جيشه السودان.

فقال الشاعر: [من الطويل]

ولما غزا كافور دنقلة غدا بجيش لطول الأرض من مثله عرض

غزا الأسود السودان في رونق الضحى فلما التقى الجمعان أظلمت الأرض

[ثم غزاها ناصر الدولة بن حمدان، فكبسه السودان، ونُهب جيشه، وأخذت أثقاله، وذلك في سنة تسع وخمسين وأربعمائة][١] في أيام المستنصر العبيدي.

ثم غزاها بعد ذلك شمس الدولة توران بن أيوب أخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في سنة ثمان وستين وخمسمائة[٢]، ولم يصل إلا إلى أبريم.

وكل هذه غزوات، وإنما الفتح هذا.

ذكر غزوة الروم وقتل التتار[٣]

قد ذكرنا في أخبار السلطان في سنة خمس وسبعين وستمائة[٤] طاعة أمراء الروم ووصولهم إلى خدمة السلطان، وإكرامه لهم وإحسانه إليهم وما عاملهم به. ولما وصل السلطان إلى الديار المصرية في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة. أقام بها إلى شهر رمضان منها ثم عزم على السفر. وجهز من وصل إليه من أمراء الروم بالخيول والخيام وغير ذلك، وتوجه من قلعة الجبل المحروسة، بعساكر الديار المصرية في يوم الخميس العشرين من شهر رمضان من السنة. ورتب الأمير شمس الدين آقسنقر أستاد الدار في النيابة عنه بقلعة الجبل والصاحب بهاء الدين وجعلهما في خدمة ولده الملك السعيد. واستصحب معه الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين وجعله وزير الصحبة، وهي أول سفرة سافرها صحبته، واستصحب أكثر كتاب الإنشاء، وفوض في هذا اليوم نظر الجيوش للقاضي عز الدين إبراهيم ابن[٥] الوزير الأعز فخر الدين مقدام بن شكر، والشهادة به للقاضي شمس الدين الأرمنتي، واستصحبهما صحبته.

---

(١) الموافق: ١٠٦٦ م.
(٢) الموافق: ١١٧٢ م.
(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨.
(٤) الموافق: ١٢٧٦ م.
(٥) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

ثم رحل يوم السبت ثاني عشرين الشهر وصحبته أمراء الروم، وسار فما مر بمملكة إلا استصحب عسكرها وخزائنها وأسلحتها، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الأربعاء سابع عشر شوال، وخرج منها متوجهاً إلى حلب في يوم السبت العشرين من الشهر، وكان وصوله إلى حلب في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة، وخرج منها في يوم الخميس ثاني الشهر إلى حَيْلان فترك بها بعض الثقل، وتقدم إلى الأمير نور الدين علي بن مجلي نائب السلطة بحلب أن يتوجه إلى الساجور، ويقيم على الفرات بمن معه من عسكر حلب، لحفظ معابر الفرات، خشية أن يعبر منها أحد من التتار إلى الشام، ووصل إلى الأمير نور الدين، الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا.

ولما اتصل خبر نزول هذا الجيش بالتتار المقدمين بالعراق جهزوا إليهم جماعة من عرب خفاجة لينالوا من العسكر غِرَّةً، فاتصل خبرهم بالأمير نور الدين [نائب حلب وهو على الفرات][1] فركب إليهم وقاتلهم وهزمهم، وأخذ منهم ألفاً[2] ومائتي جمل. ورحل السلطان من حيلان يوم الجمعة ثالث الشهر إلى عين تاب، ثم إلى دلوك، ثم إلى مرج الديباج ثم إلى كينوك، ثم رحل منها إلى كراصو[3]، ثم إلى أقجا دربند، فوصله يوم الثلاثاء سابع الشهر فقطعه في نصف نهار، وبات في وطأة هناك. وقدم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في جماعة من العسكر جاليشا، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كراي، فهزمهم وأسر منهم وقتل، وذلك في يوم الخميس تاسع الشهر. ثم ورد الخبر على السلطان أن عسكر المغل ومقدمهم تتاون وعسكر الروم ومقدمهم [معين الدين][4] البرواناه قد قربوا من العسكر، فرتب السلطان عساكره وطلعت العساكر على جبال مشرفة على صحراء هوني[5] من بلد أبلستين، وكان العدو في تلك الليلة قد بات على نهر جهان[6]، وهو نهر جيحان، فأقبل المسلمون من علو الجبل، وترتبت المغل أحد عشر طلباً، كل طلب منها يزيد على ألف، وعزلوا عسكر الروم عنهم، وجعلوه طلباً بمفرده [لئلا يكون مخامراً عليهم][7].

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٨، س ١٠.
(٢) في الأصل: «ألف».
(٣) في الأصل: «كل صو». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦٢٨.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٦٢٨.
(٥) هكذا بالأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٨: «هوتي». وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٥٩: «صحراة البلستين».
(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٢، حاشية رقم (١)، س ١٤.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٢.

وكان أبغا بن هولاكو قد انتخب هذا الجيش من عسكره، وكان فيه جماعة من أكابر مقدمي المغل. فوقف السلطان وتقدم إليهم جماعة من مماليكه وخواصه، فأخلدت فرقة منهم إلى الأرض وقاتلوا قتالاً شديداً، وحملت فرقة منهم من ميسرتهم واستدارت خلف الصناجق السلطانية، فحمل السلطان عليهم، فانجلت الحرب عن قتل التتار، وكان من بقي منهم كما قيل:

فلزهم الطراد إلى قتال أحد سلاحهم فيه القذاره

وكانت وقعة عظيمة مشهورة فثبت فيها المغل.

واستشهد من المسلمين في هذا اليوم شرف الدين قيران العلائي أحد مقدمي الحلقة[١]، وعز الدين أخو المحمدي.

ونزل السلطان في المنزلة التي كان العدو نازلاً بها، وأحضرت بين يديه الأسارى من المغل، فاستبقى السلطان بعض أكابرهم وقتل من بقي منهم، وأسر جماعة من أكابر أمراء الروم، ووصل جماعة منهم إلى الخدمة. وكان ممن أسر ووصل من الروم بكلاء بن البرواناه، ومعه ولد أخته، وولد خواجا يونس، والأمير نور الدين بن جاجا، والأمير قطب الدين أخو الأتابك، والأمير سراج الدين جاجا، وسيف الدين سنقرجاه الزوباشي، ونصرة الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين، عارض الجيش بالروم، وحسام الدين بركاول، قريب الرواناه، وسيف الدين بن عليشير التركماني، والأمير سيف الدين جاليش النائب بالروم، وهو أمير داد، ومعناه أمير العدل، وظهير الدين بن[٢] فتوح مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة، والأمير نظام الدين أوحد ابن[٣] الأمير شرف الدين بن الخطير وإخوته، وقاضي القضاة حسام الدين قاضي الروم، ومظفر الدين بن جحاف، وأولاد الأمير صارم الدين بن الخطير، وجماعة من أصحابهم، وسيف الدين كجكنا[٤] الجاشنكير، ونور الدين المنجنيقي وأولاد رشيد الدين صاحب ملطية[٥] كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر، وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم وأولادهم، وأما البرواناه فإنه هرب.

---

(١) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٢٩.

(٢) ساقطة من الأصل. والإضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩.

(٣) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) هكذا في الأصل. وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٦١: «قليج» وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩: «قفجاق».

(٥) في الأصل: «ماطية». وملطية: بلدة من بلاد الروم. تتاخم الشام وهي للمسلمين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: وأما البرواناه فأنه شمر الذيل وامتطى هرياً أشهب الصبح وأحمر الشفق وأصفر الأصيل وأدهم الليل، ودخل قيسارية في وقت السحر من يوم الأحد ثاني عشر الشهر، فأفهم سلطانها غياث الدين [كيكاوس بن كيخسرو][١] والصاحب فخر الدين وزيرها، والأتابك مجد الدين والأمير جلال الدين المستوفي، والأمير بدر الدين ميكائيل النائب، والطغرائي وهو ولد أخي البرواناه: أن جيش الإسلام كسر بعض المغل، وأن بقية المغل انهزموا، ويخشى أن يدخل المغل قيسارية ويقتلون من بها حنقاً على الإسلام، فأخذهم وأخذ زوجته بنت غياث الدين صاحب أرزن الروم، وتوجهوا كلهم إلى توقات[٢]. ولهذه كرجي خاتون [امرأة البرواناه] أربعمائة جارية استصحبتهن معها. وكانت أم هذه كرجي خاتون ملكة الكرج.

وتوقات مكان حصين مسيرة أربعة أيام من قيسارية.

وجَرّد السلطانُ الأميرَ شمس الدين سنقر الأشقر بجماعة لإدراك من انهزم من المغل، والتوجه أمامه إلى قيسارية، وكتب بتأمين أهلُها. فمرّ بفرقة من التتار معهم البيوت، فأخذ عنهم جانباً. وحال بينهم الليل، فمر كل منهم من جهة.

ورحل السلطان يوم السبت حادي عشر الشهر من مكان المعركة ونزل قريباً من قرية رمّان، وهي قريب الكهف والرقيم حقيقةً كما نقل، لا ما يقال إن الكهف والرقيم من عمل بيسان[٣] والبلقاء.

وقرية رمّان هذه بيوتها مبنية حول سن جبل قائم كالهرم ويطوف بها جبال كأنها أسوار، ويخرج منها أنهار عليها قناطر لا تسع غير راكب.

واشتدت الأمطار، ثم سار بكرة النهار إلى الليل، ونزل بوطأة من أعمال صاروس العتيق، وبقربها معدن الفضة. فأتى السلطان مُخبر أن التتار في فجوة هناك فركب بالعساكر فعاقته كثرة الأمطار فعاد وبات بتلك المنزلة. وأصبح فسلك جبالاً وعرة، ومر على قرية أوترال ومنها إلى خان قريب من حصن سمندو، وكان السطان قد سيّر كتاباً إلى نائبها، فقبله وأذعن إلى النزول عنها إن أمره السلطان، فشكره وأحسن إليه، وكذلك متولي قلعة درندا، ووالي دوالوا، أجابوا كلهم إلى الطاعة. ثم نزل

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩، س ٦.

(٢) توقات: بلدة في أرض الروم بين قونيا وسيواس. ذات قلعة حصينة وأبنية مكينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٩.

(٣) في الأصل: «حسبان».

السلطان قرية قريبة من قيسارية شرقي جبل عسيب، وركب يوم الأربعاء، نصف ذي القعدة سنة خمس وسبعين وستمائة[١]، والعساكر في خدمته، وخرج أهل قيسارية، العلماء والأكابر وغيرهم حتى النساء والأطفال فتلقوا السلطان، وكان دهليز صاحب الروم وخيامه قد نصبت في وطأة كينجسرو قريباً من المناظر التي لملوك الروم، فنزل السلطان به، وارتفعت أصوات العالم بالتهليل والتكبير، وضربت به نوبة آل سلجق على العادة، وحضر أصحاب الملاهي فَرُدّوا، واعتمد السلطان على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة، وكان أولاد [محمد بن][٢] قرمان [أمير التركمان][٢] قد رهنوا أخاهم الصغير علي بك بالروم، فخرج إلى السلطان فأكرمه، وطلب منه تواقيع وصناجق له ولأخوته فأعطاه وتوجه، وكتب السلطان إليهم في الحضور إلى خدمته، وأكد في ذلك. فكان من خبرهم في الوصول إلى بلاد الروم بعد رحيل السلطان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثم ركب السلطان في يوم الجمعة سابع عشر الشهر، وعلى رأسه جتر ابن سلجق ودخل قيسارية. وكانت دار السلطنة قد هيئت لنزوله، وتخت آل سلجق قد نصب لحلوله، فجلس في مرتبة السلطنة بكرة النهار، وحضر القضاة والفقهاء والوعاظ والقراء والصوفية وأعيان قيسارية، وذوو المراتب على العادة السلجقية في أيام الجمع، ووقف له أمير المحفل ـ وهو عندهم ذو حرمة ومكانة، وعليه أكبر ثوب وأكبر عمامة ـ فرتب المحفل وقرأ القراء، ثم أنشد أمير المحفل، بالعربية والعجمية مدائح في السلطان. ومد السماط، فأكل من حضر وانصرفوا. وتهيأ السلطان لصلاة الجمعة وحضر إلى الجامع وصلى، وخطب الخطباء في جوامع قيسارية باسمه، وهي سبعة[٣] جوامع. ثم عاد إلى دار السلطنة وأحضر بين يديه دراهم عليها السكة الظاهرية.

وظهر لمعين الدين سليمان البرواناه ولزوجته كرجي خاتون موجود عظيم[٤]، فحمل إلى السلطان وكذلك موجود من نزح؛ ففرق أكثره على أمرائه.

وحكى الصاحب عز الدين بن شداد في السيرة الظاهرية قال: حكى لي من أثق به أن البرواناه بعث إلى السلطان لما دخل قيسارية يهنئه بالجلوس على التخت، فكتب إليه يأمره بالوفود عليه ليوليه، فكتب إليه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوماً، وكان مراده

---

(١) الموافق: ١٢٧٦ م.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٣، س ٢ ـ ٣.
(٣) في الأصل: «سبع». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) في الأصل: «موجوداً عظيماً». والتصحيح يقتضيه السياق.

أن يصل إلى أبغا ويحثه على المسير [بنفسه][١] والسلطان بالبلاد، فلم يدر ذلك في حدس السلطان. فاجتمع تتاون بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر وعرفه قصد البرواناه في طلبه الانتظار، وأن مقصده أن السلطان يتربص حتى يدركه أبغا في البلاد، فكان ذلك سبب رحيل السلطان عن قيسارية.

ذكر رحيل السلطان عن قيسارية وهرب عز الدين أيبك الشيخي ولحاقه بأبغا وعود السلطان إلى ممالكه

كان رحيل السلطان من قيسارية في يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة، وقيل في الثاني والعشرين منه، لقلة الأقوات، وقيل للسبب الذي تقدم ذكره، وجعل علي يزكه الأمير عز الدين أيبك الشيخي، وكان السطان قد ضربه لسبقه الناس وتقدمه، فحقد ذلك، وتسحب يومئذٍ والتحق بأبغا بن هولاكو.

ونزل السلطان بقيرلو فورد عليه فيها رسول البرواناه، ومعه رجل آخر اسمه ظهير الدين الترجمان، وهو يستوقف السلطان عن الحركة، وما كانوا علموا بقصد السلطان في مسيره إلى أية جهة، وكان الخبر قد شاع أن حركة السلطان إلى سيواس، فأجاب السلطان البرواناه: «إن كتبك وكتب غيرك كانت تأتيني واشترطتم شروطاً لم تفوا بها ولا وقفتم عندها، وقد عرفت الروم وطريقه، وما كان جلوسنا على التخت رغبة فيه إلا لنعلمكم أنه لا عائق لنا عن شيء نريده بحول الله وقوته، ويكفينا أخذنا أمك وأبنك وابن بنتك وما منحناه من النصر الوجيز، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز». ثم رحل، ونزل خان كيقباد، فلما نزل به بعث الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى قرية رمّانة فحرقها، وقتل من كان بها من الأرمن وسبى حريمهم، لأنهم كانوا قد أخفوا جماعة من المغل.

ولما رحل السلطان من منزلة روزان كودلوا مرّ في وطأة خلف حصن سمندو من طريق غير الطريق الذي كان توجه عليها إلى قيسارية، ويعرف هذا المكان بقزل صو، ومعناه النهر الأحمر، وهو بعيد المستقى، كثير الزلق والوحل، فوقف السلطان وجرد سيفه حتى بسطت جملة من اللبابيد الحمر تحت حوافر الخيل وأخفاف الجمال، ووقف راجلاً حتى عبر الناس أولاً فأولاً، ثم ركب وعبر ونزل في وادٍ فيه مرعى، ثم رحل إلى صحراء فراحاً بالقرب من بازاريلوا، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

ثم رحل يوم السبت وسار إلى وطأة أبلستين ومر بمكان المعركة لمشاهدة رمم التتار، وحضر جماعة من أهل أبلستين، وسئلوا عن قتلى التتار، فقال رجل منهم: «عددت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين من المغل خاصة في المعركة غير من قتل خارجها». ولما بلغ السلطان أقجا دربند بعث الأثقال والخزائن والصناجق صحبة الأمير بدر الدين بيليك الخزندار ليعبر بها الدربند، وتأخر السلطان ساقة العسكر يوم الأحد، ورحل يوم الاثنين فدخل الدربند، وحصل للناس مشقة، ولما خرجوا منه قطعوا النهر الأزرق، وبات.

ثم رحل السلطان فنزل قريباً من كينوك، ثم نزل يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة قريباً من حارم، ونزل بعساكره هناك وعيّد عيد الأضحى، ووصلت إليه رسل الأمير شمس الدين محمد بن قرمان أمير التركمان وكتبه بما اعتمده بالروم بعد عود السلطان، وأنه حضر في عشرين ألف فارس من التركمان وثلاثين ألف راجل متركشة إلى خدمة السلطان فلم يدركه.

ذكر ما اعتمده الأمير شمس الدين محمد بك بن قرمان أمير التركمان في البلاد الرومية(١)

كان الأمير شمس الدين المذكور قد باين التتار ونابذهم، وخرج عن طاعتهم وطاعة الروم، وانحاز إلى السواحل. فلما بلغه خبر كسرة التتار ووصول السلطان إلى قيسارية جمع جموعاً كثيرة من التركمان وقصد أقصرا، فلم ينل منها طائلاً فرحل عنها وقصد قونية في ثلاثة آلاف فارس ونازلها، فغلق أهلها أبوابها في وجهه، فرفع على رأسه صناجق السلطان التي سيرها مع أخيه علي بك، وبعث إليهم يعرفهم أن السلطان الملك الظاهر كسر التتار ودخل قيسارية وملكها، فقال أهل البلد: «أما الأبواب فنحن لا نفتحها، ولكن أحرقوها وأدخلوا فنحن لا نمنعكم»، فأحرقوا باب الفاخراني، وباب سوق الخيل ودخلوا قونية يوم عرفة، وهو يوم الخميس. وكان النائب بها إذ ذاك أمين الدين ميخائيل. فقصد من معه داره ودار غيره من الأمراء، والأسواق والخانات فنهبوها، ثم ظفروا بأمين الدين، فأخرجوه إلى ظاهر البلد وعذبوه إلى أن استأصلوا ماله ثم قتلوه وعلقوا رأسه داخل البلد، وامتنع أهل البلد من تسليمها، فأعملوا الحيلة، ورتبوا رجلاً على أن يتوجه إلى قمين من أقمنة حمام عينوه له، فإذا رأى هناك شاباً رمى نفسه عليه وقبل رجليه، فإذا قال له الشاب: «من أين تعرفني؟»، فيقول: «ما أنت

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٠.

علاء الدين كيخسرو ابن السلطان عز الدين كيقباذ؟ أنسيت تربيتي لك وحملك على كتفي؟». وليكن ذلك بمشهد من العامة، فلما فعل ذلك وسمعت العامة ما دار بين الرجل والشاب ازدحموا عليه، وإذا جماعة من التركمان كان قد رتب معهم أنهم إذا رأوا العامة قد أحدقوا به فيأخذونه(١) من بين أيديهم ويحملونه إلى الأمير شمس الدين محمد بك، ففعلوا ذلك، فلما رآه أقبل عليه وضمه إليه، وعقد له لواء السلطنة وحمل الصناجق على رأسه، وذلك في الرابع عشرين ذي الحجة، فلما رأى أهل قونية(٢) ما فعلوه حملتهم المحبة في آل سلجوق على متابعتهم، ثم نازلوا القلعة، فامتنع من فيها من تسليمها، فحاصروها، ثم تقرر بينهم الصلح على تسليمها ويعطى من فيها سبعون(٣) ألف درهم، فدخلوها وأجلسوا علاء الدين فيها على تخت الملك، ثم بلغ ابن قرمان والتركمان أن تاج الدين محمداً، ونصرة الدين محمود، ابنا الصاحب فخر الدين خواجا علي، قد حشدا وقصداهم، فسار [ابن قرمان](٤) إليهما وعلاء الدين معه، فالتقوا على آمد شهر، فكسرها وقتلهما، وقتل خواجا سعد الدين يونس بن سعد الدين المستوفي صاحب أنطاكية، وهو خال معين الدين البرواناه، وقتلوا جلال الدين خسرو بك ابن شمس الدين يوناس بكلارتكسي(٥)، وأخذوا رؤوسهم وعادوا بهم إلى قونية في آخر ذي الحجة. واستمروا بقونية إلى أن دخلوا(٦) سنة ست وسبعين وستمائة(٧)، فبلغهم أن أبغا وصل بعد خروج الملك الظاهر من الروم إلى مكان الوقعة، فرحلوا عن قونية إلى جبالهم. وكانت مدة مقامهم بقونية سبعة وثلاثين يوماً.

ذكر وصول أبغا إلى بلاد الروم ومشاهدته مكان(٨) الوقعة وما فعله بأهل الروم من القتل والنهب

كان البرواناه معين الدين لما تمت الهزيمة على التتار وعليه، قد كتب إلى أبغا يستنصر به ويستحثه على الوصول إلى بلاد الروم، فتوجه أبغا إلى الروم، ولما شارف

---

(١) في الأصل: «فيأخذوه». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم. وهي موضع مدينة القيروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٥.

(٣) في الأصل: «سبعون».

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٢.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) هكذا في الأصل. والصواب: «دخلت».

(٧) الموافق: ١٢٧٧ م.

(٨) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٣.

البلاد خرج إليه البرواناه بمن معه، وتوجه في خدمته بالعساكر إلى أن وصل البلستين، ووقف على موضع المعركة، فتأسف على المغل وبكى، ثم قصد منزلة السلطان الملك الظاهر، فقاسها بعصا الدبوس فعلم عدة من كان نازلاً بها من العساكر وأنكر على البرواناه كونه لم يُعرفه جلية حال العسكر، فاعتذر بأنه[١] ما علم بذلك، وأن العسكر حضر بغتة، فلم يقبل عذره. وكان الأمير عز الدين أيبك الشيخ في خدمة أبغا، فقال له: «أرني مكان الميمنة والقلب والميسرة» فأقام[٢] له في كل منزلة رمحاً، فلما رأى بعد ما بين الرماح قال: «ما هذا العسكر الذي حضر معي يكفي هؤلاء»؟ وكان في خدمته من عسكره ثلاثون[٣] ألف، وكان قد سيرهم إلى الشام فأعادهم من كينوك، وتوجه إلى قيسارية وسأل أهلها فقال: «هل كان مع صاحب مصر جمال»؟، فقالوا: «لم يكن معه إلا خيل وبغال»، فقال: «هل نهب منكم شيئاً»؟، قالوا: «لا، إلا مشترى بالذهب»، فقال: «منذ كم فارقكم»؟ قالوا: «منذ خمس وعشرين يوماً»، فقال: «هم الآن عند جمالهم»[٤]. ثم عزم على قتل من بقيسارية من المسلمين، فاجتمع إليه القضاة والفقهاء، وقالوا: «هؤلاء رعية ولا طاقة لهم بدفع عسكر إذا نزل عليهم، وهم مع الزمان عبيد من ملك»، فلم يرجع إلى ذلك، وأمر بقتل جماعة من أهل البلد، وقتل قاضي القضاة جلال الدين حبيب، وأمر عسكره أن يبسط في المملكة الرومية، فقتل من الرعايا ما يزيد على مائتي ألف، وقيل بلغت عدة من قتل من الرعايا والفلاحين وغيرهم خمسمائة ألف من قيسارية إلى أرزن الروم، [ولم يقتل أحداً من النصارى][٥]، ثم عاد أبغا إلى الأردو، وكان من خبر قتل البرواناه معين الدين ما قدمناه.

نعود إلى سياقة أخبار السلطان الملك الظاهر

قد قدمنا أن السلطان نزل بالقرب من حارم، وعيّد عيد الأضحى هناك، وحضر إلى خدمته أمراء بني كلاب، ثم نزل السلطان بالقرب من أنطاكية في مروجها، ورحل إلى دمشق، فكان دخوله إليها في خامس المحرم سنة ست وسبعين وستمائة[٦] وقيل في سابعه.

---

(١) في الأصل: «أنه». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في الأصل: «فقام». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) في الأصل: «ثلاثين». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) هكذا في الأصل.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٣.
(٦) الموافق: ١٢٧٧ م.

قال المؤرخ: كان السلطان لما توجه إلى الروم كلف أهل دمشق جباية مال بسبب إقامة الخيل، فحضر إليه الشيخ محيي الدين النواوي وكلمه في ذلك بكلام خشن، فلاطفه السلطان، وقال له: «يا سيدي: مد يدك أعاهدك أنني متى كسرت العدو في هذه السفرة أبطل الجباية ويكون خاطرك معي»، فعاهده على ذلك. فلما فتح البلاد وكتب إلى الشام بالبشارة، كتب إلى الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي، شاد الدواوين بدمشق، كتاباً مضمونه: أنه لا يحل ركاباً إلا وقد استخرجت من أهل دمشق مائتي ألف درهم، ومن برّها ثلثمائة ألف درهم، ومن قراها ثلثمائة ألف درهم، ومن البلاد القبلية تكملة ألف ألف درهم، فتبدّل فرح أهل الشام لذلك حزناً، وتمنوا زوال الدولة، فما كملت خباية نصف المال حتى مات السلطان.

واستهلت سنة ست وسبعين وستمائة[١]

ذكر وفاة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي رحمه الله تعالى

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: ودخل السلطان دمشق في خامس المحرم وقد رنّح النصر أعطافه، وروى من دماء الأعداء أسيافه، وقدامه مقدمو التتار قد ركبوا وهم في القيود عوض شهب الجياد، وبعد أن كانوا مقترنين صاروا مقرنين في الأصفاد. ونزل بقصره في الميدان الأخضر، معتقداً أن الدنيا في يده قد حصلت، والبلاد التي حلها ركابه عنه انفصلت، وأن سعده استخلص له الأيام وأصفاها، والممالك شرقاً وغرباً لو لم يكن بها غيره لكفاها، وإذا بالمنية قد أنشبت أظفارها، والأمنية وقد وضعت حوبها [و][٢]أوزارها، والعافية وقد شمّرت الذيل، والصحة وقد قالت لطبيه: «أهلك والليل»، ورماح الخط وقد قالت لأقلام الخط: «أصبت في لبس الحداد من المداد»، والقلوب وقد قالت عند شق الجيوب: «نحن أحق منك بهذا المراد»، والحصون وقد قالت لقصره الأبلق: «ما كان بناؤك على هذه الصورة إلا فألا بما تسود الجدران به عند الفجائع من السواد».

قال: وكان ابتداء مرضه الذي اعتل به الوجود، وتباشرت به الأكفان واللحود: ليلة السبت خامس عشر المحرم. فإنه ركب وقت العصر من يوم الجمعة رابع عشرة وكأنه مودع لأخدانه ورؤية موكبه وركوب حصانه، ونزل والتاث جسمه بعض التياث،

(١) يوافق أولها يوم الجمعة ٤ يونيه/ حزيران ١٢٧٧ م.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

وأصبح وليس عنده ذلك الانبعاث. فلما انقضت مدة أجله، وانطوت صحيفة عمله، قبض الله روحه الزكية، ورجعت إلى ربها راضية مرضية، وذلك بعد الزوال من يوم الخميس سابع عشرين المحرم سنة ست وسبعين وستمائة[١].

وكأن نفوس العالم كانت نفساً، وأنزل الله السكينة فلا تسمع إلا همساً، واستصحبت مهابته السكون وخادعت العقول حتى أن ما كان[٢] من وفاته كاد كل يحلف أنه ما يكون.

وحمل في محفة إلى قلعة دمشق في تلك الليلة، وسكنت الشفاه والألسنة، وتناومت العقول من غير نوم ولا سنة. وجُعل في بعض القاعات بالقلعة على سرير يومأ إليه بالترحم والسلام، ولا يزوره غير الملائكة الكرام.

قال المؤرخ: وتولى غسله وتحنيطه وتصبيره وتكفينه المهتار شجاع الدين عنبر، والفقيه كمال الدين الإسكندري المعروف بابن المنبجي، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، ثم جعل في تابوت وعلق في بيت من بيوت قاعة البحرة بقلعة دمشق. وكانت مدة مرضه، رحمه الله تعالى، ثلاثة عشر يوماً، وهي مدة مرض الشهيد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله تعالى.

وأول ما فتحه السلطان بنفسه: قيسارية الساحل، وآخر ما فتحه قيسارية الروم، واستمر بقلعة دمشق إلى أن ابتاع ولده السلطان الملك السعيد دار العقيقي بدمشق بستين ألف درهم، وحصل الشروع في عمارتها ووضع الأساس في يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة من السنة. وكانت النفقة على العمارة من ريع أملاكه، وحمل إليها ليلة الرغائب الخامس من شهر رجب سنة ست وسبعين وستمائة[٣]، [و][٤] بعد أن صلى عليه في صحن جامع دمشق ليلاً، أدخل من باب البريد وخرجوا به من باب النطاقين إلى تربته وتولى حمله الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام والأمير عز الدين الداودار والطواشي صفي الدين جوهر الهندي، وألحده القاضي عز الدين الشافعي.

ولما تمت له سنة من يوم وفاته عملت له الأعزية بالقرافتين[٥]، ومدت الأسمطة للقراء والفقراء وفرقت على الزوايا، وحضر الناس على اختلاف طبقاتهم. وقرىء له

---

(١) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٢) في الأصل: «ما كانت».
(٣) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٥) هكذا في الأصل.

عدّة ختمات، وعمل له بعد ذلك عدة أعزية بمدرسة الشافعي، والجامع الطولوني، والجامع الظاهري، والمدارس الظاهرية، والصالحية، ودار الحديث الكاملية، والخانقاه الصلاحية، والجامع الحاكمي، وعمل للتكازرة خوان حضره جماعة من الفقراء والصالحين.

مدة حكمه

وكانت مدة ملكه، رحمه الله تعالى، سبع[١] عشرة سنة وشهرين واثني عشرة يوماً. وكان له من الأولاد: السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد قاءان بركة، وأمه ابنة الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمي، والملك المسعود نجم الدين الخضر، والملك العادل بدر الدين سلامش، وسبع بنات[٢].

وتزوج أيضاً ابنة الأمير سيف الدين نوكبة[٣] التتاري، وابنة الأمير سيف الدين كراي التتاري، وابنة الأمير سيف الدين تماجي التتاري، وامرأة شهرزورية تزوجها لما قدم غزة وحالف الشهرزورية، ثم طلقها لما ملك الديار المصرية.

نائبه: مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار.

وزراؤه: الصاحب زين الدين بن الزبير مدة يسيرة. ثم استوزر بعده الصاحب بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن حنا.

قضاته: وقد تقدم ذكر قضاته في أخبار دولته.

---

(١) في الأصل: «سبعة عشر سنة».

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤٠ ـ ٦٤١.

(٣) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٦٤٠: «نوكلي».

ذكر أخبار السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قاءان[1] ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار الصالحي وهو الخامس من ملوك دولة الترك

ملك الديار المصرية والبلاد الشامية، بعد وفاة والده السلطان الملك الظاهر، في يوم الخميس سابع عشرين المحرم سنة ست وسبعين وستمائة[2]، وكان ولي عهد أبيه، على ما قدمناه في أخبار الدولة الظاهرية، في يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة اثنتين وستين وستمائة[3]، وجُدّد له الحلف، في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة[4].

قال: ولما توفي السلطان بدمشق كان الملك السعيد بمصر، وكان الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة وأكابر الأمراء قد أخفوا موت السلطان[5]. وكتب الأمير بدر الدين بيليك الخزندار إلى الملك السعيد كتاباً بخطه يخبره بوفاة السلطان، ويعلمه بما دبره من كتمان ذلك إلى أن يصل بالعساكر والخزائن إلى خدمته، وسأله كتمان الحال إلى أن يصل إليه، وسير إليه المطالعة على يد الأمير بدر الدين الجوكان دار الحموي، والأمير علاء الدين أيدغمش الحكمي الجاشنكير، فلما وصلا بالمطالعة وأنهيا ما معهما من المشافهة خلع عليهما وأنعم على كل منهما بخمسة آلاف درهم، وأظهر أن ذلك بسبب بشارتهما بعود السلطان إلى دمشق. ثم ركب الأمراء في بكرة يوم السبت تاسع عشرين الشهر على العادة إلى سوق الخيل بدمشق.

ثم رحلوا من دمشق في صفر بالجيوش والعساكر، وبينهم محفة محمولة، وجماعة من المماليك السلطانية في خدمتها يظهرون أن السلطان الملك الظاهر فيها

---

(١) هكذا في الأصل. ويرد أيضاً: «قاآن». ويرد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤١ «قان».
(٢) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٣) الموافق: ١٢٦٣ م.
(٤) الموافق: ١٢٧٨ م.
(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤١.

وهو ضعيف، كل ذلك حفظاً للمهابة، وما زال الأمر كذلك إلى أن وصلوا إلى الديار المصرية، وكان وصول المحفة والأمراء إلى قلعة الجبل في يوم الخميس خامس عشرين صفر سنة ست وسبعين وستمائة[١]، وسلم الأمير بدر الدين الخزندار الخزائن والعساكر للسلطان الملك السعيد، وأظهروا عند ذلك وفاة السلطان وحلف الناس للملك السعيد، واستقر له الملك وعمره يومئذٍ تسع عشرة[٢] سنة.

وكتب الملك السعيد إلى دمشق وسائر الممالك الشامية يخبر «النواب» بوفاة السلطان وسلطنته، ويطلب منهم اليمين، فوصل الأمر[٣] في البريد بذلك إلى دمشق في يوم الأحد ثالث عشر شهر ربيع الأول، فجمع النائب عن السلطنة بها وهو الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، الأمراء والمقدمين، وقرىء عليهم كتاب السلطنة فحلفوا، وحلف جميع العسكر والقضاة والأعيان، ثم رسم لمتولي دمشق أن يحلف أهل دمشق، فحلف أهل كل حارة بحضور عدلين، ورسم لمتولي البريد بذلك، فحلف أهل القرى والضياع، ودامت مدة الحلف بدمشق أحد عشر يوماً حتى كملت. ثم خلع على الأمراء والمقدمين والقضاة والأعيان والنظار وكتاب الإنشاء بدمشق في سادس عشر الشهر، وخلع على الأعيان والأكابر بالطرحات، وما كان قبل ذلك خلع بالطرحة، إلا على قاضي القضاة، وحلف أيضاً صاحب حماة وأهل بلده، ونائب حلب وأمراؤها وجندها وأهلها، وسائر الممالك الشامية لم يختلف منهم أحد ولا توقف عن اليمين.

ذكر وفاة الأمير بدر الدين بيليك الخزندار

كانت وفاته، رحمه الله تعالى، بقلعة الجبل في ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وستمائة[٤]، وذلك أنه لما وصل إلى خدمة السلطان الملك السعيد وقف وحلف الأمراء والخواص والأجناد وغيرهم للملك السعيد، فلما تكامل ذلك توجه إلى والدة السلطان زوجة مخدومه ليعزيها بالسلطان ويهنيها بسلطنة ابنها، فشكرت فعله وما اعتمده من حق ولدها من حفظ السلطنة عليه، ثم أخرجت له هناباً فيه مشروب، وقالت له: «أشرب هذا فإنك قد تعبت في هذا اليوم وما أكلت شيئاً». فقال لها: «والله لي ثلاثة أيام ما آكل في كل يوم نصف أوقية طعام خوفاً على السلطان الملك السعيد، ولم أزل أداري الأمراء منذ وفاة السلطان إلى أن كمل هذا الحلف

(١) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٢) في الأصل: «تسعة عشر». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) في الأصل: «الأمراء». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) الموافق: ١٢٧٧ م.

المبارك». وتناول الهناب وشرب منه جرعتين وأعاده في الثالثة لكثرة إلحالحهم عليه، وتوجه إلى داره فحصل له قولنج، وانقطع وتزايد به الأمر، فمات، رحمه الله تعالى. وهذا الفصل الذي دبرته والدة الملك السعيد من سوء التدبير وقبح المكافأة، فإنه وقع الخيال عندها وعند ابنها منه، ولعل هذا الخيال كان غير صحيح: فإنه أحسن السياسة وأجمل التدبير ووفى لمخدومه، وكان رحمه الله تعالى، تربية السلطان، اشتراه وهو مفردي ورباه من صغره، وكان خزنداره، ثم أستادداره في الإمرة، ونائبه في السلطنة وكانت مكانته عنده مكينة، يرجع إلى رأيه ويعتمد عليه في سائر أحواله ويثق بنصحه، وتمكن في الدولة الظاهرية تمكناً عظيماً، وكان له بالديار المصرية إمرة مائة فارس وبالشام إمرة خمسين فارساً، وجعل له السلطان عند زواجه بابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قلعة الصبيبة وبانياس وأعمالها والشغر[1] وغير ذلك.

ولما مات وقعت الأوهام في نفوس الأمراء وتخيلوا، فإنهم علموا ما أسلفه المذكور من الخدمة للملك السعيد وحفظ الخزائن والعساكر، وأنه أدى الأمانة في طاعته.

واستناب السلطان بعد وفاته الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني الظاهري استاد الدار ونائب السلطنة بالديار المصرية في غيبة السلطان، وأقر الصاحب بهاء الدين على وزارته.

وركب السلطان في يوم الأربعاء سادس عشر شهر ربيع الأول بشعار السلطنة والأمراء في خدمته، وتوجه صوب الجبل الأحمر، وذلك أول ركوبه، وخلع على الأمراء والأعيان.

ذكر القبض على من يذكر من الأمراء والإفراج عنهم ومن مات منهم

كان من سوء التدبير الذي اعتمده السلطان الملك السعيد: أنه قبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي في يوم الجمعة حادي عشرين شهر ربيع الأول، واعتقلهما بقلعة الجبل، وكانا من أكبر الأمراء، وأخصّهم بصحبة السلطان والده، فتغيرت لذلك قلوب الأمراء، ثم اجتمع مماليكه ومماليك الأمير بدر الدين بيليك الخزندار، وحسنوا له القبض على نائبه الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني، واستعانوا بالأمير سيف الدين كوندك الساقي، وأمسكوه وهو جالس

---

(١) الشغر: قلعة حصينة قرب أنطاكية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٢.

عند باب[١] القلعة وسحبوه إلى الدور وضربوه ونتفوا لحيته، وذلك في يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واعتقل فلم يلبث إلا قليلاً ومات.

ثم أفرج عن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسري في يوم السبت ثاني جمادى الأولى وخلع عليهما وأعادهما إلى ما كانا عليه.

ثم قبض على خاله الأمير بدر الدين محمد بَيْ ابن الأمير حسام الدين بركة خان في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة، واعتقله بقلعة الجبل، فغضبت أخته والدة السلطان لذلك، وأنكرته على ابنها، فأفرج عنه في ليلة الثلاثاء خامس عشرين الشهر وخلع عليه وأعاده إلى ما كان عليه. وشرع في خلال ذلك في تقديم مماليكه وترجيحهم وسماع آرائهم.

قال: ولما صدرت منه هذه الأفعال اجتمع الأمراء وتشاوروا، وقصدوا أن يتوجهوا إلى الشام، ثم رجعوا عن ذلك وبعثوا إلى السلطان وقد اجتمعوا في يوم خميس، وامتلأت بهم القلعة، وأنكروا فعله، وحذروه عاقبة ما يطرق إليه، فلاطفهم وحلف لهم أنه لا يريد بهم سوءاً، وتولى الأمير بدر الدين الأيدمري اليمين، فسكنت خواطرهم، واستقر الحال مدة لطيفة.

وكان السلطان لما قبض على الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني رتب في النيابة بعده الأمير شمس الدين آقسنقر الألفي المظفّري، فلم يرضه الخاصكية لأنه غير ظاهري. واتفق أنه ولي خوشداشة الأمير علم الدين سنجر المظفّري، المعروف بأبي خرص، نيابة المملكة الصفدية، وزاده على إقطاع النيابة نواحي من الخاص السلطاني، وهي أريحا وكفرين ونمرين من الغور، فأوهموا السلطان منه وزعموا أنه يقصد إقامة المظفّرية ولا تؤمن غائلته، فعزله عن قريب، وولى الأمير سيف الدين كوندك الساقي نيابة السلطنة [لأنه رُبي معه في المكتب][٢] وقيل إن ولايته كانت في سنة سبع وسبعين [وستمائة][٣]. ولما فوضت إليه النيابة أمر الوزير الصاحب بهاء الدين أن يجلس بين يديه وألا يوقع إلا بأمره.

وتقدم من المماليك السعيدية الأمير حسام الدين لاجين الزيني، وانضم إليه

---

(١) باب القلعة: كان هذا الباب أحد الأبواب الصغرى بداخل قلعة الجبل. ويتوصل إليه من الباب المدرج. وهو أعظم أبواب القلعة. وموقعه في أول الجانب الشرقي منها باتجاه القاهرة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٠٤، ٢١٢.

(٢) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤٤.

(٣) الموافق: ١٢٧٨ م.

الخاصكية، وقويت شوكته وأخذ لخوشداشيته الإقطاعات، ونافس النائب. فضم النائب إليه الأمراء الأكابر، ومال إليهم واستجلبهم، هذا كله في سنة ست وسبعين وستمائة[١]، وبعضه في سنة سبع على ما قيل.

وفي سنة ست وسبعين وستمائة أيضاً في يوم السبت سابع ذي القعدة: برز السلطان الملك السعيد بالعساكر إلى منزلة مسجد التبر[٢] لقصد الشام، ثم انتقل بخواصه من هذه المنزلة في يوم السبت حادي عشر الشهر ونزل بالميدان السعيدي وعادت العساكر إلى منازلهم وبطلت الحركة.

وفيها: في شهر رمضان طلعت سحابة عظيمة بصفد، لمع[٣] منها برق عظيم خارق، وسطع منها لسان كالنار، وسمع صوت رعد هائل، ووقع على منارة جامعها صاعقة شقت المنارة من رأسها إلى أسفلها شقاً يدخل فيه الكف.

وفيها: سأل قاضي القضاة صدر الدين سليمان [بن أبي العز][٤] الحنفي أن يؤذن له في الإقامة بدمشق مدرساً ومجاوراً لتربة السلطان، فأذن له، فأقام بدمشق. وفوض قضاء الحنفية بالديار المصرية لنائبه القاضي معز الدين.

ذكر عزل قاضي القضاة محيي الدين عبد الله بن محمد بن عين الدولة وإضافة عمله إلى قاضي القضاة تقي الدين بن رزين[٥]

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة من هذه السنة، عزل القاضي محيي الدين أبو الصلاح عبد الله ابن[٦] قاضي القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة الصفراوي عن القضاء بمصر والوجه القبلي. وسبب ذلك أنه كان قد حصل له فالج منذ خمس سنين، فأقعد وعجز عن الكتابة، وكان يعلّم عنه كاتب الحكم، فعزل الآن. وأضيفت ولايته إلى القاضي تقي الدين بن رزين، وعطل القاضي محيي الدين وانقطع بمنزله إلى

---

(١) الموافق: ١٢٧٧ م.

(٢) في الأصل: «التبن». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦٨٤. ويقع هذا المسجد خارج القاهرة مما يلي الخندق، عُرف قديماً بمسجد البئر ومسجد الجميزة. وتسميه العامة مسجد التبن، وهو خطأ. و«تبر» هذا أحد الأمراء الأكابر في أيام كافور الإخشيدي. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤١٣.

(٣) في الأصل: «بلغ».

(٤) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤٨.

(٥) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٤٧.

(٦) في الأصل «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

أن مات، وكانت وفاته بمصر في رابع شهر رجب، وقيل في خامسه من سنة ثمان وسبعين وستمائة[١] رحمه الله تعالى.

وفيها: فوض السلطان الملك السعيد قضاء القضاة بدمشق والشام أجمع من العريش إلى سلمية لقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان الشافعي، وعزل القاضي عز الدين بن الصايغ، وتوجه القاضي شمس الدين إلى دمشق في سابع وعشرين ذي الحجة، فوصل إليها في ثالث عشرين المحرم، وخرج الناس للقائه إلى غزة. ومنهم من وصل إلى الصالحية، وكانت الشفاعة قد قويت بولايته قبل وقوعها.

وفيها: كانت وفاة قاضي القضاة الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي، في يوم السبت، ثاني عشرين المحرم سنة ست وسبعين [وستمائة][٢]، ودفن يوم الأحد بتربة عمه الحافظ عبد الغني. وكان مولده في يوم الأحد رابع عشر صفر سنة ثلاث وستمائة بدمشق[٣]، ولما أفرج عنه بعد القبض عليه كما تقدم، لزم بيته بالمدرسة الصالحية وتوفر على اشتغال الطلبة إلى أن توفي. وكان كريماً سمحاً كثير العبادة والذكر، وولي أيضاً مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقاهرة، رحمه الله تعالى

ذكر وفاة الشيخ خضر وشيء من أخباره[٤]

وفي سابع المحرم سنة ست وسبعين وستمائة: كانت وفاة الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى العدوي المهراني شيخ الملك الظاهر في معتقله بقلعة الجبل، ودفن بسفح المقطم.

وقد حكى الشيخ شمس الدين محمد بن مجد الدين إبراهيم الجزري في تاريخه، «حوادث الزمان وأنبائه»، مبدأ أمره، وكيف تنقلت به الحال، فقال: كان في مبدأ أمره يخدم الأكابر ببلد الجزيرة، ثم استخدم لِشَيْلِ زبائل دور السلطنة والقلعة بجامكية وجراية. ثم ذكر عنه أنه أفسد بعض جواري الدور، فرسم بخصيه، فهرب إلى حلب، وخدم باباً عند ابن قراطابا فأحبل جارية، فطلب فهرب إلى دمشق، والتجأ إلى الأمير ضياء الدين القيمري، وأقام بمغارة في زاويته بجبل المزة، فيقال إنه اجتمع بجماعة من الصالحين وبشروه بما يكون منه ومن السلطان الملك الظاهر. واتفق اجتماع الملك

---

(١) الموافق: ١٢٧٩ م.
(٢) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٣) الموافق: ١٢٠٦ م.
(٤) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، وفيات عام ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م.

الظاهر به في مدة مقامه بدمشق في خدمة الملك الناصر فبشره بالملك. وكان الشيخ خضر قد احتوى على عقل الأمير سيف الدين قشتمر العجمي أحد الأمراء البحرية، فكان يخبره بسلطنة الملك الظاهر قبل وقوعها، ويخبره بأكثر ما وقع، ثم اجتمع به الأمير سيف الدين إيتامش السغدي، فأخبره أيضاً بخبر الملك الظاهر، ثم كان من سلطنة الملك الظاهر ما قدمناه، وصار هو في صحبة قشتمر العجمي، وخرج معه عند خروج السلطان إلى الشام بسبب الملك المغيث صاحب الكرك، فلما نزل السلطان على الطور سأل عنه الأمير سيف الدين قشتمر العجمي، فأخبره أنه قد انقطع في مغارة عند قبر أبي هريرة، رضي الله عنه، فتوجه السلطان إليه واجتمع به، فأخبره بوقائع كثيرة لم يخرم[1]، فاغتبط به ولازمه، وبقي السلطان إذا حاصر بلداً من البلاد الساحلية والجبلية يخبره الشيخ بما يكون من أمره فيها، وبالوقت الذي يفتح فيه، فلا يخرم ذلك. ولما قصد السلطان أن يتوجه إلى الكرك في سنة خمس وستين وستمائة[2] استشاره في ذلك فأشار عليه ألا يتوجه إليها في هذه السفرة، وأن يتوجه إلى الديار المصرية فخالفه وتوجه إليها، فانكسرت فخذه ببركة زيزا قبل وصوله كما قدمنا ذكر ذلك. ولما رأى السلطان ذلك منه عظم عنده وبنى له زاوية بظاهر القاهرة بالحسينية بجوار أرض الطبالة، ووقف عليها أحكاراً بجملة كثيرة، وبالقدس زاوية، وبدمشق زاوية بالمزة، وببعلبك زاوية، وبحماة زاوية، ثم هدم كنيسة اليهود بدمشق، وهي الكنيسة العظمى عندهم، وجعلها زاوية كما تقدم، وهدم كنيسة النصارى بالقدس، وقتل قسيسها بيده وعملها زاوية، وهدم كنيسة الروم بالإسكندرية، وهي كرسي كنائسهم يعقدون فيها البتركية، ويزعمون أن رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام فيها[3]، وهو عندهم يحنا المعمداني الذي عَمَّد المسيح ابن مريم، وجعلها مسجداً وبنى فيها المحاريب وسماها المدرسة الخضراء، وفتح لها شباكاً إلى الطريق، ورتب فيها فقراء من جهته، وكذلك في جميع زواياه: جعل بكل زاوية منها فقراء يقطعون المصانعات ويحمون أرباب الجرائم من اللصوص وغيرهم، ويتعاطون الفسق.

قال: ولقد سأله مرة والدي إبراهيم فقال: «يا أخي، أشتهي أعرف كيف كان سبب وصلتك إلى هذه المنزلة»؟، فقال له: «والله لا أقول لك حتى تقول لي الذي تعرف مني»، فقال له: «أعرفك شيخ نحس، نفوك من الجزيرة ثم من حلب ومن

---

(١) هكذا في الأصل بالعامية بمعنى الخطأ في التقدير.

(٢) الموافق: ١٢٦٦ م.

(٣) في في الأصل: «فيهما». والتصحيح يقتضيه السياق.

دمشق، وما رأيتك إلا وقد صرت في هذه المنزلة»، فقال: «والله العظيم صدقت، وما صدقني أحد في الحديث إلا أنت يا أخي، لما هربت من الجزيرة طلعت إلى جبل الجودي، فبقيت أحتطب في كل يوم جرزة[1] حطب أبيعها بدرهم ونصف، فلما كان في بعض الأيام إذا أنا بفقير عريان ليس عليه لباس، وقد أنبت الله له شعراً على جسده، يستر عورته، فقال لي: «يا خضر، ايش تعمل»؟ قلت: «أحتطب» فقال: «تعال غداً إلى هذا المكان وخذ منه جرزتين حطب، بع الواحدة لنفسك والأخرى اشتر لي بثمنها موسى ومقصاً ومشطاً». فقلت: نعم. فلما كان الغد قصدت ذلك المكان، فوجدت به جرزتين حطباً، فبعت إحداهما واشتريت له ما طلب، وبعت الأخرى لنفسي، فلما اجتمعت به قال لي: «اذهب إلى الشام، فسوف يكون لك ذلك مع ملكه شأن عظيم». فقدر الله تعالى أنني سكنت هذه المغارة بالمزة، فحصل لي اجتماع بالسلطان الملك الظاهر لما كان في خدمة الملك الناصر، وفتح عليّ بأن بشرته بالملك، فلما ملك كان سبب الوصلة بيني وبينه الأمير سيف الدين قشتمر العجمي. قال: «وكان ذلك الفقير قد أخبرني بجميع ما يقع لي في عمري وبجميع ما يقع للسلطان واقعة بعد أخرى».

قال: قال والدي: وكان في ذلك الوقت قد حصل لي وجع في ظهري، فقلت له: إن ظهري يؤلمني فمسح بيده على ظهري، فسكن الوجع، فقال: «يا مجد الدين، سكن الوجع أم لا»؟. قال: فقلت: أما الوجع فقد سكن، وأما أنني أعتقد أنك رجل صالح فلا، وإنما هذا من جملة السعادة التي حصلت لك. ثم كان من قبض السلطان عليه واعتقاله ما تقدم ذكره، ولم يزل في اعتقاله إلى أن مات. قال: ولما عاد السلطان من غزاة الروم إلى دمشق كتب بإطلاقه فورد البريد بعد وفاته.

وكان واسع الصدر كريم النفس، يُعطي الدراهم والذهب الكثير، ويصنع له الطعام في قدور كبيرة مفرطة في الكبر، وكانت أحواله غير متناسبة والأقوال فيه مختلفة، فمن الناس من يثبت صلاحه، ومنهم من يرميه بالعظائم، وكان يكتب إلى صاحب حماة وغيره من الأمراء في أوراقه إليهم: خضر نياك الحمارة، وكتب بذلك إلى قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ورقة، فأغضى عنها، ثم أخرى كذلك، فلما وصلت إليه الورقة الثالثة أحضر رسوله وقال له: «قل له، والله لئن وصل إليّ ورقة منه بعد هذه فيها مثل هذا: أحضرته إلى مجلس الحكم وقابلته بما يستحقه بمقتضى ما كتب به خطه»، فامتنع بعد ذلك من مكاتبته. ومات وله نيف وخمسون سنة، وكان ربع

---

(١) الجرزة: الحزمة. انظر القاموس المحيط للفيروزابادي، مادة: جرز.

القامة، كث اللحية، في لسانه عجمة، سامحه الله وإيانا.

وفيها: كانت وفاة الأمير جمال الدين أقش المحمدي الصالحي بالقاهرة في ليلة الخميس ثالث عشر ربيع الأول، ودفن من الغد بتربته بالقرافة الصغرى، وقد ناهز سبعين سنة. وكان السلطان قد نقم عليه وحبسه مدة ثم أفرج عنه وأعاده إلى الإمرة، وكان رحمه الله تعالى عديم الشر.

وفيها: توفي الأمير عز الدين أيبك الدمياطي الصالحي النجمي أحد الأمراء الأكابر المقدمين. وكان السلطان الملك الظاهر قد اعتقله كما تقدم ثم أفرج عنه، وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأربعاء تاسع شعبان، ودفن بتربته التي أنشأها بين القاهرة ومصر، المجاورة لحوض السبيل المعروف به، وقد ناف على سبعين سنة، وكان كريماً جداً، له مروءة تامة، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الأمير عز الدين أيدمر العلائي، وكان ينوب عن السلطنة بقلعة صفد، فجرى بينه وبين النواب مفاوضة أدت إلى أن طلب الدستور من السلطان لينهي مصالح، فأذن له فحضر إلى الديار المصرية فأدركته منيته، فتوفي في ليلة الأربعاء سابع عشر شهر رجب، ودفن في يوم الأربعاء بالقرافة الصغرى. وكان عفيفاً أميناً محباً للعلماء والفقراء، وهو أخو الأمير علاء الدين أيدكن الصالحي العمادي، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الأمير شمس الدين بهادر المعروف بابن صاحب صهيون، وكان قد قدم إلى خدمة السلطان الملك الظاهر قبل وفاته بثلاث سنين، فأحسن إليه وأكرمه، وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأحد العشرين من شعبان، ودفن من الغد بتربته التي أنشأها خارج باب النصر، وقد ناف على أربعين سنة، رحمه الله تعالى.

وفيها: كانت وفاة الملك القاهر بهاء الدين أبي محمد عبد الملك ابن[(١)] الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، فجأة في يوم السبت خامس عشر المحرم من غير مرض، بل كان راكباً بسوق الخيل بدمشق فاشتكى ألماً في فؤاده، فعاد إلى منزل[(٢)] كريمته زوجة الملك الزاهد مجير الدين داود بن صاحب حمص، فأدركته منيته، فمات عند دخوله إليها، وقيل: إنه مات في باب الدار قبل الدخول إليها، ودفن بسفح قاسيون. وكان مولده في سنة اثنتين وعشرين وستمائة[(٣)]، وكان رحمه الله تعالى رجلاً جيداً شجاعاً بطلاً مقداماً،

---

(١) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في الأصل: «منزله».

(٣) الموافق: ١٢٢٥ م.

سليم الصدر حسن الأوصاف كريم الأخلاق، لين الكلمة كثير التواضع، حسن الاعتقاد في الفقراء والصالحين، وكان يلبس ملابس العرب ويتزيا[١] بزيهم ويركب كمركبهم ويتخلق بأخلاقهم في كثير من أفعاله، رحمه الله.

وقد حكى الشيخ قطب الدين اليونيني، نفع الله به، في تاريخه، في سبب وفاته، قال: حكى لي تاج الدين نوح ابن[٢] شيخ السلامية حكاية غريبة معناها: أن الأمير عز الدين أيدمر العلائي نائب السلطنة بقلعة صفد حدثه بها، قال: كان السلطان الملك الظاهر مولعاً بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم، فأخبر أنه يموت بدمشق في هذه السنة، سنة سبع وستين وستمائة[٣] بالسم ملك[٤]، فحصل عنده من ذلك أثر كبير. قال: وكان الملك الظاهر عنده حسد شديد لمن يوصف بالشجاعة أو بذكر جميل، ولما دخل[٥] الملك القاهر إلى الروم صحبة السلطان، ظَهَر يوم المصاف عن شجاعة، وظهرت نكايته في العدو حتى تعجب من فعله من شاهده، ورآه الملك الظاهر فتأثر منه، وانضاف إلى ذلك أن السلطان حصل منه في ذلك اليوم فتور على خلاف عادته، وظهر عليه الندم كونه تورط في بلاد الروم - بكلمة الملك القاهر في ذلك الوقت - بكلام فيه إشارة إلى الإنكار وتقبيح فعله، فأثر ذلك عنده أثراً آخر، فلما عاد من غزاته وسمع الناس يلهجون بما فعله الملك القاهر تأثر من ذلك أيضاً، وتخيل في ذهنه أنه إذا سَمّه فمات هو الذي ذكره أرباب النجوم لأنه يطلق عليه اسم ملك وله ذكر، فأحضره السلطان عنده لشرب القمز، وأعد له سماً في ورقة وجعلها إلى جانبه، من غير أن يطلع على ذلك أحداً، وللسلطان هنابات ثلاثة تختص به مع ثلاثة من سقاته، لا يشرب فيها غيره إلا من يكرمه ويناوله أحدها من يده، واتفق قيام الملك القاهر لقضاء الحاجة، فجعل السلطان ما في الورقة في هناب وأمسكه بيده، فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه فقبل الأرض وتناوله وشرب ما فيه. وقام الملك الظاهر لقضاء الحاجة فأخذ الساقي الهناب من يد الملك القاهر وملأه على العادة وهو لا يشعر بما وضعه السلطان فيه، فلما عاد السلطان تناول ذلك الهناب، فشرب ما فيه وهو لا يظن أنه الذي جعل فيه ما جعل، فلما شربه أحس واستشعر وعلم أنه قد شرب من ذلك الهناب الذي فيه آثار السم، وبقاياه وتخيل وامتد به المرض ومات كما تقدم. وأما الملك

---

(١) في الأصل: «يتزايا». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) الموافق: ١٢٦٨ م.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٥.
(٥) في الأصل: «داخل».

القاهر فمات من غد ذلك اليوم. وذكر الأمير عز الدين العلائي أنه بلغه ذلك من مُطلع لا يشك في أخباره، والله تعالى أعلم[١].

وفيها: قتل الأمير عز الدين أيبك الموصلي الظاهري، كان نائب السلطنة بحمص ثم نقله السلطان إلى نيابة السلطنة بحصن الأكراد وما معه، وكان ذا صرامة ونهضة وذكاء ومعرفة، وكان يتشيع، قتل غيلة ليلة الأربعاء سابع عشرين شهر رجب.

وفيها: كانت وفاة الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف الدين بن مري بن الحسن بن الحسين بن حرام بن محمد النواوي[٢] الشافعي. وكانت وفاته عند أبيه بنوى في يوم الأربعاء خامس عشر شهر رجب سنة ست وسبعين وستمائة[٣]، ومولده بنوى في سنة إحدى وثلاثين وستمائة[٤]، فيكون مدة عمره خمساً[٥] وأربعين سنة تقريباً. وكان رحمه الله تعالى كثير الورع والزهد واسع العلم له مصنفات مشهورة مفيدة منها: كتاب الروضة في الفقه؛ عليه تعتمد الشافعية وبه يحتجون غالباً، وشرح مسلم، ورياض الصالحين، وكتاب الأذكار، وشرح التنبيه، ومات قبل أن يكمله. ولم يكن في زمانه مثله في ورعه وزهده، وكان لا يأكل إلا مما يأتيه من جهة أبيه من نوى، فكان يخبز له الخبز بها ويُقمّر ويرسل إليه فيأكل منه، وما كان يجمع بين إدامين، فيأكل إما الدبس أو الخل أو الزيت أو الزبيب، ويأكل اللحم في كل شهر مرة. وكان يتولى دار الحديث الأشرفية، فيجمع المباشر للوقف جامكيته بها، ثم يستأذنه فيما يفعل بها إذا اجتمعت، فتارة يشتري بها ملكاً ويوقفه على المكان، وتارة يشتري بها كتباً ويوقفها ويجعلها في خزانة المدرسة المذكورة. وكان لا يقبل لأحد هدية، ولا يأكل لأحد من أهل دمشق طعاماً ولا غيره، وكان رحمه الله تعالى يواجه السلطان الملك الظاهر بالإنكار عليه في أفعاله، ويلاطفه السلطان ويحمل جفوة كلامه ويخاطبه يا سيدي، رحمه الله تعالى. وعاش والده الحاج شرف بعده إلى سنة إحدى وثمانين فمات في سابع عشر صفر، وقيل: في سنة اثنتين وثمانين، ودفن بنوى، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٥ ـ ٦٣٦.

(٢) نسبة إلى نوى. ونوى: اسم لبلدتين، إحداهما من أعمال حوران، وبينها وبين دمشق منزلتان، والأخرى قرية من قرى سمرقند. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٦.

(٣) الموافق: ١٢٧٧ م.

(٤) الموافق: ١٢٣٣ م.

(٥) في الأصل: «خمسة».

واستهلت سنة سبع وسبعين وستمائة(١)

ذكر توجه السلطان إلى الشام وإقامته بدمشق وتجريد العساكر(٢)

في هذه السنة: توجه الملك السعيد إلى الشام وصحبته أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر، ووالدته ابنة الأمير حسام الدين بركة خان، واستصحب الأمراء والعساكر. وكان رحيله من قلعة الجبل في ذي القعدة، ووصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة من السنة. ولما رحل ركابه بدمشق أمر بإبطال الجبايات والمظالم التي كانت حدثت في الدولة الظاهرية، فاستبشر الناس بذلك.

ولما استقر السلطان بدمشق جرد العساكر المصرية والشامية، فجرد الأمير سيف الدين قلاون الألفي الصالحي في عشرة آلاف، وأمره أن يتوجه إلى جهة سيس، وجرد الأمير بدر الدين بيسري الشمسي في عشرة آلاف وأمره أن يتوجه إلى قلعة الروم، وأقام هو بدمشق في مماليكه وخواصه، ونائبه الأمير سيف الدين كوندك. وأقام بدمشق من الأمراء الأكابر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير علم الدين سنجر الحلبي، وكان السلطان قد أفرج عنه بعد وفاة والده الملك الظاهر وأحسن إليه.

قالوا: وأراد السلطان بتجريد الأمراء الأكابر وإبعادهم عنه أن يتمكن في غيبتهم من التدبير عليهم، وعزم أنهم إذا عادوا قبض عليهم وأقطع أخبازهم لمماليكه، وظن أن ذلك يتم له، والمقادير بخلاف ظنه. فتوجه الأمراء إلى الغزاة [وفي نفوسهم من ذلك إحن](٣)، وكان من أمرهم عند عودهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر أمر شاد الدواوين(٤)

وفي هذه السنة في رابع عشرين ذي الحجة: حصل بين الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي شاد الدواوين بدمشق، وبين نائب السلطنة بها، مفاوضة أدت إلى شكواه إلى السلطان، فانتصر الأمراء لنائب السلطنة، فرسم بتفويض شاد الدواوين بالشام إلى

---

(١) الموافق: ١٢٧٨ م.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤٩ - ٦٥٠.

(٣) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥٠.

(٤) شاد الدواوين: أقرب مرادف لهذا اللفظ كلمة تفتيش، ويسمى متولي هذه الوظيفة الشاد، مضافاً إليها جهة الاختصاص، مثل شاد الجوالي وشاد دار البطيخ والفاكهة، وشاد مراكز البريد وشاد الزكاة. وكان عمل شاد الدواوين بمصر أيام الأيوبيين والمماليك معاونة الوزير في مراقبة الحسابات ومراجعتها انظر: Demombynes: op. cit. index III.

الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وكان من جملة الأمراء بحلب، وخلع عليه وأقطع خبز الأقرعي، ونقل الأقرعي إلى حلب على إقطاع الدواداري.

وفي هذه السنة، في ليلة يسفر صباحها عن يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة وهي سنة سبع وسبعين وستمائة[١]: ولد مؤلف هذا الكتاب وجامعه[٢]، فقير رحمه ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم بن عبادة بن علي بن طراد بن خطاب بن نصر بن إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر بن هلال بن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق عبد الله ابن عتيق، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، وأبي أصحابه، وجد صاحبه، والخليفة من بعده، وهو ثاني اثنين ابن أبي قحافة عثمان، رضوان الله عليهم، بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، عرف مؤلفه بالنويري، عفا الله عنه ولطف به، وكان مولده بمدينة إخْميم[٣] من صعيد مصر في التاريخ المذكور.

وفي هذه السنة: كانت حوادث ووفاة جماعة من أرباب المناصب، وولاية غيرهم، نذكرها الآن في هذا الموضع. ولا نشترط في إيرادها الترتيب، بل نوردها بمقتضى المناصب، فمن ذلك:

[ذكر][٤] وفاة الأمير جمال الدين أقش النجيبي الصالحي

كانت وفاته بالقاهرة في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر. وكان يلي أستادارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وتولى أستادارية السلطان الملك الظاهر في ابتداء سلطنته، ثم نقله إلى نيابة السلطنة بالشام كما تقدم.

وكان رحمه الله تعالى، ديناً كثير الإحسان إلى الرعية والرفق بهم. وكان يكره السعاية في الناس، ومن سعى عنده بأحد أبعده، وكان يحب أهل الخير ويقربهم. وأنشأ

---

(١) الموافق: ١٢٧٨ م.

(٢) يبدو على أن نسخ هذه المخطوطة تم في حياة المؤلف النويري، حيث إنه ولد سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م. وتوفي سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م. انظر الصفحة الأولى من هذا الكتاب، وانظر سيرة حياته والتي كتبها بنفسه في هذه الصفحة، والصفحة التي تليها.

(٣) إخميم: بلد بالصعيد، يقع على شاطىء النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

بدمشق مدرسة للشافعية وخانقاه للصوفية على الميدان بالشُّرُف الأعلى، وخاناً للسبيل بميدان الحصا. ووقف بالديار المصرية وقفاً على المجاورين. ولم يرزق في عصره ولداً. وكان عظيم الشكل والخلقة، كبير البطن، جهوري الصوت، أكولاً، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الصاحب بهاء الدين

وفي هذه السنة: كانت وفاة الصاحب الوزير [الصاحب][١] بهاء الدين [أبو الحسن][٢] علي بن محمد بن سليم المعروف بابنِ حنا، بمصر وقت آذان العصر من يوم الخميس سلخ ذي القعدة. ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بتربته بالقرافة. ومولده بمصر في سنة ثلاث وستمائة[٣]، ومات وهو جد جد. وكان في ابتداء أمره في دكان يبيع الخام، ثم تنقلت به الأحوال وباشر في الديوان السلطاني حتى انتهى إلى هذه الغاية. وكان من رجال الدهر حزماً وعزماً وتدبيراً، وكتابةً وتحصيلاً للأموال، وقياماً بمصالح الدولة، وكان شديد الغيرة على منصبه، فإذا تعرض أحد من المتعممين المباشرين إلى الاجتماع بالسلطان عمل على إتلافه[٤]، وكذلك[٥] من يجتمع بأكابر الأمراء من هذه الطائفة، ويحسن إلى من يتصل بخدمته وخدمة أولاده، وينتمي إليهم ويقدمهم، وكان حسن الظن بالفقراء والمشايخ كثير الإكرام لهم.

ولا يمل من حوائجهم، ويتشفع الناس عنده بهم فلا يردهم، وكان أميناً في وزارته، ما تكلم عليه ولا على أولاده بخيانة وإنما كانوا كلهم يتجهون تجاه الغل[٦] ويزرعون فاتسعت بذلك أحوالهم وكثرت أموالهم، وعمروا الأبنية العظيمة والمساكن البديعة والمنتزهات، وعمر هو مدرسة بزقاق القناديل بمصر، ووقف عليها أوقافاً، وكان كثير الصدقة، والتزم صوم الدهر في وزارته، وكان يثيب الشعراء[٧] على مدائحهم، وامتدحه الشيخ رشيد الدين الفارقي فقال:

وقائل[٨] في الورى نبه لها عمرا فقلت إن علينا قد تنبه لي

ما لي إذا كنت محتاجاً إلى عمر من حاجة فليتم حسبي انتباه علي

---

(١)، (٢) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥١.

(٣) الموافق: ١٢٠٦ م.

(٤) في الأصل: «تلافة».

(٥) في الأصل: «وذلك».

(٦) الغل: أي الكسب.

(٧) في الأصل: «الشعر». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٨) في الأصل: «وقايل».

وكان متمكناً من السلطان الملك الظاهر، يصرح باعتقاد بركته، حتى رام جماعة من الأمراء الأكابر خوشداشية السلطان أذاه عند السلطان وذكر معايبه في أوقات، فكان السلطان إذا تنسم ذلك منهم أو من أحدهم بادره السلطان بذكر محاسنه وأنه في بركته، فيقف من يقصد أذاه عن ذلك. ولما مات وصل الخبر إلى السلطان وهو بمنزلة الكسوة، فأمر بإيقاع الحوطة على الصاحب تاج الدين ولد ولده، وكان صحبته، وأخذ خطه بمائة ألف دينار، وأرسله إلى مصر، ورسم أن يستخرج من أخيه الصاحب زين الدين مائة ألف دينار، ومن الصاحب عز الدين بن الصاحب محيي الدين مائة ألف دينار. وفوض السلطان وزارته للصاحب برهان الدين الخضر السنجاري، وفوضت إليه وزارة الصحبة للصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء في هذا التاريخ، ودخل إلى دمشق متولياً.

ذكر وفاة مجد الدين عبد الرحمٰن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم

وفيها: توفي القاضي مجد الدين [أبو محمد][1] عبد الرحمٰن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم قاضي الحنفية بدمشق، وكانت وفاته بدمشق في يوم الثلاثاء سادس شهر ربيع الآخر، ومولده بحلب في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وستمائة[2]. وكان رجلاً ديناً صالحاً فاضلاً لطيفاً، وتولى تدريس المدرسة الظاهرية بالقاهرة كما تقدم، وخطابة الجامع الظاهري بظاهر القاهرة، ثم نقل إلى قضاء دمشق كما تقدم. ولما مات فوض قضاء القضاة الحنفية بدمشق لقاضي القضاة الشيخ صدر الدين أبي الربيع سليمان بن أبي العز بن وهيب الحنفي، وكان قاضي القضاة الحنفية بالديار المصرية، وتوجه في الصحبة الظاهرية إلى غزوة الروم، فلما عاد واتفقت وفاة السلطان سأل أن يكون مدرساً بدمشق ومجاوراً لتربة السلطان، ففوض إليه تدريس المدرسة الظاهرية بدمشق، وكان ابتداء جلوس المدرسين بها في ثالث صفر من هذه السنة، وولي تدريس الشافعية بها الشيخ رشيد الدين الفازقي، واستمر القاضي صدر الدين في القضاء أربعة أشهر ومات. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الجمعة سادس شعبان، ودفن بسفح قاسيون بتربته وكان له، رحمه الله، التصانيف المفيدة في مذهبه، ولما مات فوض القضاء بعده بدمشق لقاضي القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنوشروان قاضي ملطية، وكان قد حضر إلى الشام صحبة السلطان الملك

---

(١) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥١.

(٢) الموافق: ١٢١٧ م.

الظاهر، ففوض إليه القضاء بدمشق في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وسبعين وستمائة[١]، وقيل: في شوال منها.

وفيها: كانت وفاة الشيخ تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن شاهانشاه ابن غسيان بن محمد بن جلب راغب المعروف بابن ميسر المصري[٢]، وكان فاضلاً جمع تاريخاً لمصر، وقد نقلنا عنه مواضع فيما سلف من كتابنا هذا، وكانت وفاته بمصر في يوم السبت ثاني عشر المحرم، ودفن بسفح المقطم. ومولده في يوم الثلاثاء جَمادي الأول سنة ثمان وعشرين وستمائة[٣] بمصر، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الشيخ العارف نجم الدين أبو المعالي محمد بن الخضر الشيباني الحريري

وفيها في ليلة الأحد رابع عشر شهر ربيع الآخر: توفي الشيخ العارف المحقق نجم الدين أبو المعالي محمد بن الخضر بن سوار بن إسرائيل الشيباني الحريري بدمشق، ودفن بقبة الشيخ أرسلان بمقبرة باب توما[٤]. ومولده في يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستمائة[٥] بدمشق، وكان ديناً صالحاً كريماً متواضعاً فاضلاً أديباً ناظماً، وله ديوان شعر، وشعره كثير المعاني، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثمان وسبعين وستمائة[٦]

[استهلت][٧] والسلطان الملك السعيد بدمشق، وفي خدمته من الأمراء من ذكر والعساكر مجردة كما تقدم.

وفي هذه السنة في ثامن المحرم: فوضت وزارة دمشق للصاحب فتح الدين عبد الله بن القيسراني الحلبي، وركب والرؤوساء والأكابر في خدمته وباشر من يومه.

وفيها في شهر ربيع الأول: وقع بين الأمراء الخاصكية وبين الأمير سيف الدين كَوُنْدَك نائب السلطنة فتنة، كان سببها أن السلطان الملك السعيد أكثر من الإنعام على

(١) الموافق: ١٢٧٨ م.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٧٠ ـ ٦٧١.

(٣) الموافق: ١٢٣٠ م.

(٤) باب توما: أحد أبواب مدينة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٧.

(٥) الموافق: ١٢٠٦ م.

(٦) يوافق أولها يوم الأحد ١٤ مايو/أيار ١٢٧٩ م.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

الخاصكية وأوسع في العطاء لهم، فاتفق أنه أنعم على بعضهم بألف دينار، فتوقف النائب في إمضاء المرسوم، فاجتمع المنعم عليه ببقية خوشداشيته وعرفهم ذلك، فاجتمعوا وحضروا إلى الأمير سيف الدين كوندك واسمعوه ما يكره، ودخلوا إلى السلطان وصمموا على عزله، فأجابهم إلى ذلك. فخرجوا إليه ليوقعوا به ويقبضوا عليه أو يقتلوه. وكان ذلك بحضور الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فمنعهم من ذلك وأخذه وضمه إليه. فخرج منشور السلطان له في اليوم الثاني بأمرة أربعين فارساً بحلب، فاستمر عند الأمير شمس الدين سنقر الأشقر سبعة أيام. ووردت الأخبار بعود الأمراء.

ذكر عود الأمراء من الغزاة وظهور الوحشة والمنافرة بينهم وبين السلطان الملك السعيد وتوجيههم إلى الديار المصرية

قال: ولما عاد الأمراء من الغزاة وقصدوا العبور إلى دمشق، أرسل إليهم الأمير سيف الدين كوندك يخبرهم بجلية الخبر ويعلمهم بما تقرر سراً. ثم ركب وخرج إليهم وتلقاهم، واجتمع بالأمير سيف الدين قلاون الألفي، وبدر الدين بيسري الشمسي، وتحدث معهما فأقاما بالمرج[١] بمن معهما من الأمراء ولم يعبرا [إلى][٢] دمشق، وسيرا إلى السلطان يقولان له: «إن الأمير سيف الدين كوندك حضر إلينا وشكا من لاجين الزيني شكاوى كثيرة، ولا بد لنا من الكشف عنها، فيسيره السلطان إلينا لنسمع كل[٣] منهما وننصف بينهما». فلم يعبأ [السلطان][٤] بقولهما، وكتب إلى الأمراء الظاهرية الذين معهما أن يفارقوهما ويعبروا إلى دمشق. فوقع القاصد بالكتب إلى الأمير سيف الدين كوندك فأحضره إلى الأمراء وأوقفهم على الكتب، فتحققوا سوء رأيه فيهم. ورحلوا من وقتهم من المرج ونزلوا بالجسورة[٥] وأظهروا الأمور الدالة على الخلاف. وندم السلطان وبعث الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير شمس الدين سنقر التكريتي الظاهري أستاذالدار إليهم، وتلطف بهم وقصد رجوعهم، فما وافقوا على الرجوع. ثم خرجت إليهم[٦] والدة السلطان إلى منزلة الكسوة[٧]، واجتمعت

---

(١) موضع قرب دمشق. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٩، ص ٢٦٦.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) هكذا بالأصل. والصواب: «كلاً».

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) موضع ظاهر دمشق. انظر النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٦٧.

(٦) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ١، ص ٢٦٧، س ٣.

(٧) الكُسْوَة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١.

بالأمراء وسألتهم الرجوع فما رجعوا. وساروا إلى الديار المصرية، فوصلوا إليها ونزلوا تحت الجبل في شهر ربيع الآخر، فاتصل بالأمراء المقيمين بالقلعة قدومهم، وكان بها الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار، والأمير علاء الدين أقطوان الساقي، وسيف الدين بلبان الزريقي، فتقدموا إلى متولي القاهرة بغلق أبوابها فغلقت، وبني خلف أكثرها الحيطان. فأرسلوا إلى الأمراء الذين بالقلعة في فتح الأبواب ليعبر العسكر إلى بيوتهم، فنزل الأمير عز الدين الأفرم، والأمير علاء الدين أقطوان إلى الأمراء ليجتمعا بهم، فقبض عليهما الأمير سيف الدين كوندك وأرسل الأمراء ففتحوا أبواب المدينة. ودخل الناس إلى بيوتهم بأثقالهم. ولما قبض على الأمير عز الدين الأفرم وعلاء الدين أقطوان نقلاً إلى دار الأمير سيف الدين قلاون بالقاهرة. وأغلق الأمير سيف الدين بلبان الزريقي أبواب القلعة واستعد للحصار.

ذكر وصول السلطان إلى قلعة الجبل وما كان من أمره إلى أن انخلع من السلطنة

قال المؤرخ: ولما رأى السلطان توجه الأمراء إلى الديار المصرية وانفرادهم عنه، جمع من كان بدمشق من بقايا العسكر المصري والعساكر الشامية، واستدعى العربان وأنفق[1] الأموال فيهم بدمشق، وسار إلى الديار المصرية. وكان رحيله من دمشق في يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الآخر، وسلم قلعة دمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري وجعله نائباً إلى حين عود الأمير عز الدين أيدمر النائب، فلما وصل السلطان إلى غزة تسلل أكثر العربان وتفرقوا، ولم يصل إلى بلبيس ومعه من العسكر الشامي إلا اليسير. فأعطى من بقي منهم دستوراً، فعادوا صحبة الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، نائب الشام، وكان وصولهم في مستهل جمادى الأول. وكان الأمير سيف الدين قلاون لما عاد من غزاة سيس جرد من العسكر الشامي بحلب الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق الصالحي، والأمير عز الدين أزدمر العلائي، والأمير شمس الدين قراسنقر المعزي، والأمير جمال الدين أقش الشمسي، وغيرهم في نحو ألفي فارس، فلما اتصل بهم خبر هذا الاختلاف رجعوا إلى دمشق في شهر ربيع الآخر وقدموا عليهم الأمير جمال الدين أقش الشمسي، ووصل الأمير عز الدين أيدمر النائب بالشام إلى دمشق هو ومن معه فخرج الأمراء الذين وصلوا من حلب يتلقونه. فلما التقوه سبه الأمير ركن الدين الجالق والأمير عز الدين أزدمر العلائي وقالا له: «كيف

(١) في الأصل: «نفق». والتصحيح يقتضيه السياق.

فارقت السلطان». فلما وصلوا إلى باب[١] الجابية أخذه الأمير جمال الدين أقش الشمسي إلى داره وقال له: «تكون بداري إلى أن يرد مرسوم السلطان، ولا تكون سبب إقامة فتنة». فتوجه معه إلى داره فأقام عنده إلى عشية النهار، وجاء الأمير ركن الدين الجالق وأزدمر العلائي إلى الأمير جمال الدين أقش الشمسي بعد صلاة العصر وأخذا الأمير عز الدين النائب من عنده وتوجها به إلى القلعة وسلماه إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري فتسلمه منهما وجعله بقاعة البحرة، ورسم عليه ومكنه من دخول الحمام. فجاء الأميران إلى القلعة في يوم الاثنين بعد العصر واجتمعا بالدواداري وأنكرا عليه كونه مكنه من دخول الحمام، وقالوا: «تسلمه إلينا نتوجه به إلى الديار المصرية»، فقال: «إنه ما جاءني ولا جاءكم مرسوم بالقبض عليه. وقد قبضتم عليه ووصل إلى عندي، فكيف أسلمه إليكما وبأي عذر أعتذر إلى السلطان». فأغلظوا له في القول. فلما أنكر حالهم وثب من بينهما وأمر رجاله بالقلعة بغلق أبوابها. فوثب الأميران وجردا سيوفهما وخرجا على حمية، وأغلق الدواداري باب قلعة دمشق.

هذا ما كان بالشام.

أما الملك السعيد فإنه لم يبق معه من الأمراء الأكابر إلا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير علم الدين الحلبي، والبقية من المماليك السعيدية، كلاجين الزيني ومن يجري مجراه، فلما وصل إلى قرب المطرية[٢] فارقه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وانفرد عنه وعن الأمراء.

قال: ولما بلغ الأمراء أن السلطان يقصد طلوع القلعة من وراء الجبل الأحمر ركبوا ليمنعوه من الوصول إلى القلعة، فجاء سحاب أسود وأظلم الوقت حتى أن الإنسان لا يرى رفيقه الذي يسايره، فطلع السلطان إلى القلعة، وما رآوه. ولما استقر بها حاصره الأمراء وأحاطوا بالقلعة، واتفق أن لاجين الزيني أنكر على الأمير سيف الدين بلبان الزريقي وشتمه، فتغير خاطره ونزل من القلعة وانحاز إلى الأمراء؛ وتسلل المماليك من القلعة واحداً بعد واحد ونزلوا إلى الأمراء. وأشار الأمير علم الدين سنجر الحلبي على السلطان بالإفراج عن المعتقلين، فأفرج عن الأمراء الشهرزورية وغيرهم، واستشار السلطان الأمير المشار إليه فيما يفعل، فقال: «أرى أن آخذ المماليك السلطانية وأهجم بهم على الأمراء وأفرق شملهم». فلم يوافقه على ذلك

---

(١) أحد أبواب دمشق. انظر النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٨٧، حاشية رقم (١).

(٢) المطرية: من قرى مصر. وفي جانبها الشمالي مدينة عين شمس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٩.

وتمادى الأمر أسبوعاً، فأرسل السلطان إلى الأمراء وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه من الملك. فالتمس من الأمير سيف الدين قلاون والأمير بدر الدين بيسري أن يعطوه قلعة الكرك، فأجاباه إلى ذلك. ونزل من القلعة بعد أن حلفوه ألا يتطرق إلى غيرها وأن لا يكاتب أحداً من النواب ولا يستميل أحداً من الجند. وحلفوا له أنهم لا يؤذونه في نفسه ولا يغيرون عليه. وسفروه لوقته صحبة الأمير سيف الدين بيغان الركني وجماعة يوصلونه إلى الكرك. فأوصلوه إليها وتسلمها من الأمير علاء الدين أيدكين الفخري النائب بها، وتسلم ما بها من الأموال والذخائر. وكان خروجه من السلطنة في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمائة. فكانت مدة سلطنته بعد وفاة والده سنتين وشهرين وأياماً(١).

ثم ملك بعده أخوه السلطان الملك العادل بدر الدين سُلامش بن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي وهو السادس من ملوك دولة الترك بالديار المصرية(٢).

ملك بعد خلع أخيه السلطان الملك السعيد في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمائة. وذلك أنه لما سُفِّر الملك السعيد إلى الكرك عرضت السلطنة على الأمير سيف الدين قلاون فأبى ذلك، وقال: «لم أخلع الملك طمعاً في السلطنة إلا حفظاً للنظام، وألفةً لأكابر الأمراء أن يتقدم عليهم الأصاغر، والأولى ألا تخرج السلطنة عن الذرية الظاهرية، فأقام بدر الدين سلامش هذا وله من العمر سبع سنين، وخطب له على المنابر، وضربت السكة باسمه، ودبر الأمر سيف الدين قلاون أتابكية الدولة، ولم يكن للملك العادل معه غير مجرد الاسم. وأقر الصاحب برهان الدين السنجاري(٣) على الوزارة وعزل قاضي القضاة تقي الدين محمد بن الحسين بن زين على القضاء بالديار المصرية، وفوضه إلى القاضي صدر الدين عمر ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وذلك في جمادى الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة». وعزل القاضي شمس الدين بن شكر المالكي، والقاضي معز الدين الحنفي عن القضاء. ثم أعيدا بعد مدة يسيرة. وفوض قضاء الحنابلة للقاضي عز الدين المقدس الحنبلي. واستناب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بالشام وسيره إلى دمشق. وكان وصوله إليها في يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة. وحال وصوله طلب الأمير علم الدين سنجر

(١) انظر النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) انظر النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٨٦.
(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٢٧٣.

الداواداري نائب قلعة دمشق وأمره بتسليم القلعة للأمير سيف الدين الصالحي. حسب ما رسم به، فتسلمها واستمر نائباً بها.

وفي يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة أمر الأمير شمس الدين بالقبض على الصاحب فتح الدين بن القيسراني وإيقاع الحوطة على موجوده وسير إلى الأبواب السلطانية تحت الاحتياط.

قال: وأخذ الأمير سيف الدين قلاوون في القبض على الأمراء الظاهرية[١] وهو في أثناء ذلك يدير الأحوال ويفرق الأموال ويوس الممالك ويمهد لنفسه المسالك.

وأما الأمير بدر الدين بيسري فإنه اشتغل بالشرب واللهو. فاجتمعت آراء الأمراء على استقلال الأمير سيف الدين قلاوون بالسلطنة، فأجابهم إلى ذلك، وخلع الملك سلامش من السلطنة. فكان (كذا) مدة وقوع اسم السلطنة عليه مائة[٢] يوم.

وكان حسن الصورة، جميل الهيئة، كثير السكون والحياء والعقل والأدب والتأني على صغر سنه.

تم الجزء الثلاثون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

يتلوه إن شاء الله تعالى في أول الجزء الحادي والثلاثين منه:

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) انظر النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٨، ٢٩٢.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٨٨.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

ابن أبي الفضائل: مفضل، كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس ١٩١١.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣١ ـ ١٩٤٢. (١٦ جزءاً).

ابن الجوزي: عبد الرحمٰن، (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م): صفة الصفوة، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م. (جزآن).

ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي (ت ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩ م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠. (أربعة أجزاء).

تهذيب التهذيب، حيدر آباد الدكن ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م (١٢ مجلد).

ابن الخطيب: لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة ١٩٥٥. (جزآن).

ابن خلدون: عبد الرحمٰن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، القاهرة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م. (سبعة أجزاء).

ابن خلّكان: أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة (لا. ت). (جزآن).

ابن سعد: الطبقات الكبرى، ليدن (١٣١١ (هـ/ ١٨٩٣ م). (تسعة مجلدات).

ابن شاكر الكتبي: محمد (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م)، فوات الوفيات والذيل عليها، القاهرة ١٨٨٢ م (مجلدان).

ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٤ م.

ابن عساكر: علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م): تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري، دمشق (١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٨ م).

ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح، عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة (لا. ت). (ثمانية أجزاء).

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م)، تاريخ الدول والملوك، ج ٧، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكية، بيروت ١٩٣٦.

ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر، أبو الوفاء (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م)، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥١ ـ ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩ م. (١٤ جزءاً في سبعة مجلدات).

ابن مماتي: أسعد بن مهذب بن مينا، أبو المكارم، (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م)، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز عطية، القاهرة ١٩٤٣.

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مُكَرَّم (ت ٧١١ هـ/ ١٣١١ م)، لسان العرب دار صادر، بيروت (لا. ت) (١٥ جزءاً).

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. صور شمسية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣١٩ (تاريخ). مأخوذة عن النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس.

أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م)، المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧ م.

أبي نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م. (عشرة مجلدات).

البحتري: ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣. (خمسة أجزاء).

البقلي: محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣.

الديار بكري: حسين بن محمد (ت ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٨ م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان، بيروت (لا. ت). جزآن في مجلد واحد.

الذهبي: شمس الدين محمد (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م)، دول الإسلام، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٨ ـ ١٩١٩ م. (جزآن).

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمٰن (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م)، بقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة ١٩٦٥ (جزآن).

شرّاب: محمد، معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٨٧.

الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ١٩٢٣ م)، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م. (١١ مجلد).

الطويل: غالب، تاريخ العلويين، دمشق ١٩٢٤.

الفيروزبادي: القاموس المحيط، القاهرة ١٣٣٠ هـ/ ١٩١١ م.

القلقشندي: أحمد بن علي /ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م):

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٥ (١٤ جزءاً).

ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، بغداد (لا. ت).

مبارك: علي باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٨ م. (عشرون جزءاً في أربعة مجلدات).

المتنبي: ديوانه، ط ٢٠، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٦. (أربعة أجزاء).

المقريزي: تقي الدين، أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م):

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة، مطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢. (أربعة أجزاء في ١٢ مجلد).

ـ التبر المسبوك في ذكر من حَجَّ من الخلفاء والملوك، القاهرة ١٩٥٥.

ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، القاهرة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م (جزآن).

النعيمي: عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٨ (جزآن).

اليافعي: عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٣٧ ـ ١٣٣٩ هـ/ ١٩١٩ ـ ١٩٢٠. (أربعة أجزاء).

ياقوت الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٧٧. (خمسة أجزاء).

ثانياً: المصادر الأجنبية

Butcher: Ers. E. L; the story of the church of Egypt. Smith Elder, London 1897, (2 V).

Dozy (R.); Supplément aux Dictionnaires Arabes, Leiden, Brill 1927. (2 V).

Lane - Poole, S;A History of Egypt in the Middle age. (Methuen, London 1914).

Le strang: G; Palestine under the Moslems. Watt. London 1890.

King: E. J; the knights Hospitallers in the Holy Land. (Methuen, London 1931).

Morier: J; the adventures of Hajji Baba of Isphahan. (Humphrey Miford, Oxford 1924 - 1925).

Quatremère: E; Histoire des Sultans Mamloks de L'Egypte. Paris 1837 - 1845. (2 V).

فهرس المحتويات